كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــــــــة
الفنان : بهجت عثمان

التاريخ الذى أحمله على ظهرى

(دراسة حالة)

●

بقلم:
الدكتور سيد عويس

●

دار الهلال

مقدمة

لم يكن يدور بخلدى عندما قمت وانا طالب بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى خريف عام ١٩٣٨ ببحث أول حالة لحدث من الاحداث المتهمين فى احدى الجرائم امام محكمة الاحداث فى القاهرة - لم يكن يدور بخلدى أبدا وانا أقوم بدراسة « حالة » هذا الحدث ان ياتى اليوم واقوم بدراسة « حالتى » كان ذلك الحدث أحد أبناء قسم الخليفة الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته حتى بلغت سن السابعة والعشرين من عمرى . وكان قسم الخليفة فى ذلك الحين المكان الوحيد الذى أعرف كل شوارعه وحاراته وأزقته . بل كل شبر فيه . فقد كان المكان الذى مارست فيه تجاربى ، الحلوة منها والمرة على السواء ، طوال هذه الفترة من حياتى .

واننى اذكر أن الحالات التى كان على طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة أن يقوموا بدراستها كانت موجودة فى ملفات وكان كل ملف يحمل اسما لحدث ، وعنوانا لمحل اقامة أسرة هذا الحدث . وكنا ، الطلاب وانا ، نذهب الى «ملجأ السيوفية" لنختار أسماء الأحداث وعناوينهم الذين نكلف ببحث حالاتهم . وقد اخترت أسماء الأحداث الذين يقيمون فى دائرة قسم الخليفة تيسيرا لى وللآخرين الذين لايعرفون عن قسم الخليفة شيئا . واننى اذكر ايضا اننى عندما اخذت الأسماء والعناوين كنت على ثقة من اننى سأقوم بواجب بحث حالات الأحداث على الوجه الاكمل . فقد درست على المستوى النظرى مبادىء "طريقة خدمة الفرد" التى تتضمن ضمن ماتتضمن تقبل العميل (أى الحدث) والبدء معه

حيث يكون واحترامه وإتاحة الفرصة له لكى يقرر مصيره أو أن يبدى تصوره على الأقل عن هذا المصير ثم الاحتفاظ بسرية البيانات التى تجمع عن العميل . وكنت على وعى بأن تطبيق هذه المبادىء تختلف دقته باختلاف الأشخاص الباحثين . أى باختلاف مدى تدريبهم ومستوى خبراتهم الموضوعية .

وذهبت حاملا هذه المبادىء وهذا الوعى الى عنوان أول حدث أقوم بدراسة حالته فى حياتى . وكان العنوان فى جهة ما من "الخارطة الجديدة" حيث يقع مقام "سيدى التونسى" . وأذكر أننى ذهبت فى أحد الأيام حيث أجد هذا العنوان فى الساعة العاشرة صباحا ، وعدت الى منزلى فى الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان يوما مشهودا فقد مكثت أبحث عن العنوان ساعات وساعات ، ولم اشأ أن أعود وأنا ابن قسم الخليفة بخفى حنين . وأننى أذكر أيضا أننى ذهبت من شارع الى حارة الى زقاق ولم أجد للعنوان أثرا . ولكن لم يفت ذلك فى عضدى . كنت أواجه التحدى الأول فى العمل التطبيقى فى ميدان مهنة الخدمة الاجتماعية أو بالأحرى فى مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد . ولم أتوان فى السير على الأقدام فى كل مكان فى الخارطة الجديدة ، ولم أتوان فى سؤال كل شخص فى المكان . وعندما عثرت على المكان حيث تقيم أسرة الحدث وجدته "حوش قرافة" . وكانت مفاجأة . أسرة بأعضائها وأثاثها تعيش مع الأموات ! لم يكن يدور بخلدى أن ذلك يحدث فى ذلك الحين . كنت فى ضوء خبراتى أعلم أن تعيش أم أرمل فى حوش قرافة "ابنها الوحيد" الذى مات وهو فى عنفوان شبابه . تعيش معه تؤنس وحدته أو تؤنس وحدتها تاركة الدنيا من وراء ظهرها وتعيش على أمل واحد هو أن تموت وتدفن معه فى يوم من الأيام . ولكن أن تعيش أسرة "زوج وزوجة واطفال" فى حوش قرافة تتخذه مسكنا لها فى خريف عام ١٩٣٨ لم يكن فى الحسبان . وبقدر مافوجئت فاننى فجعت . فهأنذا أواجه الحياة التى يعيشها بعض أبناء وطنى وجها لوجه . وعلى قدر ماكان فى جعبة خبراتى من

حالات فقر مدقع واجهتها من قبل فانني لم أجد مستوى من الفقر اقل مما وجدت عندما كنت اقوم بدراسة حالة أول حدث جانح متهم فى احدى الجرائم أمام محكمة الأحداث بالقاهرة . كان الاثاث وكأنه "شبح" أثاث . لم أتبين من محتوياته الا الحصير الذى ينام عليه أعضاء الأسرة . وكانت الوجوه الآدمية هى أيضا اشباح وجوه . ووجوه الأطفال لاتبين ملامحها فالقذارة تملأ كل محتوياتها ، والذباب يغطى فتحاتها . وكانت سذاجتى تدعونى الى طرد الذباب من على الوجه بيدى ، وكررت ذلك مرارا ولكنه كان يعود ! وتركت محل إقامة اسرة الحدث الذى قمت بدراسة حالته بعد ان اديت واجبى والغصة تعتصر قلبى وتملك على حواسى . واننى اذكر أن المرارة فى فمى لم تبرحه الا بعد أيام . وكانت تجربة ويالها من تجربة . وعندما ذهبت لكى أعيشها ، وعندما كررت التجربة بعد ذلك مرات ومرات ، لم يكن يدور بخلدى أن أجربها على نفسى . إن تجربتى مع الآخرين أحداثا كانوا أو شبانا أو بالغين ، أسوياء كانوا أو غير أسوياء ، الذين كنت أقوم بدراسة حالاتهم أمر قد تعودت عليه ، ولكن أن أقوم بهذه التجربة مع ذاتى فهو الأمر الجديد . واذا كانت التجارب مع الآخرين بتكرار ممارستها أصبحت ميسرة فان تجربة دراسة حالتى التى لن تتكرر ممارستها هى الأمر الصعب .

ومع كل ذلك فهأنذا أواجه القارىء بتجربة دراسة حالتى وأرجو المعذرة . ذلك أن ظروف الدراسة الحالية تقتضى القيام بهذه التجربة . وسأكون صادقا مع نفسى ومع القارىء . ولعل هذا الصدق فى ضوء العلم أن يكون سفينة نجاتى لتخرج هذه الدراسة موضوعية بقدر الامكان ، أرى نفسى فيها كما يرانى القراء فيها كما أنا لا كما أود أن أكون .

واذ اقول "لتخرج هذه الدراسة موضوعية بقدر الامكان" فاننى اعنى ماأقول . فأنا بشر قد تخوننى ذاكرتى أحيانا ، وقد أقول أشياء وأسكت عن أشياء أخرى . ولكن كل ماسأقول سيكون

الصدق والصدق وحده . أى أننى قد أخطىء ولكننى لن أتعمد الخطأ أبدا . ومن المؤكد ان الأشياء التى سأسكت عن ذكرها هى مجرد تفاصيل قد مررت بها . والسكوت عنها لن يقلب الدنيا ولن يقعدها . بل على العكس قد يوفر مساحة لكتابة ماهو أجدى وأنفع .

والملاحظ ان ذات الانسان منا لها وجوه عديدة . فصورتى عن ذاتى غير صورة من حولى من الناس عنها ، وهى غير الصورة التى أعتقد انها الصورة التى يراها عنها من حولى من الناس . وهى أيضا غير صورتى الحقيقية . وأننى فى الدراسة الحالية لاأقدم للقراء نفسى . فمن انا ؟ ولكنى أقدم دراسة حالة عن هذه النفس فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة ، وهى بالضرورة خبرات متواضعة . وعندما أقول "فمن انا ؟" فاننى لاأتواضع ولكنى أقول الحقيقة . ومهما يكن من الأمر فان الاجابة عن هذا السؤال هو كل ماأرجو أن يخرج القارىء به من هذه الدراسة .

ولاأذيع سرا اذ اقول إن الدراسة الحالية وان كانت من بنات أفكارى ، فاننى إذ أقوم بها أقوم بها بعد إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء الذين أكن لهم الاحترام والتبجيل . لقد رأى هؤلاء أنه قد أن الأوان لأكتب "سيرة ذاتية" عن حياتى التى مارستها . ولم أدر حتى الآن عن العوامل التى دفعتهم الى هذا الطلب شيئا . ويبدو أنهم رأوا بعض الملامح التى جعلتهم يلحون علىّ فى القيام بهذا العمل الصعب . ولم تكن هذه الملامح بالضرورة - ملامح وجهى ! ولعلها ان تكون ملامح قد برزت فى كتاباتى عن المجتمع المصرى المعاصر . هذا المجتمع الذى شغفت بمحاولة دراسته شغفا كبيرا . ولعل مصدر هذا الشغف أن يكون قيامى بدراسة أول حدث جانح السابق الاشارة إليها . فأنا أذكر أننى عندما أتممت هذه الدراسة بعد أن قابلت أسرة الحدث التى كانت تسكن حوش قرافة وتعيش حياة الأشباح بين الاموات - أذكر أننى عندما خرجت من الحوش الذى تعيش فيه إلى شوارع الخارطة الجديدة ومنها الى شوارع الامامين (الامام الشافعى

والامام الليثى) الى الشوارع التى تؤدى الى بيتى مرورا بحى السيدة عائشة وبعض الحوارى والأزقة ، كنت شخصا اخر . أحسست أن عينى قد استبدلت بهما عينان اخريان. وأحسست باننى لاأرى أشياء أو اناسا وانما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية . وكان شعورى بالضالة أمام ماأرى جارفا . ومنذ ذلك الحين أيقنت بأن المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم أو هو موسوعة اجتماعية لا أول لها ولا أخر . وعلى الرغم من الشعور بالضالة الذى جرفنى فى ذلك الحين فقد ولد فى نفسى الحب الجارف لكى أرصد بعض ظواهر هذا المجتمع أو بعض المواقف الاجتماعية التى بدأت أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجدها أمامى على الدوام . ومنذ تلك اللحظة أيقنت أن طموحى لن يقف عند هذا الحد بل سيتجاوزه الى محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى والى محاولة تفسير بعض ماأقرأ . وقد ظهر بعض مارصدت وقرأت ومحاولاتى فى تفسير بعض ماقرأت فى بعض كتاباتى المنشورة وغير المنشورة . ومن ثم ظهرت الملامح التى تنم عن حياتى التى عشتها وعاشت معى : ومن ثم كان إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء ، الذين أكن لهم الاحترام والتبجيل ، علىّ لاكتب "سيرة ذاتية" .

والملاحظ ان الدراسة الحالية ليست "سيرة ذاتية" ولايمكن ان تكون . انها كما سبق ان اوضحت "دراسة حالة" أى دراسة ثقافية اجتماعية عن أحد أعضاء المجتمع المصرى الذى ولد فى أحد الأحياء الشعبية فى مدينة القاهرة ، وعاش فيه حتى بلغ سن السابعة والعشرين ، ثم انتقل الى حى شعبى اخر حتى بلغ سن السابعة والأربعين ، ويعيش الآن فى حى ثالث فى نفس المدينة . وهى دراسة من خلال مسيرة هذا العضو فى الحياة فى داخل جمهورية مصرنا الخالدة وفى خارجها ، متنقلا من موقع عمل الى موقع عمل أخر وهو يؤدى أدوارا اجتماعية متباينة فى نطاق مواقع الأعمال هذه وفى خارجها . أى هى دراسة ثقافية اجتماعية لحالة

العميـل (الذى هو أنا) بالمعنى المفهوم فى البحوث الثقافية الاجتماعية . ولعل بصمات المهنة التى أتعاطاها منذ تخرجى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى عام ١٩٤٠ وحتى كتابة هذه السطور ، وهى مهنة البحث العلمى الاجتماعى ، ان يكون لها دخل فى تحديد منهج الدراسة الحالية ، أى "منهج دراسة الحالة" . ومهما يكن من الأمر فالرجاء كل الرجاء أن تعكس الدراسة الحالية الظروف المجتمعية للمجتمع المصرى فى خلال مجالها الزمنى . أو أن تعكس بعض هذه الظروف على الأقل . فعضو المجتمع منا هو نتاج المجتمع الذى يعيش فيه . وكل مجتمع يستحق المواطنين الصالحين الذين يعيشون بين جنباته ، كما يستحق أيضا المواطنين الطالحين الذين يعيشون بين جنباته . أى أنه إذا صلح المجتمع صلح أعضاؤه وانه اذا صلح أعضاء المجتمع صلح المجتمع .

وأهداف الدراسة الحالية فى هذا الضوء أهداف كبيرة حقا . ورجائى ان تكون سهلة المنال . فالعبء الذى أحمله فى سبيل تحقيق هذه الأهداف ثقيل ثقيل . فهو عبء أمام نفسى أولا وأمام القارىء أولا وأخيرا . واذا كانت الضرورة قد تحتم علىّ التحدث عن بعض المجتمعات الانسانية غير المجتمع المصرى ، فان المجتمع المصرى هو الأولى بالاهتمام . ولايخفى على القارىء أن المجتمع المصرى مجتمع فريد من نوعه فهو ليس كالكثير من المجتمعات الانسانية الأخرى . فهو ليس فقط مجتمعا قديما مستمرا بل هو أيضا مجتمع مستقر نسبيا . وفى حدود فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية لم تكن بعض ظروف المجتمع المصرى هى نفس ظروف المجتمع المصرى فى كل فترة من فتراتها . ولم أكن أنا هو نفس الشخص أيضا فى كل فترة من فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية . وهذا أمر طبيعى ومتوقع . فالتغير سمة الحياة ، ودوام الحال من المحال . ومع ذلك فقد اخترت منهجى ، وهذا قرارى وحدى ، والرجاء التوفيق .

فالملاحظة أننى ولدت وكان الخديوى عباس الثانى يحكم مصر ، ثم فرضت حماية الغاصب (الانجليز) وحكم مصر السلطان حسين كامل وجاء بعده السلطان أحمد فؤاد الذى أصبح ملكا ثم جاء بعده ابنه فاروق ثم "الطفل" أحمد فؤاد الثانى ، وكانوا كلهم حكاما غرباء ، لم يكونوا مصريين لالحما ولادما ولاثقافة . ثم حكم مصر منذ عام ١٩٥٢ الحكام المصريون "رؤساء الجمهورية" محمد نجيب ثم جمال عبد الناصر وجاء بعدهما محمد أنور السادات ، وهأنذا وأنا أكتب هذه السطور أصبح الحاكم هو محمد حسنى مبارك . ومنذ ولادتى وحتى الآن واجهت حربين عالميتين وأربع حروب مع اسرائيل (أعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣) ، وعشت ثورتين كبيرتين الأولى وكنت فى السادسة من عمرى (ثورة عام ١٩١٩) والثانية وكنت قد بلغت التاسعة والثلاثين من عمرى (ثورة عام ١٩٥٢) . وحدثت فى خلال فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية من كبار الحوادث مايعجز القلم عن حصرها . بعضها على المستوى المحلى وبعضها على المستوى العالمى . وكل ماحدث على المستوى المحلى أو على المستوى العالمى فى خلال فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية وحتى ماحدث فى خلال تاريخ المجتمع المصرى القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة ، لم يكن ليغير الكثير من العناصر الثقافية المصرية . وذلك لأن الثقافة المصرية لم تتم فى يوم واحد ولا فى قرن واحد . لأن تقدمها قد تضمن استمرارا فى جهود متجمعة فى حركة مركزية مدة طويلة ولم يكن هذا ممكنا دون ان يكون هناك قدر كاف من المركزية السياسية والاستقرار . وتحقق هذا الشرط منذ زمن مبكر فى وادى النيل .

ففى ضوء الوقائع التاريخية تم نوع من الوحدة السياسية فى مصر منذ عصور ماقبل التاريخ (حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م أو قبل ذلك) ★ . ولم تكن هذه الوحدة السياسية قد شملت جميع أرض

مصر ، بل كانت هناك مملكتان وحّدهما الملك "مينا" فى عام ٣٤٠٠ ق.م ثم بدأ عهد الأسرات . ولم تستمر هذه الوحدة الى الأبد بل ظلت ايام الأسرات الست الأولى (أى الدولة القديمة أى من عام ٣٤٠٠ _ ٢٤٧٥ ق . م) ، أى حوالى ألف سنة . وهى مدة كافية لتبلور الأفكار والعادات الخلقية . وقد مر على مصر القديمة عصران أخران من الاستقرار هما :
_ عصر الأسرتين ١١ _ ١٢ (الدولة الوسطى أى من عام ٢١٦٠ _ ١٧٨٨ ق.م)
و_ عصر الأسرات ١٨ _ ٢٠ (الدولة الحديثة أى من عام ١٥٨٠ _ ١٠٩٠ ق.م)

أى أن هذه العصور (عصور الاستقرار) قد امتدت على التوالى ٩٢٥ و ٣٧٢ و ٤٩٠ عاما . والملاحظ أن عصور الاستقرار كانت طويلة (١٧٨٧ عاما) وخاصة العصر الاساسى الأول . وذلك من حسن حظ مصر . فقد أمكن المصريون توطيد أركان نظمهم وتعميق جذور تقاليدهم .

ومن المعروف تاريخيا أن غزو الفرس لمصر بدأ فى الأسرة السابعة والعشرين عام ٥٢٥ ق.م ، أى أن مصر أصبحت ولاية فارسية وان كانت قد ظهرت فى فترات متقطعة أسرات وطنية محلية (أسرات ٢٨ _ ٣٠) حتى عام ٣٣٢ ق.م حين غزا الاسكندر المقدونى وحكم البطالمة من عام ٣٣٢ _ ٣٠ ق.م أى عام غزو الرومان لمصر . واستمرت الهيمنة الرومانية من عام ٣٠ ق.م حتى عام ٦٤٢ ميلادية . أى أن المدنية اليونانية والرومانية قد عاشت فى مصر مايقرب من الالف عام (٣٣٢ ق.م _ ٦٤٢ ميلادية) . ومنذ الفتح العربى فى عام ٦٤٢ ميلادية عاشت مصر فى ظل الخلفاء الراشدين ثم فى ظل حكم الأمويين والعباسيين ومرورا بالدولة الطولونية ثم الدولة الأخشيدية والدولة الفاطمية والدولة الايوبية ودولة المماليك البحرية ثم البرجية حتى قتل "طومان باى" أخر سلاطين دولة المماليك البرجية . وبمقتله دخلت البلاد فى عهد

جديد ، اذ أصبحت مصر تحت السيادة العثمانية فى عام ١٥١٧ميلادية . وعانت مصر فى خلال هذه الفترة من ضربات الحروب الصليبية والمغول وحكم المماليك فضلا عن الحكم العثمانى الوضيع ومصادرات الاتراك وسلبهم ونهبهم ، ثم واجه الشعب المصرى الاستعمار الغربى منذ أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨ ميلادية) عندما شن "نابليون" حملته ونزلت جيوشه بالاسكندرية فى يوليو عام ١٧٩٨ حتى عام ١٨٠١ ، وعندما واتت الفرصة للانجليز فاحتلوا البلاد فى عام ١٨٨٢ ، فى عهد أسرة "محمد على" (١٨٠٥ ـ ١٩٥٣) ، وانتهى الحكم الأجنبى واسترد الشعب المصرى حقوق سيادته ولأول مرة منذ عام ٥٢٥ ق.م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية . حيث تعدد حكامه غير المصريين ، وأصبح الحاكم حاكما مصريا .

★ **عبر حضارات الفيوم ومرمدة (٥٥٠٠ + ٥٠٠ ق . م)**

والملاحظ أن ظاهرة قدم المجتمع المصرى واستمرار ثقافته قد أكدتها بحوث ودراسات الكثير من العلماء والمفكرين ، كما أكدتها البحوث والدراسات التى قمت باجرائها . فالدين لم يتغير فى هذا المجتمع على طول عمره وما مر به من أحقاب الا مرتين ، ولم تتغير اللغة فيه الا مرتين أيضا ، على حين ان بريطانيا مثلا لم يبعد تاريخها الى أبعد من ألفى سنة تغير الدين فى خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها الى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين فى خلالها ثمان مرات واللغة ست مرات . أما جنس المصريين فلم يتغير فى جملته فى خلال عمر المجتمع المصرى الا تغيرات طفيفة فى حين أن بلدا كايطاليا تعاقبت عليها أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا هاما اكثر من مرة . ونتيجة ذلك نجد ان طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم تختلفا كثيرا رغم الاحقاب المتطاولة بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هى أيام المصريين القدماء . ولايمكن ان نعنى ذلك أن مصر لم تاخذ شيئا من الثقافات الأخرى التى مرت

عليها . ولكنها كما أخذت فقد أعطت ، وماأخذته لم يمس الأصيل الذى عندها فى قليل أو كثير بل بقى الأخير مع غيره عبر الأزمان جنبا الى جنب . فالدين المسيحى مثلا عندما دخل الى مصر فى عام ٦٤ ميلادية ، لم يجد شعب مصر ارضا بكرا أو صحراء جرداء ، لأن مصر كانت تعرف "أوزيريس" واستشهاده ، ثم بعثه ، كما كانت تعرف شقيقته "ايزيس" قبل ان يطرق أذنها صوت البشارة المرقسية عن "الفادى المخلص" وأمه "مريم العذراء" . ولم يجد الدين الاسلامى عندما دخل الى مصر فى عام ٦٤٢ ميلادية فى شعب مصر أيضا أرضا بكرا أو صحراء جرداء . لأن مصر كنت تعرف الوحدانية العالمية قبل ان يغزو أرضها جيش "عمرو بن العاص" . لهذا لما احتضنت مصر تعاليم هذا الدين تمثلت رموزه وأسراره الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار . فالتاريخ يذكر أن أخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة "أمنحتب الرابع" (حوالى ١٣٧٥ ـ ١٣٥٠ ق.م) كان "أول الموحدين" ، فقد دعا الى دين وحدانية جديد . وغيّر اسمه الى "اخناتون" إشارة الى اعتناقه ذلك الدين . ويعتبر أصلاح "اخناتون" وهو نوع من الاصلاح الدينى قد سبق نظيره الأوربى الذى دعا اليه "مارتن لوثر" بتسعة وعشرين قرنا . ورغم النير الرومانى مثلا تمكنت مصر من غزو غزاتها فى عقر عقولهم ، ومنحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسى العالم المتحضر أنذاك نبضه الروحى وعقيدته الدينية فضلا عن طمأنينته النفسية .

ومهما يكن من الأمر فان حديثى عن المجتمع المصرى سيكون حديثا ثقافيا اجتماعيا تاريخيا فى حدود المجال الزمنى للدراسة الحالية الذى يبدأ منذ ولادتى ويستمر حتى الانتهاء من كتابتها . ولن يكون هذا الحديث جامعا شاملا . وسيكون هذا الحديث من وجهة نظرى ، أى فى ضوء تجاربى وخبراتى . أى فى ضوء تجارب وخبرات من يعيش فى رحاب مصر كأى انسان عادى يحاول اشباع حاجاته المادية وحاجاته المعنوية بشرف . ولاهم له

الا محاولة فهم الواقع المصرى المعاصر فهما موضوعيا . اى محاولة فهم ماهو كائن لاتاحة الفرصة للتغيير الى مايجب أن يكون . ولاهم له أيضا الا الاسهام بما عنده من تجارب وخبرات فى تكوين أجيال من الشباب المصرى لكى ينمو أعضاؤها ويزدهروا وتتفتح ملكاتهم وقدراتهم ، حتى يستطيعوا ان يؤدوا أدوارهم الاجتماعية التى يتوقعها منهم المجتمع المصرى فى ظروفه الراهنة ، ومن ثم تتحقق أهداف هذا المجتمع فى المستقبل المشرق . وانا لاأملك من وسائل الا التجارب والخبرات ، والا أن أكن للناس على تباينهم ومكاناتهم الاجتماعية الحب والاحترام . والملاحظ بل والمؤكد ان هذه التجارب والخبرات ليست أكاديمية بحتة ، بل هى أكاديمية وواقعية جميعا . أننى اقرأ الكتب بانواعها واقلب صفحاتها حبا وشغفا بالمعرفة ، ولكنى أقرأ ايضا الكتاب الجامع الشامل كتاب المجتمع المصرى وأقلب صفحاته حبا وشغفا بالمعرفة أيضا . وأنا أقرأ الكتاب الأخير كما سبق أن ذكرت بقصد رصد ظواهره وبعض المواقف الاجتماعية التى أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجدها أمامى على الدوام ، وذلك بقصد فهم كل ذلك فهما موضوعيا ومحاولة تفسير كل ذلك فى ضوء هذا الفهم الموضوعى . ان هدفى الأول هو التعرف الصادق على اتجاهات أعضاء المجتمع المصرى المعاصر وماوراء هذه الاتجاهات من تراث ثقافى قديم ومتجدد . ومن ثم قد أحظى بالتعرف على نبض هذا المجتمع وأنا أعيش واقعه على أرض صلبة . فأنا أولا وقبل كل شىء باحث علمى اجتماعى أقول اذا قلت "أنا أعرف" ولا أقول اذا قلت "أنا أعتقد" أو "أنا أشعر" وأنا احترم من يعتقدون ومن يشعرون وحتى من يتخيلون ، فالعقيدة والمشاعر والخيال كلها ضروب من الأنماط السلوكية الانسانية . ولكنها عندى تعيش "تحت المجهر" ولاتحلق فوقه . إنها كلها موضوعات بحوثى ودراساتى أحاول أن أجد فى البحث عنها فى الزقاق وفى الحارة وفى الشارع وفى القرى وفى النجوع ، وأتلمس طريقى اليها فى المسجد وفى الكنيسة وفى

المحكمة وفى السجن وفى المستشفى وفى عيادة الطبيب وفى المصنع . فى كل مكان فيه بشر . سواء أكان أعضاؤه من الأسوياء أم من غير الأسوياء . اننى مع الناس وبالناس حيث كانوا فى حياتهم العادية ، وفى افراحهم وفى أتراحهم على السواء . إنهم مصدر حياتى العلمية فهم مادتى التى أتلمس عن طريقها الحقيقة التى هى صيدى الثمين وغايتى ومرادى . ولاأقصد بالحقيقة هذه الحقيقة المطلقة . فالعلم كما يرى انه "لاشىء يأتى من لاشىء" يرى أيضا انه "لاشىء مطلق" . واذا كانت ظروف المجتمع المصرى التاريخية الراهنة لاتعير من يهدفون الى أهدافى اهتماما أو الاهتمام الكافى ، فقد سبق لأصحاب المهن الاخرى كالمحاماة والصحافة ومن كانوا يتعاطون صناعة الأدب أو كانوا يمارسون الفنون بأنواعها أن عوملوا فى المجتمع المصرى نفس المعاملة . كانوا روادا فدفعوا ثمن الريادة . وكان هذا ولايزال أمرا متوقعا . وسيأتى اليوم الذى فيه يذكر من عاش تحت رمال النسيان وذاق مرارة العزلة وهو راض رضاء العاشق الولهان . ومن أولى بهذا العشق غير مصرنا الخالدة ؟ ماأحلى العذاب فى سبيل بناء لبنة فى صرح مجدها الأثيل ورفعة سلطانها وامتلاكها ناصية العلم والعرفان !

وموضوع الدراسة الحالية هو عن "التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة" . وقد حملت هذا التاريخ ومازلت أحمله حتى كتابة هذه السطور وكان ولا يزال حملا ثقيلا . لقد ترك بصماته العديدة على كل كيانى . وكان وكأنه "البوتقة" التى تصهر عناصر حياتى وهى تحت أتون صراعات هذه الحياة العاصفة . ولعل حظى السعيد أن كان معظم هذه العناصر أشياء كأنها التبر وما هى بالتبر . ومن ثم كانت الشوائب أقل وكان الثمين أكثر . ومع ذلك فاننى لست متأكدا من ذلك . فالحكم أولا وأخيرا للقارىء ومايخرج من قراءته من نتائج لايمكن أن أمليها عليه بل أتركه وحده أن يرى مايرى . وقد احسست بدايات عبء هذا التاريخ فى شهر يناير عام

١٩٣٠ عندما اضطررت الى أن اترك المدرسة الثانوية بعد وفاة أبى ، وكنت فى ذلك الحين فى السنة الرابعة وأسير فى الدراسة قدما نحو تحقيق بعض الأهداف ، كانت من أحلام ابى ، وهى : الحصول على شهادة البكالوريا ثم الالتحاق بالجامعة ، وبعدها السفر الى أوروبا للحصول على درجة أعلى . ولم تتحقق هذه الاحلام مع الأسف الشديد قبل وفاة أبى . ولم تكن وفاة أبى العامل الوحيد للانقطاع عن الدراسة التى كنت أحبها وأسعد بها ، والتى كانت تملك علىّ كل كيانى . بل كان أهم عامل لهذا الانقطاع هو الحاج جدى لأبى الذى أراد ، ولا راد لارادته . أن أقوم مقام أبى فى إدارة محل تجارته (الوكالة) . وكانت حجته ان الحصول على شهادة من مدرسة أو من جامعة لايفيدنى كثيرا . فان الحياة هى أعظم مدرسة وأعظم جامعة . ولم يكن لى ولا لأمى المستضعفة الا أن نرضخ لمشيئة هذا الجد . أنا أقوم بمسئولية ادارة محل تجارة أبى بعد وفاته ، وهى تعيش من أجلى فى كنف هذا الجد وأسرته الأبوية الممتدة . وكان عمرى عندما تحملت هذه المسئولية أقل من سبع عشرة سنة . كنت يافعا لاأدرك من أسرار الحياة الا القليل . وكانت المسئولية التى تحملتها ينوء بها شبابى الغض . ومع ذلك فقد واجهت هذه المسئولية مضطرا ، وكنت اعزى نفسى مرددا أن العلم ليس فى المدرسة أوفى الجامعة وحدهما . وان الحياة بحلوها ومرها ، أعظم مدرسة وأعظم جامعة . كان لسانى يقول هذا الحديث صامتا ، ولكننى كنت فى أعماق نفسى أردد حديثا اخر صارخا . كان انقطاعى عن الدراسة صدمة كبيرة لم أكن أريدها لنفسى ولم يكن يريدها أبى لى . كان يرى فى الزعيم مصطفى كامل قدوة لى . وكان يحلم بضرورة الاقتداء به واقتفاء أثره فأدرس فى الجامعة وأسافر الى اوروبا لكى استكمل مابدأت من دراسة . كان عنده ذلك أملا . ولكنه أمل لم يتحقق .

وقبل وفاة ابى كنت اشعر بالعبء الثقيل . عبء التاريخ الذى أحمله على ظهرى . كنت وأنا يافع أشعر بالمرض الذى كان يأكل

جسمه رويدا رويدا . وكان عملاقا ، ورأيته يضمحل من أمامى مع مرور الأيام . بدا لى قبل أن يموت وكأنه شبح فى جسم انسان . فقد اظهر طوله الفارع مابهذا الجسم من هزال ، وظهرت الوان الضعف فى حركاته . ولكن العقل بقى سليما معافى . وكنت آلاحظ هذه التغيرات ولا يلاحظ احد من حولى أننى آلاحظ . وكنت ارثى لحالى قبل ان أرثى لحال أبى . وكان انينى لايسمع . أعيش فى دنياى الحزينة وحدى .

وفى خلال فترة طفولتى كنت الاحظ أمى وهى تعمل جاهدة لتعطينى أخا أو أختا . وكان يأتى الاخ ولكنه بعد سنوات قلائل كان يموت ، وكانت تأتى الأخت وماتلبث بعد فترة من الزمن ان تختفى من الحياة . ورأيت أمى وهى تحمل مرة ومرات ، ورأيتها وهى تجهض ماتحمل مرة ومرات . ومر الزمن وضعف أبى ولم تستطع أمى أن تلد لى أخا ولا أختا . وفى ذلك الحين كنت أعيش طفولتى وحيدا حزينا . كان حزنى من أجل أمى ومن أجل أبى الذى كان يعشق الاطفال . وكان حزنى أيضا من أجل وفاة أخ لى أو أخت لى . كنت وعمرى لايعدو العاشرة وربما أقل من ذلك أرثى أخى المتوفى أو أختى المتوفاة رثاء طفل قد هاله ماحدث . وكان الرثاء لايعدو الهمهمات أو الأنات التى تأتى من أعماق الأعماق . لم تكن لدى كلمات رثاء انشدها أو أحدث نفسى أو غيرى بها . كنت أغمغم حزينا مكلوما . وكنت أفعل ذلك وحدى لايرانى أحد لأننى وددت أن لا يرانى أحد .

وقد تضمن التاريخ الذى أحمله على ظهرى الأحداث التاريخية التى عاشها الشعب المصرى . كانت أحداثا جساما حقا . عشت وقائعها متفرجا أحيانا ، كما عشت وقائعها مشاركا فيها أحيانا أخرى . وكنت وأنا المتفرج أو أنا المشارك متفائلا دائما . فالمستقبل المشرق كنت أراه من أمامى واضحا وضوح الشمس . وأنا حتى الآن لايمكن أن أكون يائسا من اجل مصر ، ولم أكن أبدا . حتى عندما راجت كلمة "سعد زغلول" الذى قالها وهو على

وشك الوفاة "أنا انتهيت" وأصبحت على الألسنة بعد تحريفها "سعد باشا قبل مايموت قال مفيش فايدة" ، فقد كنت على يقين وانا فى صباى (سن الرابعة عشرة) ان الفائدة آتية لاريب فيها مرددا فى ذلك الحين "فمن جسر أيسر ومن هاب خاب" .

وفى الخارج عندما سافرت طلبا للاستزادة من العلم والعرفان حملت بعض وقائع التاريخ على ظهرى . كانت الوحدة القاتلة منها . كما كانت الغربة القاسية أيضا . أما المرض والخوف من المجهول فقد كانا من الوقائع التى كادت أن تقصم ظهرى . لا أجد الكلمات لأصف هذه الوقائع . ولن يصفها الا الذى يعانيها . ويكفى المرء منا أن يواجه الصراع الثقافى الذى يعيشه فى المجتمع الأجنبى . ويكفى المرء منا أن يواجه الحواجز التى تقف فى سبيل الفهم والتفاهم على الرغم من خلو هذه الحواجز من حاجز اللغة . ويكفى أن يواجه المرء منا العزلة الاجتماعية التى يريدها ولايريدها فى الوقت نفسه .

ومع كل ذلك فإن التاريخ الذى احمله على ظهرى يتضمن الجوانب المشرقة . الايكفينى اننى عشت فى العصر الذى كان فيه ملء السمع والبصر كل من سيد درويش والمنفلوطى وشوقى وحافظ ومصطفى الرافعى وأحمد حسن الزيات والمازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد وبيرم التونسى وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وسلامة موسى وأحمد أمين وفكرى أباظة ؟ الا يكفينى أننى تتلمذت على فضيلة الشيخ محمود خطاب السبكى ثم السيدة إلزا ثابت ثم الأستاذ يعقوب فام ثم البروفيسور جون لويس (كلية مورلى بلندن) ثم البروفيسور البرت موريس (جامعة بوستن) ؟ كان الاخيرون هم أساتذتى بعد أبى وأمى الذين تركوا بصماتهم على شخصيتى وبقيت آثار هذه البصمات حتى الآن . كانوا مصادر الحب والاحترام والعلم والمعرفة التى نهلت منها كل ماهو خير وكل ماهو عذب . انهم على الرغم من اختلاف مشاربهم وأهدافهم وتباين تجاربهم وخبراتهم كانوا المناهل العذبة التى توفرت أمامى لأستقى

منها حلالا زلالا . لقد غيرنى كل واحد منهم وحضنى على أن أغير من نفسى لأكون نفسى الفريدة المتفردة . وقد أخذت من كل أستاذ بعض ماعنده . فمنهم من أخذت علما ومنهم من أخذت منهجا ومنهم من أخذت نظرة نحو الحياة . كان الجميع يهدفون الى التغيير الى الافضل ، تغييرى وتغيير غيرى . فلم أكن وحدى المقصود . ولكن كان كل له غرض يسعى ليدركه . وكان لى ايضا غرض اسعى لادراكه . أن أعمل من أجل مصر. وقد تحدد هذا العمل واصبح واضحا جليا عندما بدأت دراستى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة .

وكان التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية فى ضوء ظروفى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بداية طريق جديدة لى وتجربة من التجارب الحاسمة فى حياتى . كان هذا الالتحاق . فعلا وحقا ، بداية الثورة على حياتى التى واجهتها عندما ولدت وبعد ان شببت عن الطوق وصرت شابا . وكانت هذه الثورة ثورة على أوضاع هذه الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية جميعا . وكانت . فى الوقت نفسه . ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمهاوعاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا . فما أن تذوقت بعض قطرات من محيط المعرفة الزاخر فى المدرسة ، وما ان عشت كل معانى هذه القطرات ، وأحسست بأن القيود التى تكبلنى تتفكك . وأن عقلى الفتى يتفتح ، وظهرت امامى واضحة صورة تعقيل العمل الاجتماعى فى سبيل التغيير الى الافضل . تغيير مجتمعنا المصرى فى ذلك الحين الى الأفضل . ومن ثم أصبح السعى الى تحقيق هذا الغرض منذ ذلك الحين وفى كل حين قدرى .

واخيرا وليس اخرا فان أمنية الأمانى ألا وهى طرد الانجليز الغاصبين من مصر كانت جانبا مضيئا يتلألأ فى احدى فترات التاريخ الذى أحمله على ظهرى . ومثلها كان يوم اعلان الجمهورية . كان يوما مشرقا حقا حيث قطع دابر اخر ملوك أسرة

محمد على "الملك الطفل" أحمد فؤاد الثانى . وانتهت هذه الأسرة بخديوييها وسلاطينها وملوكها الى غير رجعة .

والدراسة الحالية "التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة" تتضمن فى الواقع شقين متوازيين ، وشق ثالث يعتبر فى الواقع حصيلة تفاعل الشقين الأولين . الأول ويتعلق بالجذور التى وضع بذورها أمى وأبى وأهلى وعشيرتى وبنات وأولاد "حتتى" وغيرهم فى كل موقع من المواقع التى أديت فيها دورا اجتماعيا أو أدوارا اجتماعية يتوقعها منى هذا الموقع أو ذاك ، وبخاصة عندما كنت فى داخل مصر لا فى خارجها . إن هذا الشق الذى يتعلق "ببذور حياتى وجذورها هو الأرض الذى خرجت منه وأنا كما أنا" . فأنا أدين لهذا الأصل مافى ذلك من شك . صحيح أننى منذ اللحظة التى خرجت فيها من بطن أمى بدأت أتفاعل مع كل مايحيط بى ومع كل من يحيط بى ، ثم بدأ كل مايحيط بى وكل من يحيط بى كرد فعل يتفاعل معى . ومع ذلك فاننى عندما وجدت كان الأصل موجودا . وبدأ التفاعل واستمر حتى الآن . وكنت نتاج هذا التفاعل ولا أزال . لم أكن سلبيا أو جامدا عندما وجدت . ولكنى لم أصنع ذاتى وحدى . كانت "البذور" التى حولتها الأرض جذورا عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع عناصر حياتى الاولى فأصبحت شخصيتى بمرور الزمان ماصارت اليه . ولعل من أهم هذه الأجهزة ، كما لا يخفى على القارىء ، الأسرة والجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية وأجهزة الثقافة الأخرى وأجهزة الاعلام وغيرها . والملاحظ أن هذه الأجهزة هى عبارة عن جماعات أو تتكون وهى تعمل من جماعات . وأنا كفرد من بنى البشر ، عندما لم تتكون لى شخصية بعد ، أو كشخص أى كفرد له شخصية . لا يمكن أن أكون قد عشت فى فراغ . لا يوجد فرد أو شخص لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة . فأنا عندما وجدت فى هذه الدنيا وجدت فى جماعة ، أى فى أسرتى الطبيعية . وأنا عندما كنت فى مراحل نموى شببت ونموت فى جماعات أخرى ، فى جماعة

اللعب (فى الحارة وفى الجيرة على وجه العموم) ، ثم فى جماعة المدرسة ، ثم فى جماعة العمل ثم فى غيرها من الجماعات الانسانية . فالشخص منا يبدأ حياته ، أول مايبدأ ، أقصد عند ولادته ، فى جماعة ويستمر يعيش عضوا فى العديد من الجماعات الأخرى . وكل هذه الجماعات تعيش فى المجتمع بل هى قوام المجتمع . وعندما وجدتنى أعيش فى أسرتى وجدتها تعيش فى أحد أحياء القاهرة . أى فى مجتمع محلى له كل مقومات المجتمع الانسانى سواء أكان كبيرا أم صغيرا . أى يتكون من جماعات من الناس (رجال ونساء وأطفال) يهدفون متعاونين أحيانا وهم فى صراع أحيانا أخرى الى تحقيق مصالح جوهرية (حفظ الحياة وحفظ النوع مثلا) بصفة مستمرة نسبيا . وتراهم يعيشون فى بيئة جغرافية واحدة . وقد ارتبط هذا الحى ولايزال بغيره من الأحياء أو المجتمعات المحلية فى مدينة القاهرة . وكما يتكون الحى الذى كانت تقيم فيه أسرتى من جماعات فان مدينة القاهرة كغيرها من المدن تتكون من جماعات كذلك ، جماعات ذات مصالح معينة . أو منظمات اجتماعية مثل المنظمات الاقتصادية والدينية والتربوية والسياسية . وفضلا عن ذلك فقد كنت أشعر منذ أن بدأت أن أشعر أن هذه الجماعات تعيش ألوانا متباينة من الحياة . وكانت أغلبيتها تعيش حياة الضنك . فكنت أرى أعضاءها من الأطفال ، وكانوا فى أزقة الحى وحاراته وشوارعه وكأنهم جحافل النمل ، حفاة الأقدام ولا يلبسون الا القمصان وما يستر عوراتهم . أما "الجلاليب" فكانوا يلبسونها فى فصل الشتاء أو فى المناسبات وهى فى معظم الأحيان مناسبات الأعياد . وكان الكثير من رجال الحى وشبانه ومن نسائه وشاباته حفاة الأقدام ، وان لبسوا فى أقدامهم شيئا فقد كانوا ينتعلون فى الغالب نعالا بسيطة الصنع أو "بلغا" . وكان يلبس الرجال والشبان والنساء والشابات الجلاليب وهم فى البيوت أو فى الحارات والأزقة ، وقد كانوا لا يفعلون ذلك مكتفين بما يستر عوراتهم من الملابس الداخلية فى الكثير من الأحيان ، ولكن اذا ما

خرج الرجال والشبان الى أعمالهم أو الى أماكن أخرى خرجوا وهم يلبسون جلاليبهم . أما اذا خرجت النساء والشابات فكن يلبسن فوق جلاليبهن الملاءات السوداء الرخيصة الثمن . وكان التسول حرفة للعديد من بنات الحى وأبنائه . ويبدو أن وجود "القرافات" فى هذا الحى فضلا عن المساجد مثل مساجد السيدة عائشة والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشافعى والامام الليثى وغيرها من عوامل احتراف التسول . وقد بدا لى أن لهذا الاحتراف مواسم يزداد فيها عدد المتسولين المحترفين "وغير المحترفين" عندما يزور بنات مصر وأبناؤها من شتى البقاع قبور موتاهم المنتشرة فى قرافات الحى . وكان هؤلاء يأتون أفواجا من حى الخليفة نفسه ومن أحياء مدينة القاهرة الأخرى ومن بعض القرى المجاورة . وكان يعيش مع الأغلبية الفقيرة من أعضاء حى الخليفة أقلية ضئيلة من الأغنياء الوجهاء . وكان الأخيرون يعيشون حياة الترف والرفاهية فضلا عن حياة المجون والخلاعة . ومن هؤلاء من كانوا يمثلون عائلات راشد وأبو الدبل والقط والطجاوى وعمران وغيرهم من الاقلية المرفهة . وكانت الاغلبية الفقيرة تعيش مع الأقلية "السعيدة" فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى قوامه بعض العقائد والقيم والمبادىء والمثل العليا فضلا عن العادات والتقاليد التى تجعل لسان حال أعضائها يقول راضيا وغير ساخط "رضا لمن يرضى" أو "من رضى بقليله عاش" . وكان أعضاء هذه الأغلبية الفقيرة راضين بما قسم لهم ، ولم يكونوا يتمردون على أحد غيرهم . فكان العراك بينهم والشتائم البذيئة التى تقذفها أفواههم ومنها شتم "الدين" و شتم "الأمهات" وحتى شتم "*الأموات*" ، كانت هذه وتعاطى المخدرات والمتعة الجنسية التى يمارسونها اذا كانوا متزوجين أو إذا كانوا غير متزوجين هى أهم "المنافذ الاجتماعية" التى ينفس عن طريقها أعضاء هذه الفئة المستضعفة . وقد تأكد لى منذ أن وعيت خبراتى المنتظمة أن جماعات حى الخليفة كمجتمع محلى مثل كل الجماعات البشرية

(فى الحضر وفى الريف على السواء) لايستطيع أعضاؤها على تباين سماتهم ومكاناتهم الاجتماعية أن يعيشوا من غير أن تتوفر لهم ثقافة يتميز بها مجتمعهم . وكانت تبدو هذه الثقافة ولاتزال فى عاداتهم وتقاليدهم والنظم الاجتماعية الخاصة بهم فضلا عن اللغة التى يتحدثون بها .

ومع الشق الاول الذى يتعلق بالجذور التى وضع بذورها أمى وأبى وأهلى وعشيرتى وبنات وأولاد "حتتى" وغيرهم وغيرهم فى كل موقع من المواقع التى أديت فيها دورا اجتماعيا أو أدوارا اجتماعية يتوقعها منى هذا الموقع أو ذاك وبخاصة قبل أن تفتح أمامى آفاق العالم الخارجى فأرتوى من مائه الزلال : "ماء الحياة الذى يتدفق ويستمر تدفقه دائما الى الامام .. دائما الى المستقبل" . وهذا الشق يتعلق بمسار افكارى التى أنبتتها "الارض والبذور" أى أن الشق الثانى هو فى حقيقة الأمر عبارة عن "سياحة فكرية" فى أعماق نفسى . وتحاول هذه السياحة فى تواضع صادق أن تكشف عن فكرة اعتنقتها ، كما تحاول ان تبرز مدى حرصى على العض بالنواجذ على أية فكرة . ومدى حرصى على نبذ أية فكرة وتركها الى غير رجعة ، أو ربما مدى حرصى على العودة اليها اذا كانت هذه العودة أمرا ملحا . ان الشق الثانى من الدراسة الحالية يحاول ان يكشف عن الآفاق العريضة والعميقة التى واجهتها وأنا فى الخارج . آفاق العلم وفروعه وتطبيقاته التى واجهتها وجها لوجه وأنا أعيش مغتربا لاأملك الا أن الاحظ ، وحدى ، الظواهر والمواقف والعلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجد مثلها فى المجتمع المصرى الذى كنت اعرفه فى ذلك الحين

أما الشق الثالث الذى يعتبر فى الواقع حصيلة تفاعل الشقين الاول والثانى فهو يكشف عن "الثمار" التى جنيتها . انه يكشف عن معاناتى الفكرية التى عشتها فى الماضى ولاأزال أعيشها فى الوقت الحاضر . وهو لايهتم بأن يعكس أفكارى أو مسار هذه الافكار فحسب ، ولكنه يحاول أيضا ان يذكر مآلها ومصيرها

ومصادر هذا الشق من الدراسة الحالية هى مؤلفاتى المنشورة وغير المنشورة والتى مازلت أعيش معها ولاتزال تعيش معى . وأننى أرجو أن تكون أهداف الاهتمام بهذا الشق واضحة للقارىء . فلا جديد فيها يستحق التنويه به . وان وجد ماهو جديد فهو شىء متواضع جدا أو هو مايتعلق بذاتى . ولعل ذلك أن ينفع الآخرين من بنات وابناء الوطن العزيز .. شباب مصرنا الخالدة .

وفى ضوء ماسبق قسمت الدراسة الحالية الى ثلاثة اجزاء هى :

الجـــزء الاول : الارض والبذور .

والجزء الثانى : مـــاء الحيـاة .

والجزء الثالث : الثمــــــار .

ويلاحظ ان هذه التقسيم لم يكن تعسفيا مائة فى المائة . ولعل القارىء الكريم أن يغفر لى ماقد يراه من تعسف قليل أو كثير . ذلك ان عبء الدراسة الحالية بأجزائها كما يرى القارىء عبء ثقيل ثقيل . ولكننى كما ذكرت من قبل اخترت منهجى . وهذا قرارى وحدى ، والرجاء التوفيق . وعلى كل حال فالملاحظ ان الارض وحدها لاتنبت ثمارا وكذلك البذور لاتفعل ذلك وحدها والماء ماء الحياة وحده لايمكن ان يجود بثمار ، أى أن الثالوث : الارض والبذور والماء ، هو على حد قول القدامى من أهل بلادى ، المنتج للثمار . انها دورة الحياة اذا وصفناها ماديا ، وهى معنويا دورة حياتى التى عشتها بحلوها ومرها . والتى مهما خيرت لتغييرها فلا قدرة لى على ذلك . وحتى لوكان الاختيار ميسرا لما اخترت غيرها . فقد عشت هذه الحياة وأنا راض . لقد استعذبت فى خلالها العذاب أو مايشبه العذاب ، كما شربت من كأس نعيمها المعنوى ماروانى أو كاد . فأنا لاأظن أن شخصا مثلى يرتوى من النعيم المعنوى فى هذه الدنيا التى وجدت نفسى أخوض مسالكها وطرقها على اشكالها العديدة . لاننى أرى أن هذا النعيم هو الفكر بألوانه ومن يستطيع ان يستوعب كل الوان الفكر او يرتوى منه والعمر مهما طال فهو قصير قصير . والعقل الانسانى لايفتأ أن يفكر ويفكر وأن يبدع

ويبدع ؟

وأصارح القارىء الكريم بأننى بدأت أفكر فى كتابة الدراسة الحالية فى يوم ١٧ من شهر فبراير ١٩٧٣ ، أى عندما بلغت سن الستين من عمرى . لم أفكر فى ذلك قبل ذلك . ولكنى فوجئت ببلوغى سن الستين . كانت مفاجأة لى حقا ! وكنت فى ذلك الحين وكأننى لم أتوقع هذه المفاجأة . لقد جاءت على غرة . وسارعت الى التفكير فى حياتى ماذا فعلت ؟ ولماذا فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فى خلال هذه الحياة . ووجدتنى مدفوعا الى تقديم "كشف حساب" لمن يأتى من بعدى سواء الذين يعيشون فى شغاف قلبى من أبنائى وأحفادى أو الذين اختاروا مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة لهم أو مهنة البحث العلمى الاجتماعى رسالة يؤدونها من أجل مصرنا الخالدة أو غير هؤلاء وأولئك من شباب المجتمع المصرى . ومرت ثمانى سنوات كنت فيها أفكر وأفكر وأفكر حتى اكتملت الصورة الذهنية عندى عن هذه الحياة . كنت مترددا فى خلال هذه الفترة . ومرات عديدة أقلعت عن التفكير فى القيام بهذه الدراسة . ولكنى تجاسرت فى يوم السبت ٢١ من شهر يونيو عام ١٩٨١ فى البدء فى الكتابة ، إننى فعلت ذلك ، كما ذكرت من قبل ، بعد إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء الذين أكن لهم الاحترام والتبجيل . وعندما بدأت فى كتابة الدراسة الحالية كنت فى "مصيف جمصة السياحى : محافظة الدقهلية" . وانني أذكر أنه على الرغم من القلق الذى بدأ يساورنى فانني ماأن امسكت بالقلم فاذا بالافكار تتدفق على القرطاس . وكنت أكتب كل يوم لمدة ساعتين فقط ، وظللت أفعل ذلك بعد انتهاء فترة المصيف فى منزلى "بالعجوزة" فى أوقات الفراغ ولم تكن أوقاتا طويلة . لم أكتب كل يوم وكذلك لم أكتب فى كل مرة لمدة أكثر من ساعتين . وكنت أكتب وأنا أعرف طريقى . أعرف بدايته كما كنت أعرف نهايته : فأنا اكتب فى ضوء الصورة الذهنية التى رسمتها ذاكرتى عن حياتى فى خلال فترة ثمانى سنوات . لم يكن يشغلنى عن الكتابة سوى الوقت الذى أكتب

فيه . ومرت الايام مر السحاب . وهأنذا أتشرف بتقديم الدراسة الحالية راجيا أن تكون ذات نفع لمن يتفضل ويجد الوقت لقراءتها .

واذ أنهى هذه المقدمة أبادر بالاعتراف بالفضل لذويه الذين تفضلوا بتشجيعى على القيام بالدراسة الحالية بأجزائها الثلاثة ألا وهى "التاريخ الذى أحمله على ظهرى : دراسة حالة" والذين تفضلوا بالطلب منى ذلك ، وتفضلوا بالالحاح الكريم فى هذا الطلب . وهأنذا ألبى مع الشكر الجزيل طلبهم راجيا أن أكون عند حسن ظنهم بى . وأخص من هؤلاء السادة الأفاضل السيدة إلزا ثابت والاستاذ الدكتور أنور لوقا والبروفيسور جلبرت ديلانو والبرفيسور أ . ب . م فيچى والسيدة حرمه والزميلة شهيدة الباز والاستاذة الدكتورة ناهد صالح والاستاذة الدكتورة نهى فهمى والاستاذة الدكتورة هدى مجاهد وزميلى الاستاذ محمد نجيب والاستاذ مصطفى طيبة .

واعترافى بالفضل لقارىء الدراسة الحالية أمر واجب علىّ أيضا . لأن هذه القراءة تعتبر استكمالا لما بدأت وتحقيقا لكل ماإليه هدفت . وإذا كنت قد عانيت وانا أكتب الدراسة فان معاناتى معاناة من أعطى لاليأخذ ولكن ليقرأ الناس مايكتب . والقارىء إذ يقرأ ماكتبت فانه يعطى أيضا ، لأنه يبذل جهدا ووقتا ويحقق هدفا ولاأقول يدفع ثمنا . أى أن عطاءه أسمى وأكرم . واعترف صادقا بأننى لم أكتب الدراسة الحالية و لاغيرها من الدراسات الأخرى ولن أكتب دراسات أخرى لاحقة الا من أجل أن يقرأ القارىء ماكتبت وماأكتب وماسأكتب ، وأنا لاأدعى أننى اتخذت من مسوح الرهبان لباسا فان أصبت جزاء ماديا فاننى أرحب بذلك على أن ذلك لايمكن أن يأتى فى الدرجة الاولى من الاهمية والملاحظ ان قراءة الدراسة الحالية بترتيب ورودها تكون أجدى على قارئها وأيسر . فقد كتبت لتقرأ كذلك ، أى لتقرأ قراءة متصلة .

سـيد عـويس

الأرض والبذور

١- امى فى اسرتها التناسلية

اننى أعرفها جيدا ، أعرف أسمها ، وأعرف اسم أبيها ، ولكنى لاأعرف اسم أمها . ان اسمها موجود فى شهادة ميلادى فهى أمى . أما أسم أمها فلم أعرفه لأنها لم تقله لى ولأننى لم أطلع على شهادة ميلادها . أبوها هو جدى "الشيخ أحمد صبح" واسمه موجود فى شهادة ميلادى حيث تجد أمام أسم الأم .. أمى "زنوبة أحمد صبح" . وقد رأيته وعرفته وانا صغير ثم وانا صبى يافع . ولكننى لم ار أمها ولم أعرف عنها شيئا . كل ماأعرفه أنها ماتت وتزوج أبوها جدى لأمى من أخرى أنجب منها أربع فتيات وصبيا . كبروا مع الزمن ورأيتهم وعشت معهم فترة طويلة قبل ان تموت أمى . وبعد ان ماتت . كانوا "زكية وحميدة وعزيزة وزهرة وسيد" . وكانوا غير أشقاء لأمى ولكن خالتى "أم محمد نبوية" كانت شقيقة . ومات زوجها وترك لها محمد وعيسى ومحمود ويوسف وكان يوسف رضيعا عندما تركه أبوه ومات وماتت الزوجة الثانية لجدى لأمى وتزوج من أخرى لم تنجب .

وعندما تفتحت عيناى على الحياة كان جدى أحمد صبح شيخا وكان خالى سيد قد تزوج ، وكانت خالتى زكية قد تزوجت ، أما خالاتى حميدة وعزيزة وزهرة فلم تتزوج واحدة منهن الا بعد ذلك وكادت [illegible] حميدة عانسا لولا الظروف السعيدة التى أوجدت لها عريس وتزوجت قبل ان يموت جدى لأمى بقليل .

وعاشت أمى يتيمة من الأم هى وشقيقتها أم محمد نبوية . وعندما تزوجت أمى كانت فى الثامنة من عمرها . وكان ابى يكبرها سنا وجسما . كان عملاقا بالنسبة لجسدها النحيل . وقد رأيته يكاد رأسه أن يرتطم بباب الحجرة العالى فى كل مرة يخرج منها أو يدخل فيها . اما أمى فقد كانت نحيلة قصيرة عندما تزوجت . وكاد الزواج أن لايدوم . فقد "جفلت". أمى كما كانت تقول لى . وتركت منزل الزوجية الى منزل أبيها الذى يقع فى نفس الحارة . على بعد خطوات منه . وعاشت مع ابيها واخواتها غير الاشقاء واخيها المدلل غير الشقيق سيد . فترة طويلة . وطالت الفترة . ولكنها لم تنس زوجها أبى . فهى تذكره . وفى الصباح المبكر كانت تقف وراء "شيش" النافذة لتراه وهو يخرج الى عمله مع أبيه الذى كان يعمل فى التجارة . كان الناس اهل الحارة والاقارب يرثون حظها لانها كما يقولون "لم تتحمل" زوجها العملاق الفارع الطويل عريض الكتفين وذا الشارب الطويل الاسود والعينين النجلاوين والحاجبين الكثيفين . انه أكبر الاخوة والاخوات وهو "دراع" أبيه اليمين . والمستقبل الزاهر امامه يستقبله بذراعين مفتوحين . ولكنها "جفلت" ! ومرت الأيام والأسابيع والشهور . وفاتت سنة ثم سنة والزواج قائم وهى فى كل صباح تقف وراء "الشيش" لتراه وهو يخرج الى عمله وجاء يوم ويالة من يوم فى حياتها تتذكره وكانت تذكره دائما قبل أن يموت أبى بعد سنين طوال . وكانت تتذكره وتذكره دائما قبل أن تموت هى بعد عشرين عاما من وفاة أبى . ناداها أبوها جدى لأمى وقال لها صارخا وهو يفعل ذلك دائما كلما تحدث الى مستضعف من الذكور أو من الاناث . قال مزمجرا "يابت حماك جانى امبارح يطلب رجوعك لزوجك ايه رأيك يابت ؟" وتقول أمى . بعد مرور السنين الطوال . تقول لى أو لمن تحدثه عن هذا الامر الخطير فى حياتها . "لم ارد على أبى" . فاذا به يزمجر صائحا وهو يضربها على خدها "السكوت يعنى رضا .. يابنت الكلب روحى لجوزك بكره" . وذهبت امى الى قدرها . وعاشت مع

ابى ، الذى لم يتزوج من غيرها أسوة بأبيه وذكور عائلة أبيه سنينا طوالا ، وأنجبت قبل أن أتى الى الحياة أطفالا لاأعرف منهم الا اسمين "كامل" "وظريفة" . وقد عرفت الأسم الأول عندما كانت أمى توقظ أبى فى الصباح قائلة له : "قوم ياأبو كامل" ، أو عندما تتحدث عنه قائلة "أبو كامل فعل كذا أو فعل كيت" أو عندما كانوا ينادون عليها فى البيت قائلين "ياأم كامل" أو عندما يتحدثون عنها قائلين "أم كامل فعلت كذا أو فعلت كيت " . وقد عرفت عندما كبرت ان ابى كان من انصار "الحزب الوطنى" الذى كان يتزعمه الزعيم الخالد "مصطفى كامل" ، ولأنه كان مولعا بالزعيم فسمى ابنه البكر "كاملا" . اما اخوتى الذين جاءوا بعد ، فقد كانوا كثيرين منهم أخوة لم يتم نضجهم فى رحم أمى ومنهم "عبد الغنى" الذى مات بعد سنتين من ولادته و "سكينه" التى ماتت ولما تبلغ الثالثة من عمرها . وبقيت وحدى مع أبى وأمى لاأعرف لى أخا أو أختا حتى ماتا .

ولايمكن الا أن أذكر ماحدث فى أثناء ثورة ١٩١٩ . وكان الجميع يتحدثون عنها فى البيت وفى الشارع وفى المقهى . وكنت أعلم عنها عن طريق جدى لأبى وعن طريق ابن عمى "عبد المنعم" الذى كان فى ذلك الحين شابا يافعا يدرس فى الأزهر . كان الانجليز يجوبون شوارع القاهرة وهم يحملون البنادق لينشروا الخوف والفزع فى قلوب المصريين أطفالا كانوا أو شبابا أو نساء أو رجالا . وعندما مر الانجليز أمام الحارة التى يقع بيتنا فيها لم يكن ابن عمى "عبد المنعم" فى البيت . كان مع زملائه الشبان يملؤون الشوارع هتافا بحياة مصر وسقوط الانجليز والخونة . عندئذ أى عندما مر الانجليز حاملو البنادق أمام الحارة صرخت زوجة عمى "أم عبد المنعم" صراخا متواليا مزعجا . وكان أبى فى المنزل لسبب لاأعلمه . وعندما علم أن الصراخ صادر من احدى حجرات المنزل خرج من حجرته ذاهبا الى مصدره . وصاح فى زوجة عمى طالبا منها أن تصمت والا . كان أبى الابن الاكبر وكان

يرى بحق أو من غير حق انه صاحب البيت اذا غاب عنه أبوه أى جدى لأبى . فلم تصمت . ورأيته وكنت صغيرا فى السادسة من عمرى يهجم عليها لكى يلطمها أو يهددها بذلك لكى تصمت ، فما كان من أمى الا أن حالت بينه وبين ذلك فوقفت بينهما . فما كان من أبى إلا أن وجدها أمامه فأفرغ شحنة غضبه بأن ضرب أمى على خدها وكانت حاملا . وسأذكر ماحييت أنه بعد ذلك قد هدأوا واستكانوا وان زوجة عمى هدأت واستكانت . أما أمى فقد حدث لها مالم أتبينه فى وقته الا بعد أن رأيت مايشبه اللعبة المصنوعة من اللحم الآدمى مودعة فى وعاء . وقيل لى وقتئذ أن هذه اللعبة قد نزلت من بطن أمى ...

وران الصمت على البيت حتى رجع جدى لأبى من عمله . ثم عاد ابن عمى "عبد المنعم" بعد الغروب . واذا بزوبعة تثور . سمعت حديثا صاخبا يصدر عن جدى لأبى وابن عمى . بديا لى وكأنهما يمثلان دورا على المسرح الذى ذهبت اليه ذات مرة مع أبى فى أحد الأعياد . كان جدى وحده وفى أحد يديه كرباج أما اليد الاخرى فقد كانت ممسكة بذراع عبد المنعم وكان جدى يقول صارخا "مالهم الانجليز ياولد ياخنزير" ؟ مش همَ اللى جابوا لنا الكهربا مش هم اللى جابوا لنا الترمواى مالهم الانجليز ياولد ياخنزير ؟ "، ويرد عليه ابن عمى صارخا هاتفا " تحيا مصر . ويسقط الانجليز " . كان جدى يقول مايقول وهو يضرب ابن العم بالكرباج وكان يقول ابن العم هاتفا مايقول وهو يضرب بالكرباج . وكانت نساء البيت وكن كثيرات يقفن من بعيد وتهمهم الواحدة بعد الاخرى "معلهشى ياسيدى حرّم خلاص" . وأسمع وأنا مشدوه عبد المنعم هاتفا فى كل مرة يضرب فيها "تحيا مصر . تحيا مصر . يسقط الانجليز . يسقط الانجليز" . وكنت ومعى اطفال الاسرة وكانوا كثيرين نقف ونسمع ولانقول شيئا . ولكننا كنا نرى مايحدث مشدوهين ، وكانت قلوبنا الصغيرة التى بدأت تكبر تخفق لهتافات عبد المنعم . وكنا من أجل ذلك معه قلبا وقالبا . نحييه ونأسى له

ولكننا لم نستطع أن نفعل شيئا .

اما أمى فقد ذهبت الى حجرتها والقت بجسدها على السرير أياما . ثم قامت بعد ذلك تؤدى واجباتها نحو أبى ونحو بيتها ولم يكن فى غيرى وغيرها ونحو أسرتها الممتدة التى تعيش فى كنفها والتى كانت تتكون فضلا عن ذلك من جدى لأبى وجدتى ومن زوجة عمى وعمى وأولادهما ومن زوجة عم أبى وعم أبى وولديهما ، ومن عمتى الارمل "أم بطة" وأولادها ومن عم أبى الذى لم يتزوج ، ومن غير هؤلاء مثل اقرباء جدتى لأبى ومن فى حكمهم من الاقارب الضيوف من أعضاء العائلة ومن هؤلاء فى العادة بنات عماتى المتوفيات واللاتى يعشن مع ابائهن المتزوجين من أخريات . قامت أمى بعد هذه الحادثة المؤلمة والمثيرة معا دون ان تقول شيئا أو تطالب بشىء أو أحد باسمها بشىء . قامت وكأن ماحدث لها لم يحدث لها . فقد كانت هى التى تعجن وتقرص وتترك "الخبيز" لزوجة عمى المغرمة بالخبيز . ومن تعجن كانت هى التى تغربل القمح "الخزين" وكانت هى التى تشرف على طحنه ، وكانت هى التى تستقبل الخبيز وتعده وترتبه وتحفظه فى "المشنات" . وكانت أمى فضلا عن ذلك هى التى تغسل ملابس العائلة كلها ، فهى كما كانوا يقولون مغرمة بهذا العمل الشاق . فكان يترك لها ببساطة . وكانت تساعدها "أم على نبيهة" زوجة الحانوتى الذى يسكن فى أحدى "منادر" منزل جدى لامى المجاور . وكان يوم العجين والخبيز يوما مشهودا . ففيه توزع "الحوانين" على اطفال الأسرة الذين كان عددهم فى ذلك الحين خمسة عشر طفلا . كل طفل له "حنونه" يضع فيه السمن والسكر ويأكله وهو ساخن فى لذة ونهم . وكان يوم الغسيل أيضا يوما مشهودا . فاذا ماانتهى شقاؤه تجد نساء البيت وأطفاله يجلسون على الطبلية للغداء ، فهم قد بدءوا هذا العمل المضنى فى الصباح غير المبكر ، أى عندما يخرج رجال البيت والاطفال الذين يذهبون الى المدارس . وبعد الغداء تقوم أمى بعمل "القهوة" للجميع من البن والسكر اللذين يكونان عادة

من عندها . وكنت ترى نساء البيت يشربن القهوة فى هذه المرة "سادة" حتى تلك التى تعودت على شربها بالسكر "الزيادة" أو بالسكر "المظبوط" . وذلك لأن أم على نبيهة هنا اليوم وهى تستطيع أن "تفتح الكوتشينة" كما تستطيع أن تقرأ "الفنجان" وكان الكل يتسابقون لكى تقرأ أم على الفنجان . واذا عاد احد أطفال الاسرة من المدرسة فى هذه الآونة فهو أو هى أيضا يلح فى قراءة الفنجان بعد أن يشربه أو تشربه وبخاصة اذا كان الموسم موسم امتحانات . كانت ام على نبيهة على الرغم من زواجها من حانوتى محبوبة وغير منفرة . فهى ضاحكة دائما مستبشرة دائما مطيعة دائما ، تحاول ان ترضى كل من هب ودب من الناس لتنسى كل من هب ودب من الناس أن زوجها "حانوتى" ، فلا يتشاءم منها أحد أو ينفر من جلستها انسان مصرى . ولم تكن أم على نبيهة تحضر فى هذه المناسبة (مناسبة الغسيل) وحدها كانت تحضر معها أبنتها الصغيرة "حسنة وابنها رمضان وابنها حسن" ـ وكانوا صغارا أما على وهو الأكبر اذا ماحضر فهو يحضر لكى يسأل عنها وقد يكون له من الأكل أو الشرب نصيب . وزوجة الحانوتى تكون فى العادة "حانوتية" أى أنها تمارس بعض الاجراءات وأهمها "غسل" جثة من تموت من النساء فى المستشفى . وكان هذا المستشفى فى ذلك الحين "مستشفى القصر العينى" . تذهب أم على نبيهة عندما تطلب ، وتراها عند ذهابها مسرعة مستبشرة ، وعندما تعود تأخذ أتعابها .. ومعها قطعة من الشاش والقطن المتبقى وقطعة من الصابون أو أكثر وربما "الليفة" اذا كانت صالحة . وتضع كل ذلك تحت "باطها" تحت "الملاية" السوداء التى تلبسها خارج المنزل . وقد تحضر الى منزلنا توا بعد أن تقوم بالمهمة ، وقد لاتحضر . واذا ماحضرت تحكى عما حدث ومارأت وماسمعت . وقد تواصل حديثها عن "المتوفاة" عن جسمها وتقاطيع وجهها وعن شبابها وبعض أوصافها الأخرى . كل ذلك وكل من فى المنزل نساء وفتيات وأطفالا

يصغون اليها ولكنهم لايأبهون بشىء الا أن أم على نبيهة فى ذلك اليوم كان حظها سعيدا . وهو يفعلون ذلك اذا كان "الحاج حسين" زوجها قد هجرها ، وكثيرا مايفعل ، تاركا معها "كوم اللحم" الذى فى عهدتها . انهم يرثون لها ويرجون لها فى الوقت نفسه المزيد من هذه المهمات ، فهى تستحق الخير كل الخير ، وزوجها مثل كل الأزواج لايستحق الا اللعنة ، والله لاينسى أحدا ، لاينسى أم على نبيهة وكوم اللحم الذى فى رعايتها ، فالرزق على الله ، والله مع المنكسرين جابر ، و "يقطع من هنا ويوصل من هنا" ، «وياويل الحاج حسين وياسواد ليله» ، ياويله من الله الجبار . ومع ذلك فهو قرة العين عندما يترضى أم على نبيهة ويعود اليها مستغفرا . عندئذ تراهما هو وأم على "سمن على عسل" .

وكانت أمى لاتطبخ طعام الأسرة فهى غير صالحة لهذه المهمة مادامت أم على زينب (زوجة عمى محمود شقيق أبى) موجودة . وهى دائما موجودة فى هذه المناسبات . تقود عملية الطهو والجميع يخدمونها وأمى مع هؤلاء دائما . فهى التى تحضر اللوازم من سمن أو زيت أو بصل أو خضار أو أرز .. الخ اذا طلب منها ذلك . فـزوجهـا أبـى الابن البكر للأسرة وهو الأغنى بعد أبيه جدى "الشيخ أحمد" ، وهو المسئول عن احضار مايلزم كل يوم من لوازم الأكل والشرب . هذا أمر أبيه "رب العائلة" ولاراد لأمر هذا الأب الذى هو جدى لأبى . وكانت أمى لاتفعل شيئا من ذلك الا باذن من أبى ، فهو راض عما تفعل وبخاصة مايصرف على المنزل . فكل مايصرف على المنزل من مأكل أو مشرب فى ضوء فلسفته كتاجر (على باب الله) الله يعوضه ، والمعوض مخلف . ويأكل الجميع ويسلم ايديك ياأم على يازينب . وكان الأطفال وأنا منهم يبدءون الأكل عادة فهم دائما جوعى ، ولامانع من أن يسبقوا فى هذا المضمار . ف "اللى يدى بلحة لابنى تنزل حلوتها فى بطنى" هذا ماكانت تقوله أمى وزوجة عمى الشقيق وزوجة عم أبى وجدتى أم أبى وعمتى أم بطة وكل من يحضرن من النساء .

وكانت أمى تلح علىّ أن آكل مع إبنة عمى مصطفى (اى ابنة عم أبى المتزوج) "سنية" وكانت تصغرنى وكنت افضل أن آكل مع ابنة عمى محمود وكانت تقاربنى فى السن . كنت أميل اليها واعتبرها أختا لى . فأنا نشأت ولم يكن لى اخوة أو اخوات أشقاء تقريبا . وكانت "فتحية" أقرب الى الشقيقة من سنية . ولعل ذلك أن يرجع الى أنها أى فتحية وهى طفلة رضيعة وكانت أمها أم على زينب مريضة ليس فى ثديها لبن يكفى لاطعامها ، كانت تسعى الى أمى كل صباح وتدق على باب غرفتنا (أمى وأبى وأنا) ويلوك لسانها بكلمات غير مفهومة طالبة من أمى أن ترضعها. طبعا لم أكن أعلم ذلك فقد كنت رضيعا مثلها . وكانت أمى ترحب فترضعها حتى تشبع . لعل ذلك أن يكون سببا أو أحد الأسباب التى جعلتنى أميل الى أن أشارك فتحية الطعام أكثر من أن أشارك سنية هذا الطعام . كانت أمى ترضع فتحية بلا غضاضة ، وكان أبى لايمانع أن يحدث هذا وبخاصة اذا كان موجودا فى المنزل أو فى الوقت المبكر الذى كانت معدة فتحية تختاره دائما عندما تدق على باب غرفتنا وقد يكون مازال نائما ! كانت أمى تعطى ماعندها دائما تعطى للصغار قبل الكبار أحيانا وكانت أيضا تعطى للكبار دائما . كانت تشقى لغيرها ويسعدها هذا الشقاء ، وتراها توزع الحب الانسانى على الجميع دون ماتفرقة وكل هذا "علـشان خاطـر سـيد (الذى هو أنا) . ولعل هذا السبب ان يكون صحيحا ولعله لم يكن السبب الأوحد . فأمى كانت يتيمة ، عاشت فى كنف زوجة الأب ، وتزوجت فى أسرة كبيرة العدد يتسلط فيها الرجال . فهى مستضعفة منذ أن ولدت وحيث كانت تعيش وزواجها وهى طفلة كان له أثر كبير ، فهى أول زوجة لأحد أعضاء أسرة جدى لأبى تدخل بيت هذا الجد ، بل تدخل بيت جدتى أم جدى "ستى حمدة" وأنا لم أر ستى حمدة هذه ولكنى سمعت عنها من أمى الكثير . كانت هى رجل البيت ، يرضخ كل من فيه حتى جدى لأبى لحكمها . واذا كان جدى لابى وأبى وعمى محمود شقيق أبى وعمى مصطفى عم أبى لم يتزوجوا

سوى زوجة واحدة ، فان ستى حمدة تزوجت مرتين ! عم محمد عويس آبا جدى لأبى ثم عم حسين والد كل من عمتى أم سيد فقوسة وعم أبى مصطفى وعم ابى عبد الفتاح الذى لم يتزوج ، وبقى أعزبا لاسباب صحية حتى الموت . ويبدو أن هذه السيدة ستى حمدة كانت حاكما قاسيا . كانت كلمتها لاترد . وعندما جاءت أمى أول مرة كأول زوجة لابن من أبناء هذه الأسرة الكبيرة أخذت ستى حمدة تروضها حسب ماتوحى لها نزواتها المستبدة . وعندما "جفلت" أمى وذهبت الى بيت ابيها المجاور لم تأبه ستى حمدة وتركتها فى وحدتها تواجه المستقبل المجهول . وعندما عادت أمى بعد مرور الشهور الطوال ، كانت العبدة المطيعة لهذه السيدة الحاكمة بأمرها . واننى لاأظلم هذه السيدة أبدا . فالحكايات عن الرعب الذى كانت تلقيه فى نفوس الجميع وعن أوامرها التى يجب أن تنفذ بحق أو من غير حق لاتعد ولا تحصى . وقد ذكر لى جدى لأبى ذات مرة انه كان يعمل معها فى دكان العطارة الذى كانت ستى حمدة تديره بعد وفاة زوجها عم حسين ، وذهب الى "المدينة" ليشترى بضاعة ، وكانت معه عشرة جنيهات مصرية ، أو مايوازى هذه المبلغ من عملات الماضى الذى كان يعيشه فى ذلك الحين . وذهب الى المدينة أى الى حى الجمالية مركز التجارة فى مدينة القاهرة ، ورأى قبل أن يفعل ذلك أن يزور مقام "سيدنا الحسين" ، وفعل ذلك . ولكنه أراد أن يستريح قليلا فما لبث أن نام ، وفى أثناء نومه نشل وذهبت العشرة الجنيهات مع الريح . ولم يجرؤ على أن يفاتح أمه فى هذا الأمر وعوض المبلغ المسروق بطريقة أو بأخرى . وماتت ستى حمدة ولم تعلم عن عملية النشل هذه شيئا .

عاشت أمى تحت نير ستى حمدة تؤمر فتطيع ، تعجن الدقيق وتقرص العجين وقبل ذلك تغربل القمح ، كما تعجن روث الحمار الذى يملكه جدى لأبى ليكون وقودا للفرن ، وتنظف "الحاصل" أى المكان الذى أفرد للحمار لينام فيه ، كما تنظف حجرات المنزل جميعا ، وتغسل غسيل الجميع ، وكانت تساعدها اخوات زوجها قبل

أن يتزوجن ، وقد عرفت بعضهن قبل أن يتوفاهن الله : عمتى أم بطة وعمتى أم زكية وعمتى أم سكينة وعمتى أم عطيات ، كن اربع فتيات شقيقات لأبى وعمى محمود . أما جدى لأبى فقد كان وحيدا لاشقيق له ، وكان عم أبى مصطفى وعم أبى عبد الفتاح وعمتى أم سيد فقوسة اخوة له غير أشقاء . كانت أمى تعيش فى هذا المنزل المملوء بالآدميين من الجنسين بأعمارهم المتباينة . كانت تعيش مع ابى جزءا من الليل بعد أن يعود من عمله . وكانت تستيقظ اول المستيقظين وتنام آخر النائمين . وكانت تحمل وتلد ويموت أولادها ، وكانت تحمل ولايعيش الجنين حتى يولد ، ومع ذلك فانها كانت تعمل وتعمل دائما ودائما . وقد بقيت أمى فى بيت العائلة الذى كان يملكه جدى لأبى وكان مكونا من ثلاثة أدوار فى حجرة واحدة . وكان يدخل ابى هذه الحجرة ليلا ولا يخرج منها الا فى الصباح المبكر ذاهبا توا الى عمله . كانت حجرة للنوم وكانت حجرة للطعام وكانت حجرة يستعمل جزء منها حماما . بقيت أمى وأبى ومن ولد لهما ومن مات لهما فى هذه الحجرة حتى مات أبى . وعشنا فيها هى وأنا حتى وجدت لى بنت الحلال وتزوجت . أى أن أمى لم تبرح هذه الغرفة طوال مدة تربو على الأربعين عاما .

وكبر عمى محمود ونما وطلب منه أن يتزوج فلم يرفض واختيرت له زوجة عمى ام على زينب . وكان بالمنزل عندما جاءت جدى وجدتى ، وعمتى الأرملة أم بطة وأطفالها ، نفيسة ورتيبة ومحمود ، التى جاءت لتعيش فى كنف ابيها . ثم أمى وأبى ، وعم مصطفى وعم عبد الفتاح . كانت ستى حمدة قد ماتت وكانت عمتى أم زكية وعمتى أم سكينة وعمتى أم عطيات قد تزوجن وخرجن الى منازل أزواجهن . وحتى الآن وبعد أن بحثت كثيرا مازلت لاأعرف أسماء عماتى ، وان كنت أعرف اسمى زوجة عمى محمود وزوجة عم أبى مصطفى ، فالأولى "زينب" وكانوا يلقبونها بأم على زينب والثانية "سكينة" وكانوا يلقبونها بأم حسين سكينة .

جاءت زوجة عمى محمود الى منزلنا قبل زوجة عم أبى مصطفى ، ولكنها جاءت بعد أمى . جاءت وكان زوجها هو الشقيق الأصغر . جاءت وقد سبقتها الأحاديث عن أسرتها وعن ابيها "على أفندى" الذى كان يعمل كاتبا أو شيئا من هذا القبيل فى دائرة أحد أمراء الأسرة الحاكمة . كانت زوجة عمى محمود يتيمة أيضا وتزوج أبوها من سيدة أخرى . وكانت لاتعيش مع أبيها . وقد وجدت مكانا فى أسرة أمها المتوفاة . كان أبوها يعرف القراءة والكتابة وكانت هى مثل أمى لاتعرف القراءة والكتابة . لم تعرف سيدة أو انسة من أسرة جدى لأبى القراءة والكتابة . اهتم جدى لأبى ان يعلم أبى وأن يعلم عمى وأن يعلم أخاه غير الشقيق مصطفى القراءة والكتابة . كان هذا الجد يحفظ القرآن الكريم ويرتله ترتيلا جميلا يسمعه أهل المنزل بل يسمعه أهل الحارة عندما كان يصلى صلاة العشاء . وكانوا يصغون اليه فى شغف . وكنا ، جميع أعضاء الأسرة وأطفالها عندما جاءوا الى الحياة ، نستمع لتلاوته أيضا فى شغف . كان ترتيله صافيا سلسا مؤثرا ولم يكن من حظ عم أبى عبد الفتاح أن يتعلم شيئا لأن مستوى ذكائه لم يكن يرقى الى ذلك .

وجاءت زوجة عمى محمود من بيئة ثقافية اجتماعية غير بيئة أبى وأمى . فقد كانت بيئة ابى الثقافية الاجتماعية هى نفس بيئة أمى . كانا من نفس الحارة ومن نفس "الحتة" ، حى الخليفة أما زوجة عمى فقد جاءت تحمل على كتفيها ثقافة أخرى وخبرات انسانية أخرى . كان أبوها "على افندى" موضوعا لافتخارها . فهو افندى . وهى وان لم تعش معه بعد وفاة أمها فقد كانت تذهب الى منزله الذى كانت تديره زوجة أبيها لزيارته ، وربما كانت تعيش أياما ثم ماتلبث أن تعود الى أسرة أمها المتوفاة . وكانت فى أثناء زيارتها ترى "الأفنديات" أصدقاء أبيها ، وتسمع منهم وعنهم الكثير ، كانت تعرف الحياة التى يحيونها . وكانت حياة ابيها مثلا أمامها يحكى أنماط السلوك والعلاقات التى تتضمنها هذه الحياة . ومهما يكن فقد كانت الحياة تختلف كثيرا كثيرا عن الحياة التى وجدتها

بعد زواجها . حياة كانت تراها أنها الافضل ولكن مااليد حيلة .
فهى قد تزوجت ومالبثت أن حملت ، بل هى وضعت طفلها الأول
"عبد المنعم" ابن عمى شقيق أبى . ومع ذلك فقد تركت الحياة
السابقة على شخصيتها بصمات . فلم تستكن للاوضاع السائدة
فى منزل الأسرة الجديدة ، كانت تقف أمام أى مطلب لاترضى أن
تقوم به . فهى لم تضع يدها فى عجين أو غسيل . وهى لم تهتم
بالحماز وكل مايتعلق بالحمار . كانت تأنف أن تفعل ذلك . لامانع
عندها من ان تخبز مثلا أو تطبخ مثلا ، ولكن ماعدا ذلك من أعمال
فهى لاتصلح لها ، وكانت تحاول أن تحرض أمى على التمرد ولكنها
كانت تفشل دائما . فأمى قد اسرتها العادات التى تأصلت فيها
وأصبحت جزءا من شخصيتها . انها مطيعة دائما ، مستكينة دائما
، متطوعة للعمل دائما، لاترضى لأحد سوءا ، وتحاول مااستطاعت
أن "تخلى الطابق مستور" . انها راضية ، بما لها وماعليها ، مادام
زوجها راضيا عنها . هذا هو الأمل الاول فى حياتها . انها تسعد
برضاه ولاترضى عن غير ذلك فتيلا . ولتتمرد ام على زينب ماشاء
لها مزاجها فأمى "سدادة" تعمل مايطلب منها أن تعمل عن حب
وكرامة . ولاداعى لأن يشعر أحد أو يعرف شيئا . ان العمل
المطلوب قد عمل . وسواء عملته أمى أو أمرأة عمى زينب فلاشىء
يهم . فهى اى أمرأة عمى زينب قبل كل شىء "سلفتها" . ومن
حقها عليها أن ترضيها وان لم تتوقع منها رضى أو اعترافا
بالجميل . وكانت ام على زينب تؤدى دورها بأسلوبها بعض
مايرضى أمى . فهى اذا مارأت ان الكيل قد طفح تبادر بالدفاع
عنها وتحميها وتحاول ان تنصرها على من يظلمها حتى لو كان جدى
الكبير أقصد جدى لأبى . كانت ام على زينب تناقش هذا الرجل
أحيانا . الامر الذى كان لايجرؤ أن يفعله أحد ، حتى لو كان ابى .
ولن انسى ذات مرة عندما كنت اجلس فى حجر جدى لأبى وانا
طفل ولكنى ادرك مايحدث من حولى . لن انسى عندما كان ينادى
جدى لابى طالبا ابى العملاق فى الطول والعرض ، الضخم ، ذا

الشوارب السوداء المفتولة ، لكى يمثل بين يديه . كنت ارى أبى وهو يحاول ان يضم خلايا جسمه لكى يقل هذا الطول ويتقلص هذا العرض وتخف هذه الضخامة ، وأراه واقفا واضعا يديه على صدره وكانه فى صلاة . ويأمره جدى بأوامر لم اكن افهمها ويطلب منه اشياء لم اكن اعرف كنهها . وكان ابى يردد فى كل مرة بعد كل امرو طلب "حاضر يابا" . وكان رأسى الصغير كالبندول ارى جدى وهو يتحدث ثم التفت الى ابى وهو يردد "حاضر يابا" ثم اكررذلك مرات حتى ينتهى الحديث . ولكن زوجة عمى أم على زينب كانت تناقش هذا الجد الدكتاتور أحيانا قائلة قبل ان يفتح فاه "حنعمل كيت وكيت ياسيدى" و "اللى انت طلبته ياسيدى مش يمكن يتعمل النهارده بكرة حنعمله ياسيدى" وهكذا . ومن ثم كنت ترى أهل البيت ، وقد وجدوا هذه الحظوة التى نالتها أم على زينب عند جدى لأبى ، وسيلة يطلبون عن طريقها مايرغبون ان يعمله هذا الجد لهم ، وفى الغالب لهن ، من طلبات . فأم على زينب كانت تطلب عادة قبل ان يطلب منها . وهى التى كانت تقترح الحلول البديلة بدلا من تلك التى لايقدر عليها بشر . وهى أولا وقبل كل شىء التى كانت تطلب النقود من هذا الجد الذى كان لايرى شيئا أثمن من النقود . ان أم على زينب عندما جاءت الى أسرة جدى لأبى جاءت ومعها سلوك متمرد على أوضاع الاسرة السائدة ولكنه كان تمردا فى حدود طبعا . فالكلمة مازالت اولا وأخيرا للجد الرجل . وهو كانسان لايمانع فى أن تناقشه امرأة لايمكن بحال من الأحوال أن تتضمن مناقشتها الاصرار على شىء لايراه أولايرضيه . ويبدو انه كان يعتبر هذا الاعتراض من قبل أم على زينب أو هذه المناقشة نوعا من التغيير المحبب .

انظر الى هذه الام أم على زينب ومعها امى وغيرهما من النساء الحاضرات والأطفال الموجودين وهم يضعون الاكل على "الطبلية" فى الصباح شبه المبكر لكى يتعاطوا طعام الافطار . انظر اليهم جميعا إذ يسمعون صدى حذاء جدى لأبى وهو نازل من الدور

الأعلى على السلالم ذاهبا الى العمل . انهم جميعا النساء والاطفال الذكور والاناث يهرعون يسابق بعضهم بعضا . واحدة تحمل الاوانى وماتبقى فيها من طعام ، وأخرى تحمل أرغفة الخبز الكاملة والتى أكل منها ، وأخرى تحمل الطبلية ، ذاهبين بكل هذا الى احدى الحجرات . ثم يقف الجميع بلا استثناء فى نصف دائرة . فاذا مانزل جدى لأبى آخر "سلمه" وجدهم كذلك ، ثم يقول مكشرا عن انياب طقم أسنانه الصناعية وكأنه قرفان "صباح الخير" ويردد الحاضرون "صباح الخير ياسيدى" . ثم يضع يده فى جيبه وينادى أولا على النساء واحدة واحدة أمرا : خدى يابت ، خدى يابت ، خدى يابت .. . ثم ينادى على الاطفال واحد واحد آمرا أيضا : خد ياولد خد ياولد ، خدى يابت .. وهذا هو المصروف اليومى . ثم يعطى أوامره عمايرغب فى طعام اليوم أو مايعن له من نزوات . ويخرج لينزل الى حوش البيت ثم الى الحارة ومنها الى الشارع . ومايلبث ان يدير ظهره حتى يهرع الجميع . يسابق بعضهم بعضا . ليحضروا الطبلية واوانى الطعام الذى لم يتم أكله ، وأرغفة الخبز التى لم تؤكل وماأكل منها ، وماكانت تحمل من أشياء ، ليستأنفوا طعام الأفطار . كل صباح كانت تؤدى لهذا الرجل هذه المراسيم ، ولم يكن يجرؤ أحد حتى أم على زينب أن يقول شيئا .

وبالاضافة الى ماسبق كانت أم على زينب تتفوق على نساء أهل البيت فى أمور أخرى . كانت تفصل الملابس وتخيطها ، وكانت على دراية رائعة بشغل الأبرة ، فهى تصنع "البراقع" . وكل سيدة فى البيت او فى خارج البيت من أهل الحارة أو من المعارف تهرع اليها لتصنع لها برقعها وبخاصة تلك التى اشترت "عروسة" لهذا البرقع من الذهب . فبرقع أم على زينب لايعلو عليه برقع . فهو مصنوع بدقة وذوق ويدل على الحذق والمهارة . وكانت أم على زينب تتقبل الهدايا نظير ماتصنع من ملابس أو من براقع . ثم بمرور الزمن كانت تتقبل النقود . وذلك لأن مرور الزمن ألقى الأعباء على أسرة عمى محمود ، فمكسبه قل وأولاده صاروا "كوم لحم" ، لم يصبح

عبد المنعم وحده ، وانما جاء زكى ثم فتحية ثم البرنس ثم سميرة .. كوم لحم فى حاجة الى الطعام والشراب والكساء . وعمى محمود أصبح يعيش عبئا على أبيه جدى فى المأكل والمشرب وفى المسكن طبعا . كان هذا العم مسرفا اسراف السفيه معتمدا على ابيه فى معظم الحالات وعلى أخيه شقيقه أبى فى بعض الاحيان .

واذا كانت امى تحمل ولاتلد الا سقطا أو تلد ويموت أبناؤها فإن أم على زينب زوجة عمى شقيق ابى كانت تحمل وتلد ويعيش اولادها . واذا كانت أمى قصيرة الطول نسبيا مملوءة الجسم ذات وجه مستدير وشعرها قصير أقرب لان يكون خشنا ، فأن أم على زينب كانت فارعة الطول قوامها معتدل ووجهها أسمر مشرب بالحمرة وشعرها ينساب على كتفيها حريرا أو كالحرير تمشطه فى كل حين فى الصباح تراها تفعل ذلك وبعد الظهر (بعد العصارى) قبل استقبال الضيوف تفعل ذلك أيضا . شعر طويل له امواج كأمواج البحر الهادىء وتعكس هذه الامواج ألوانا عديدة كأنها ألوان قوس قزح . وأمام الضيوف ترى أم على زينب اعلاهن صوتا وأكثرهن حديثا وروايات ، واذا ضحكت انسابت ضحكاتها علوا وانخفاضا فى لحن مسموع فى الحارة وعند الجيران . كانت ضحكاتها مميزة تنم عن شخصها عند سماعها من بعيد . اما أمى فقد كانت أمام الضيوف تتحدث الحديث العادى وتضحك الضحك المحتشم ولاتبدأ حديثا أبدا ، وكلماتها كلمات الترحيب الصادق الذى يدخل قلوب الحاضرات من الضيوف دون استئذان . كانت عفة اللسان وتخجل مما قد تسمعه من كلمات نابية من الحاضرات أو من زوجة عمى أم على زينب وبخاصة تلك الكلمات أو اللمسات أو غيرها من الأفعال التى تحدث عادة بين المرء وزوجه .

كانت هذه هى زوجة عمى زينب وكانت هذه هى أمى ، وكان أبى هو ماعرف عنه حتى الآن : الابن الأكبر ، الابن الأغنى ، الذى لا يعيش له أبناء على الرغم من فحولته الظاهرة البادية . وكان هذا عمى الأبن الاصغر ، الأبن الأفقر ، الذى يعيش أبناؤه على الرغم

من ظروفه غير المواتية . ومع ذلك فقد كانت أمى تتعايش مع زوجة عمى أم على زينب ، ووسيلتها الحب الذى يشعه قلبها الكبير ، وتعطيه لكل الناس بلامقابل تتوقعه ، كان عطاؤها ملاذها. كانت تعطى ليس فقط حبها الكبير لأبناء عمى . ولكنها كانت تعطى أمهم كل ماتطلبه من الوان الطعام أو الشراب أو الملبس . كل ذلك لكى تعيش وكل ذلك من أجل أبنها الوحيد "سيد" أى من أجلى . ولكن أبى كان موضع الجدال النفسى المكنون بين نساء البيت وبخاصة زوجة عمى أم على زينب . فهى فى قرارة نفسها لاترى أو تعترف بأن أمى لاتستحق هذا الرجل . كان من حقه ان يكون بعلا لأخرى . ولم تذكر ذلك شفاهة لاحد ، ولكن سلوكها كان يشى بما فى قرارة نفسها . كانت تظهر مالايليق من أمراة متزوجة تعيش فى كنف اسرة كأسرة ابى التوجيهية أسرة ابيه وأمه واخواته واخوته . وكانت تتعمد ذلك . كانت تستقبل مثلا زوج اختها أو تلك التى تربت معها فى البيت . أجل انها كانت تستقبله على مسمع ومرأى من الجميع ! ولكن كيف يحدث هذا ، وسمعة الرجل كما كانت تحكى عنه تشوبها الشوائب ؟ وقد استقبلته ذات مرة وكان ابى فى البيت . وقامت القيامة من أجل ذلك ، وطرد الرجل ولم يعد . ولم يجرؤ عمى أن يقول لأبى كلمة واحدة ، ولم يعلم جدى بما حدث أو ربما علم ولم يثر شيئا . كانت أم على زينب تفعل ذلك وغيره لاعن خلاعة أو سوء سلوك ولكن متحدية مايسود المناخ الثقافى للأسرة كان من قيم . وكانت تفعل ذلك وغيره متحدية أبى فى بعض الاحيان

انها تعلم مكانة هذا الرجل وهى تنزله فى قلبها منزلة رفيعة ، ومع ذلك تراها تصرخ صراخا رهيبا وهو فى البيت عندما مر الجنود وهم مدججون بالسلاح أمام الحارة التى نسكن فيها لأن ولدها عبد المنعم كان فى ذلك الحين خارج المنزل ، كان يشترك فى مظاهرة ثورة ١٩١٩ . لم تجرؤ أمرأة من نساء البيت أن تفعل ما فعلت امرأة عمى زينب وأبى موجود فى البيت . انها تعلم فى قرارة نفسها أن مافعلته فى بعض المناسبات وهو على مسمع منها لايرضيه ، ولكنها

تتحدى ذلك لامور فى نفسها لعلها أن تكون امورا انسانية متوقعة من البشر ، وهى من البشر ، أو أن تكون أمورا تظهر الاعجاب الذى تكنه لأبى فى لباس عدم المبالاة والتحدى . انها تعلم جيدا مايحدث عندما يدق ابى على باب المنزل ، المغلق دائما ، فى الليل . والذى لايفتح الا لقريب أو جار أو شخص معروف . كان عندما يعود من عمله عند منتصف الليل أو قبل ذلك أحيانا تسمع له دقات معروفة على باب المنزل ، فيصيح صوت من الداخل متسائلا "مين؟" فيسمع صوت أبى مرددا "محمد" ، فاذا بالباب يفتح "بالسقاطة" واذا بالمكان يخلو من كل انس ، واذا بأمى تستقبله على باب حجرته الذى يدخل من بابها ورأسه مائلا ولايخرج منها الا فى الصباح ذاهبا الى عمله . انها الرهبة التى كان يشعها الرجال فى ذلك الحين أو تلك التى كان يشعها بعض الرجال عندما يؤدون دور صاحب السلطة والنفوذ دور رب العائلة الرسمى أو الفعلى . تبدو هذه الرهبة فى هذه المواقف التى ان دلت على شىء فهى تدل على الزهو الكاذب والصلف الذى لاداعى له . ولكنها الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية وحتى الظروف السياسية كانت كلها من وراء هذه الانماط السلوكية فى ذلك الحين .

وكانت زوجة عمى أم على زينب تتحدى كل ذلك عندما جاءت الى الأسرة زوجا لأحد أبنائها ، وكانت شابة تملأ شخصيتها الحيوية والبشر والتفاؤل . وعندما مرت السنون والايام علمها الدهر ان تتعايش فقد تضاءلت حيويتها وأصبح البشر شيئا باهتا وبدا التفاؤل أمرا يكاد أن يكون محالا .

وربما كان لزواج عم ابى مصطفى الأخ غير الشقيق لجدى لأبى دور كبير فى التغيير الثقافى الاجتماعى الذى حدث فى مناخ الاسرة . جاءت "أم حسين سكينة" زوجا لعم أبى مصطفى . واذا كانت لأمى سمات شخصية معينة ولزوجة عمى أم على زينب سمات شخصية معينة أيضا ، فإن زوجة عم أبى مصطفى كان لها كذلك سمات شخصية معينة ، كان أبوها سودانيا . أما أمها فقد كانت من

شربين بيضاء كاللبن الحليب ، فجاءت أم حسين سكينة ابنتها ذات تقاطيع أقرب الى التقاطيع المصرية منها الى السودانية . كانت قمحية اللون ولم توجد فى تقاطيع وجهها ماينم عن أصل ابيها السودانى . ومن الغريب ان هذه السيدة كانت الوحيدة فى الحارة بل فى "الحتة" التى تعرف القراءة والكتابة من بين نساء الحارة والحتة جميعا . وهذه الميزة رجحت كفتها على هؤلاء النساء ومن بينهن نساء الأسرة بالطبع . وصلت فى دراستها الى مدرسة المعلمات ، ولكن أباها "الحاج فرج" آثر أن يزوجها وتعود الى البيت ربة أسرة على أن تواصل التعليم لتخرج مدرسة تتقاضى مرتبا من الحكومة . وجاءت زوجة عم ابى مصطفى تحمل فوق كتفيها هذه الميزة الرائعة التى لم تحملها أمى ولا زوجة عمى أم على زينب . فكانت لها مكانة اجتماعية من أجل ذلك . صحيح لم تكن جذابة مثل أمى أو مثل زوجة عمى أم على زينب ، ولكنها لم تكن قبيحة . صحيح أن زوجها عم أبى مصطفى ، الرجل الطيب ، لم تكن له مكانة مرتفعة ارتفاع مكانة أبى مثلا ، ولكنه فى ضوء أدوار الأسرة كان عما لأبى . وكان له احترامه من أجل هذا ولأنه "رجل طيب" يحفظ القرآن مثل جدى لأبى ويصلى ويصوم ويعيش "فى حاله" لايؤذى أحدا ولايدع أحدا أن يؤذيه . وشتان بينه وبين عم أبى عبد الفتاح الذى لم يتزوج من أجل سماته الشخصية وأهمها أنه كان أقرب الى أن يكون ضعيف العقل ، فهو لم يستطع أن يتعلم القراءة والكتابة ولم يكن يصلى وان كان دائم الصوم وبخاصة صوم شهور رجب وشعبان ورمضان . ولكن لما كان لاشىء فى هذه الدنيا مطلق ، فقد كانت لعم عبد الفتاح ميزة لايستطيع غيره أن ينالها بسهولة . وتتلخص هذه الميزة فى انه كان يحمل جوال السكر وحمولته ٨٠ أقة أو حوالى مائة كيلو على كتفيه ، ويكرر ذلك ولايمل ولايتململ . وكان يطحن البن بعد ان يسويه وهو أخضر ويمكث الساعات تلو الساعات . وترى حبات العرق تنضح من جبينه قطرات ولكنه لايبالى . وكان هذا الرجل

يقضى أوقات فراغه وهى فى المساء عادة فى تأدية واجب العزاء بالأصالة عن نفسه دائما . فاذا مات شخص فى "الحتة" يذهب للعزاء ، ويحسب متى يجيء يوم الاربعين ليذهب معزيا واذا كان أهل المتوفى يؤدون واجبات الاحتفال بأيام الخميس الثلاثة بعد الوفاة فانه يذهب معزيا . ولايقف فى سبيله شيء الا أن يؤدى هذا الواجب حتى اذا كان يئن من التعب المرهق الذى ينال منه الكثير فى خلال النهار .

ولم تكن زوجة عم أبى مصطفى تعرف القراءة والكتابة فحسب ، ولكنها ، وقد يرجع ذلك الى بيئة أبيها الحاج فرج الثقافية الاجتماعية ، تتقن أشياء أخرى يتلهف عليها نساء جيل أمى وربما يتهلف عليها أيضا الكثير من نساء جيلنا المعاصر . هذه الاشياء تتضمن عمل الرقى والأدعية وأكبر من ذلك وأعظم كانت صلتها بالحاجة « صابرة » السودانية صلة وثيقة . والحاجة صابرة هى « كوديا الزار » ، وبيتها يستقبل فى أيام معينة العشرات من النساء اللاتى يرين فيها البركات والكرامات ويرين عندها الشفاء من الأمراض كل الأمراض ، كما يرين عندها اسعاف من تبتغى الحمل لأنها عاقر أو من تبتغى أن يحفظ الله عليها أبناءها لأنهم يموتون قبل الأوان . وهنا كانت الصلة الوثيقة التى توطدت بين أمى وبين زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكينة . فأمى لايعيش لها أولاد ولابنات ، وأمى من أجل أشياء كثيرة ترجو أن يكون لها أولاد وبنات يعيشون من حولها ومن حول زوجها .

وبموت ستى حمدة جدة أبى وبزواج العمات أصبحت لأمى ولزوجة عمى أم على زينب ولزوجة عم أبى أم حسين سكينة الحريات الكافية لكى يعشن سويا دون الكثير من المنغصات . ولكن جدتى لأبى كانت على قيد الحياة لاتزال ، ولكن وجودها لم يكن له تاثير كبير ، فهى سيدة لاتعرف شيئا فى الحياة سوى زوجها جدى لأبى . أى أنها لم تكن تتدخل فى أمور البيت فى قليل أو كثير . ومع

ذلك فأن عمتى أم بطة الأرملة وأبناءها نفيسة ورتيبة ومحمود كانوا أقرب أعضاء الأسرة اليها. أن عزوف جدتى لأبى عن التدخل فى شئون الأسرة لم يكن عن طواعية ، ولكنها كانت أوامر جدى لأبى أن تقبع فى حجرتها فهى فى رأيه لاتصلح لشىء الا أن تؤدى واجبها نحوه هى كأمرأة وهو كرجل .

ثم ماتت عمتى أم بطة فجأة ، وصارت نفيسة ورتيبة وأخوهما محمود يتامى الأب والأم معا . فعاشوا فى أحضان أمى وزوجة عمى أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكينة . وكان الجميع ومعهم جدى لأبى فى كنف رجال الأسرة وبخاصة جدى وأبى وعمى محمود وعم أبى مصطفى .

وميتة عمتى أم بطة لها ذكرى عندى لايمكن أن أنساها . كان اليوم أول شهر رمضان . وكان أهل الأسرة رجالا ونساء صائمين . وكنا نحن الأطفال لانصوم ، ولكننا كنا نرتع ونلعب فى البيت أحيانا وفى الحارة أحيانا أخرى . لقد استعد الجميع لهذا الشهر المبارك . ونحن الأطفال كان استعدادنا له يملك علينا مشاعرنا . كنت صغير السن ربما قد بلغت من العمر حوالى خمس سنوات . وقد اتفقت مع أولاد الحارة على أن نبنى « مدفعا » من الطوب فى وسط الحارة حتى اذا ماجاء وقت الافطار وانطلق مدفع الافطار وكان قريبا منا نسمعه فى المناسبات وفى الأعياد ، انطلقنا نحن أيضا الى ضرب هذا المدفع الذى بنيناه والذى حشونا جوفه بالورق لكى نشعله فى الوقت المناسب . وكان الطوب حاضرا والورق موجودا ولكن أداة الاشتعال لم تكن موجودة ، وكان على " أنا أن أشتريها . وفعلا اشتريت " علبة الكبريت " ولكى لايراها أحد فى حوزتى وضعتها فى درج سرى لكنبة من الكنبات المفروشة فى " المندرة " التى هيئت ليجلس فيها جدى لأبى وأصدقاؤه بعد صلاة العشاء ليتسامروا أو يشربوا القهوة ويتحدثوا فى شتى الأمور ماشاء لهم الوقت وفى الغالب حتى وقت السحور أو قبل ذلك بقليل .

وعندما حان موعد مدفع الافطار ذهبت الى المندرة لأحضر علبة الكبريت . وكانت تقع المندرة فى حوش البيت وأمامها تقع حجرة عمتى أم بطة وأولادها . وسمعت عمتى أم بطة خطواتى وأنا أدخل المندرة لأحضر علبة الكبريت ، فاذا هى من ورائى تنادى على قائلة أمرة "بتعمل ايه ياسيد" ، فأنكرت ماكنت أبغى أن أفعله وقلت لها " انا عاوز أشرب " فأتت بالقلة التى كانت موضوعة أمام شباك المندرة لكى أشرب ، ثم بعد أن شربت خرجت الى الحارة ، وبعد قليل عدت الى المندرة لكى أحضر علبة الكبريت التى أخفيتها فى الدرج السرى ، وما أن دخلت المندرة فاذا بى أرى عمتى أم بطة جالسة على البلاط مستندة الى ترابيزة الحجرة . كانت عيناها تنظر الى البلاط وكان لون وجهها أصفر فاقعا . وناديت عليها فلم ترد . وجاءت ابنتها الكبرى نفيسة ، وكانت تكبرنى بحوالى عشر سنوات ، وما أن رأتها فى هذا الوضع حتى أخذت تولول وتصرخ صريخا حادا . وجاء أهل البيت . وسمعت النساء ، وكأنهن كورس ، صارخات مولولات . ولم أكن أدرى شيئا مما أرى ، ولكن احدى النساء مالبثت أن أبعدتنى عن المكان . وذهبوا بعمتى أم بطة الى حيث لاأعرف . والكورس مازال يجلجل بالصراخ و " الصوات " ورأيت أبى بعد فترة من الوقت جالسا على " دكة الفقى " أى الدكة التى يجلس عليها الفقى كل صباح وهو يتلو القرآن الكريم . وكانت هذه الدكة بجوار " باب السكة " مباشرة ، يفتح له الباب ، فكان لايرى أحدا ولايراه أحد ويؤدى واجبه ثم يذهب الى بيت آخر وهكذا . وكان أبى يجلس على هذه الدكة ، وفجأة رأيت هذا العملاق يجهش بالبكاء بصوت مسموع لفت انتباهى وأثار عجبى ودهشتى . لأول مرة أواجه الموت وجها لوجه وأنا صغير السن لم أبلغ الخامسة من عمرى أو ربما بلغتها لست أدرى .

وبموت عمتى أم بطة أدارت دفة النظام فى الاسرة من الداخل زوجات أبناء الأسرة ، ولكن فى حدود . كانت عماتى أخوات الأزواج

يزرن الأسرة أحيانا . وكانت هذه الزيارة فى معظم الأحيان مناسبة لقيام معركة بين زوجات أبناء الأسرة من ناحية وبين العمة الزائرة أقصد أخت الزوج الزائر من ناحية أخرى . كانت معركة يدور فيها الكلام والصراخ والبكاء والدعوات ضد الظالم أو ضد الظلمة . ثم تنتهى وتخمد فى لحظة بالصلح بين الأطراف وربما ترن القبلات على الخدود أحيانا وعلى الافواه احيانا أخرى . وأطفال الأسرة وأنا منهم يرون كل شىء ويسمعون كل شىء ويفهمون بعض مايقال ولايفهمون بعض مايقال . ولكن كانت أشد العمات قسوة فى ضوء ماأذكر كانت عمتى "أم سيد فقوسة" شقيقة عم أبى مصطفى . كان وجودها مكروها من الجميع . فقد كانت تبدو وكأنها العقرب ، تلدغ وتروغ كما يروغ الثعلب . وحتى بعد ان توفيت هذه السيدة وتنفست أمى وأم على زينب وعلى وجه الخصوص زوجة عم أبى مصطفى الصعداء ، خلفتها ابنتها "عيشة" . كانت الأخيرة تحمل فى طيات نفسها بذور الفتنة انى ذهبت . وكانت جاهلة لاتعرف الا كل شىء كريه . كانت تجىء للزيارة من أجل أن تثير الزوابع وكانت تهدف دائما الى الحيف بزوجة عم أبى مصطفى أم حسين ، وهى سيدة كانت لاتتحدث كثيرا ، واذا تحدثت كان كلامها ناضجا ، وكانت كما كانوا يقولون "لسانها ينقط شهد" . فهى الأذكى وهى الاكثر علما وهى ، أيضا التى تعرف الاسرار ومنها أسرار آيات القرآن الكريم التى كانت تتلوها دائما أو كانت تجعل أطفال الأسرة يتلونها حفظا لهم من أعين الحساد . وأنا أذكر عندما ذهبت لأول مرة الى المدرسة الابتدائية وكانت "فتحية" ابنة عمى محمود و "سنية" ابنة عم أبى مصطفى تذهبان أيضا الى المدرسة الأولية . وكانتا أول من يذهبن الى المدرسة من فتيات الحارة بل ربما من فتيات الحتة كلها ، كانت زوجة عم أبى مصطفى تحتم علينا أن لانخرج من المنزل معا ، فكنت أخرج أولا ثم فتحية ثانيا ثم سنية ثالثا كل صباح ونحن ذاهبون الى المدرسة . وكانت أمى تقول لى قبل أن أخرج "اقرأ قد جاءكم ياسيد" كانت فتحية وسنية

تفعلان ذلك أيضا . أمى كانت تقصد تلاوة بعض الآيات القرآنية التى أخذت زوجة عم أبى مصطفى على عاتقها تحفيظها لنا نحن الثلاثة كى يحفظنا الله ويصوننا . كل صباح كانت تكرر أمى التوصية بأن أقرأ :

"لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لااله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" . (التوبة : ١٢٨ ـ ١٢٩)

وكنت أتلو هذه الآيات طائعا مختارا وأنا لاأفهم من معناها أو مغزاها الا أنها وجاء يحفظى من الحسد والحسّاد ويصوننى من الشر وأهل الشر ، وأن هذه التلاوة ترضى أمى . ومن الغريب ان أمى حفظت هذه الآيات وكانت ترددها كل ليلة قبل ان تنام ، وبعد أن صارت لى زوجة وأنجبت ثلاثة أبناء وبنتين كان من نصيب كل واحد منهم عندما يبلغ أو تبلغ السن المناسبة حفظ هذه الآيات . كانت تقوم أمى بهذا الواجب الثقافى . وهكذا تنتقل عناصر الثقافة من جيل الى جيل .. وهكذا تثبت أمى بالدليل الواقعى أنها كامرأة مثل غيرها من النساء حاملة للعناصر الثقافية فى المجتمع . ومع ذلك فأنا لاأدرى هل تفعل ابنتاى مع أبنائهما ماكانت تفعله أمى معهما ؟

٢ ـ أبى فى أسرته الممتدة

ولاأذكر متى ولدت بالطبع ، ولكن شهادة الميلاد تقول إننى ولدت فى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩١٣ ، قبل قيام الحرب العالمية الأولى . وقد حملت أمى فى الفترة الأولى ، وربما كان ذلك فى الشهر الأول ، لزواج زوجة عم أبى أم حسين سكينة . وقد لعبت زوجة عم أبى هذه دورا كبيرا وبخاصة عندما علمت ان امى ولدت مرات ولايعيش لها أبناء ، فاقترحت على أمى اسم صاحبة

النكرامات والبركات "الحاجة صابرة" كودية الزار اياها . فهى فى يدها عن طريق اجراء بعض الطقوس أن تحفظ الحمل حتى يأتى أوان الولادة ، وهى فى امكانها ان تحفظ المولود حتى يشب ويترعرع ويعيش ماشاء الله له أن يعيش . ولكن كيف السبيل الى ابلاغ أبى وأخذ اذنه حتى يوافق على إجراء هذه الطقوس ؟ ان أمى لاتجرؤ على هذا ابدا . وبخاصة فإن بعض هذه الطقوس يقتضيها أن تخرج من البيت أكثر من مرة حيث تسكن الحاجة صابرة . ان خروج أمى من البيت الى بيت أبيها الذى يبعد أمتارا من بيت الزوجية يحتاج الى إذن ، وقد يرفض طلب هذا الخروج فى معظم الأحيان . فكيف تطلب أمى الاذن بالخروج الى بيت يبعد عن البيت شوارع وحارات ؟ وهو بيت ليس فيه قريب من الاقرباء المقربين أو حتى من غير المقربين . والحاجة صابرة وأمثالها فى رأى أبى نساء دجالات لايحفظن عهدا ولايوثق فى آرائهن فكلها ترهات لايرضى قبولها عاقل أو شخص على مستوى من الذكاء كالذى كان يحظى به أبى . ومع كل ذلك فان أمى لرغبتها الملحة فى أن يكون لها أبناء " يملأون عليها" البيت جازفت وطلبت منه الاذن بالذهاب الى بيت الحاجة صابرة حيث " تبخرها " وهى حامل ، ثم تذهب اليها مرة أخرى وهى فى الشهر التاسع لتقوم باجراء طقوس أخرى منها التبخر وذبح حمامتين لهما أوصاف معينة لتغمس فى دمائهما ملابسها أو بعض ملابسهاالتى يجب أن تلبسها فى أثناء الوضع ، كما تغمس فى هذه الدماء ملابس المولود التى يجب أن يلبسها بعد ميلاده مباشرة . وهذه العمليات بالاضافة الى ماتتمتم به الحاجة صابرة من كلمات مسموعة أحيانا وغير مسموعة أحيانا أخرى ، تعنى الطقس المعروف "بالعقد" . كل ذلك من أجل ان يتم الحمل والولادة بسلام وحفظ المولود حتى يعيش ويكبر ماشاء الله له أن يعيش . وكان هناك شرط هام جدا هو أن يأتى المولود على فترات محددة لكى تقوم الحاجة صابرة بتبخيره ، وشرط آخر قد يكون أهم من الأول أو فى أهميته هو أن يحمل أحجبة معينة .

والتبخير على فترات محددة وحمل الأحجبة عمليتان مستمرتان على الدوام . فالمولود يصبح فى محيط الاهل والأقارب وغيرهم إذا لزم الامر "ابن بخور" ، أى أن عملية التبخير لازمة له اذا ماواجه فى أثناء حياته صرفا من صروف هذه الحياة كالمرض أو احدى الأزمات النفسية مثلا . أما الأحجبة التى يلزم ان يلبسها على الدوام فهى لازمة له لكى تحفظه ليبقى ويعيش ويتمتع بالحياة .

طلبت أمى من أبى الاذن فى الذهاب للقيام بهذه الواجبات حتى تتمتع هى كما يتمتع هو بمتعة وجود الأبناء . وهاج الرجل وماج وهدد بأنها إذا فعلت فانه سيرميها من الشباك لتنزل بما تحمله فى الحارة على أم رأسها ! أو أنه من باب اليسر وعدم التعقيد ، أى ببساطة شديدة جدا ، يطلقها !

كانت أمى تتوقع هذا الرفض البات الذى لارجعة فيه ، ولكنها كانت فى قرارة نفسها تؤمن بما لقنته اياها زوجة عم أبى أم حسين سكينة . فهى سيدة متعلمة تعرف أكثر مما تعرف بل أكثر مماتعرفه سيدة أخرى . فكان لها أن تستسلم لأبى فى الظاهر ، وأن تؤكد لها أن طلبها كان مجرد رغبة ، وان رفضه الاذن لها فى عمل هذه الطقوس على العين والرأس . ولكن الرغبة فى الأمومة المستمرة العارمة كانت تأخذ عليها كيانها كل كيانها . فباتت ليلتها ، ثم أدت واجباتها نحو ابى فى أثناء النوم وفى الصباح حتى خرج الى سبيله كما كان يفعل على الدوام . وتركته مطمئنا الى أن أوامره لانقض فيها ولا ابرام . وجاءت الى زوجة عم أبى بعد خروجه ، وضمت اليهما زوجة عمى أم على زينب . وتشاور الثلاث نساء زوجات أبناء أسرة أبى ، وانتهين الى رأى حاسم . لاتذهب أمى الى الحاجة صابرة ، بل هى تأتى اليها . وفى الوقت المناسب أى فى شهر الولادة ترسل الملابس اليها وتذبح الحمامتان ، وتغمس فى دمائهما ملابسها أو بعض ملابسها التى يجب ان تلبسها فى أثناء الوضع كما تغمس فى نفس الدماء ملابس المولود التى يجب

أن يلبسها بعد ميلاده مباشرة . ولكن مجيء الحاجة صابرة الى المنزل له ثمن أعلا من الثمن الذى تتقاضاه اذا ماذهبت أمى اليها . لابأس من هذا أبدا وان رائحة البخور اذا ماقامت الحاجة صابرة بتبخير أمى يعنى أن أبى سيشمها . اذن فلتبدأ بالبخور من الآن حتى يتعود أبى على رائحة البخور . ولعله لايمانع اذا ماقامت أمى بتبخيره كل يوم أو كل بضعة ايام وذلك باشعال " المنقد " ووضع البخور الموصوف وماعليه الا أن يخطو فوق المنقد اذا أراد خمس مرات أو سبع مرات . ومن العجيب ان أبى وافق على أن يقوم بهذه العملية كلما طلب منه ذلك ، ولعل ذلك يرجع الى انه ايضا فى قرارة نفسه يرغب رغبة عارمة فى أن يكون له أبناء يملؤون عليه حياته كأبناء أخيه الشقيق الذى ولدت له زوجته حتى الآن عبد المنعم وزكى وزوجته بدأت تحس بأعراض الحمل التى انبتت بعد ذلك فتحية . وقد اشترط على أبى انه بعد أن تضع أمى الطفل فى أمان فان عليه أن لاترى عيناه الدعجاوتان قسمات وجهه وأن لايحمله بين يديه الا بعد انتهاء طقوس "السبوع " . أى بعد خلع الملابس التى انغمست فى دم الحمامتين حتى لايرى هذا الدم . وقد وافق الرجل على هذا الشرط أيضا . ان الألم يحز فى نفسه إذ يتذكر أبناءه الذين ماتوا بعد ولادتهم بقليل وحتى الذين لم يولدوا ولم تمر شهور حملهم فى بطن أمى فى سلام .

وولدت أمى ، أى جاءت بى الى الحياة ، وكانت زوجة عمى أم على زينب حاملا فى شهر أو فى شهرين لست أدرى تماما . وعندما ولدت فتحية كانت زوجة عم أبى مصطفى قد حملت ، وبعد انتهاء الحمل جاءت الى الحياة سنية . وقد فعلت زوجة عم أبى كل طقوس العقد فى أثناء الحمل وفى أثناء الولادة وبعدها . أما زوجة عمى أم على زينب فلم يهمها هذا الأمر فى شيء فلديها عبد المنعم وزكى ، وهى تعيش كما كانت تقول "بالتكال" . ومع ذلك فان عملية التبخير واشعال المنقد ووضع البخور الموصوف فيه وتخطية المنقد خمس

مرات أو سبع مرات كانت الشغل الشاغل للجميع ، وبخاصة ، اذا جد فى امور الحياة جديد ينغص هذه الحياة ، كأن تقوم معركة كلامية بين نساء البيت بسبب زيارة أخت زوج أو غيرها من صاحبات العيون "اللى عاوزة رصاصة تندب فيها" أو اذا مرض طفل أو عضو من أعضاء الأسرة من الكبار مرضا عارضا ، أو اذا كان الجد الأكبر لأبى غضبانا أو يدعى آنه غضبان فلا يوفر للأسرة مايجب أن يوفر لها وبخاصة فى المناسبات والاعياد ، ومناسبات شهر رمضان مثلا ، أو مجىء فصل الشتاء والحاجة ماسة الى ملابس شتوية أو غير ذلك من الأمور .

ويبدو ان مجيىء الى الحياة أعطى أمى مكانة أم صبى ، فالصبى كما يقال "يمنع العدو" . وقد فرحت امى وفرح أحباؤها أهل اسرة أبيها وخاصة خالتى أم محمد نبوية أخت أمى الشقيقة . وكان جدى لأبى مغتبطا للغاية . أما جدتى لأبى فكانت سعادتها كبيرة ، فمحمد ابنها أبى كان ابنا بارا بها . يكاد ان يقدسها ، ويزورها فى حجرتها كل يوم جمعة ليعطيها "المعلوم" الذى تتوقعه دائما . واذ تراه يفعل ذلك ، وكنت بعد ان وعيت أفعل ذلك ، تجده الأبن العظيم الذى يدلل الام الحانية التى تعيش حياتها وكأنها كانت لاتعيش . ولم يتأخر أبى عن فعل ذلك أسبوعيا ، الا لضرورة قصوى كأن يلم به مرض أو يلزمه عارض كالسفر مثلا .

وبعد مجيىء الى الحياة ومجيىء فتحية وسنية بدأ العصر الذهبى لزوجات أبناء أسرة "الشيخ أحمد عويس" جدى لأبى . فقد جئنا والحرب العالمية الأولى جاءت بعد مجيئنا . وكان التغيير الذى حدث فى رجال الأسرة تغييرا سريعا فجدى صاحب دكان "العطارة" فى حى السيدة عائشة حى الخليفة أصبح وكيلا "لشركة شل" التى تبيع البترول والبنزين وشحوم السيارات وزيوتها فضلا عن "الشمع" . وحل محله فى دكان العطارة ، التى ورثها عن أمه ستى حمدة وكان يشترك أبوه معها فى ادارتها قبل

أن يموت ، عمى محمود شقيق أبى ، وزاول أبى تجارة البقالة بالجملة ونصف الجملة ثم القطاعى فى مكان خاص أصبح يسميه الناس فيما بعد "بالوكالة" ، وأخذ عم أبيه غير الشقيق عبد الفتاح ليعمل معه ويعيش فى كنفه أما عم أبى مصطفى فاستمر مستقلا فى حانوته الذى استقل به بعد زواجه مباشرة . وكان يقع هذا الحانوت فى نفس الحى بعيدا عن دكان العطارة والوكالة . أما جدى فافتتح له مكتبا بالقرب من ميدان العتبة الخضراء بعيدا عن حى الخليفة بشوارع وحارات ويقع فى حى الموسكى . كان هذا الجد الوكيل الوحيد لشركة شل فى مدينة القاهرة . وكان تجار هذه المدينة يجيئون اليه حيث يكون من كل صوب وحدب ليدفعوا مقدما ثمن مايشترون من بترول . وكان اسم الشيخ أحمد عويس بينهم على كل لسان وأصبح فى خلال سنين الحرب وبسببها أحد أغنياء الحرب . وأشترى البيوت فى حى الخليفة حتى بلغ عددها عشرة بيوت ، كما اشترى الدكاكين التى بلغ عددها عشرة كذلك . وكانت دكاكين أبى وعمى محمود وعم أبى مصطفى من أملاك جدى لأبى . لايدفعون لها إيجارا وقد تركهم جدى لابى يعملون مستقلين أو شبه مستقلين "وكل واحد وشطارته" . وأضطرت الحرب ومكاسبها رجال الأسرة لكى يزيدوا من مكاسبهم وأرباحهم وكان شغلهم الشاغل العمل بما يشبه الاستمرار وذلك لان المكسب "حلو" . وكانت فرصة لزوجات ابناء أسرة الشيخ أحمد عويس . أصبحت المعيشة أكثر من رغدة . وأصبحن يشعرن بالحرية من وراء أزواجهن . فأمى تذهب الى بيت ابيها دون مأأذن من أبى ، وزوجة عمى شقيق أبى كانت تستقبل الضيوف وتذهب مع زوجة عم أبى مصطفى تردان الزيارة ولاحسيب ولارقيب سوى ضمير كل واحدة منهما . والحق يقال أنه كان ضميرا حيا نابضا بالطهارة والعفة . ويبدو ان العلاقة بين الزوجات الثلاثة قد توطدت . وكان يحس بهذا كل من فى المنزل الكبار والاطفال جميعا . ومرت السنون . وكان هم كل أب أبى أو عم محمود أو عم أبى مصطفى أن يتعلم الأطفال .

كان عبد المنعم فى مدرسة "العمم" بشارع "عوام بيه" بحى الخليفة لكى يلحق بعد اتمام الدراسة فيها بجامعة الأزهر الشريف . واختار عمى محمود شقيق أبى ليكون زكى تلميذا فى أحدى المدارس الابتدائية لكى يحقق هدفا آخر . وبدأ يرسلنى أبى الى كتاب "الشيخ طه" أولا ثم الى مدرسة السيدة عائشة الاولية ثانيا حتى بلغت سن الثامنة ، وبعد ذلك حقق حلمه الكبير فى أن التحق بمدرسة "أم عباس الابتدائية" المدرسة التى تعلم فيها الزعيم المصرى "مصطفى كامل" ، أما فتحية وسنية فقد ذهبتا مباشرة الى المدرسة الاولية ثم الى المدرسة الراقية لتكون كل واحدة منهما مدرسة فى المستقبل ، ويتحقق ذلك بالنسبة لسنية حلم زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكينة ، حلمها الذى كان . وكانت فتحية وهى فى سن قريبة منها تصحب سنية أملا فى أن يتحقق لها ما يتحقق لسنية .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قام الشعب المصرى العظيم بثورته فى عام ١٩١٩ ، وفى خلال ثورة ١٩١٩ أذكر اننى شاركت فيها مرتين . الأولى وأنا فى المدرسة الاولية قام التلاميذ الكبار بالمظاهرات للاضراب عن العمل فتظاهرت معهم ولم أكن قد بلغت السادسة ، والثانية عندما جاءت "لجنة ملنر" كنت أهتف مع الهاتفين دون ماوعى أو ادراك الهتاف السائد : "فلتسقط لجنة ملنر" وإننى أذكر أيضا ماقالته لى أمى فى أثناء هذه الثورة الشعبية العظيمة هذه الأم التى عرف القارىء حتى الآن بعض سمات شخصيتها التى لاتدل ابدا على الوعى الوطنى الكافى لا عن تقاعس ولكن لان هموم الحياة الأخرى وظروف نشأتها قد أعجزتها عن ذلك . قالت لى وعيناها مغرورقتان بالدموع "ياسيد اللوا سموه .. سموه الانجليز " ولم أعرف من أو ماهو "اللوا" وإن عرفت المقطع الثانى . وكانت تعنى "اللوا" الزعيم مصطفى كامل الذى مات وهو فى شرخ الشباب . ومن أجل ذلك سرت فى صفوف الملايين أن هذا الزعيم العظيم لايمكن أن يكون قد مات ميتة

طبيعية وأن أعداءه واعداء المصريين هم الذين قتلوه بالسم ومن يكون هؤلاء الاعداء سوى الانجليز أعداء الحرية التى كان ينادى بها ، بل كرس حياته القصيرة من أجلها هذا الزعيم .

وتسميتى" بسيد" لم تكن صدفة ، فقد وهبنى أبى ، تحت الحاح أمى بايعاز من زوجة عم أبى أم حسين سكينة ، الى "السيد البدوى" لأكون فى كنفه وتحت رعايته . تماما كما كان يفعل أجدادنا الفراعنة فقد كانوا يسمون أطفالهم بأسماء الآلهة ليعيشوا لأنهم فى كنفهم وتحت رعايتهم . والملاحظ أن تسمية أبى لابنه البكر منسوبا الى الزعيم مصطفى كامل يعتبر شيئا من هذا القبيل . فالمصريون على مر السنين والازمان كانوا ومازالوا يفعلون ذلك . كانوا ينسبون أطفالهم الى الآلهة بتسميتهم بأسمائها ، ثم بتسميتهم بعد ذلك بأسماء الأنبياء والقديسين والأولياء وأسماء العظماء أو من حكمهم فى الشهرة مثل الملوك والحكام . لم يختر أبى ، وكان هذا من حقه وهو الابن البكر لابيه جدى لأبى ، ولم يطلب منه أحد . اسم ابيه لابنه الأول ـ كما يفعل الآباء فى الاسر الريفية . ولكن عمى محمود شقيق أبى فعل ذلك ، فقد سمى ابنه الاول البكر "احمد عبدالمنعم" وان كان الاسم المشهور به مجردا من اسم أحمد ، فقد كان بين أعضاء الاسرة معروفا بانه "عبدالمنعم" فقط . ومن أجل تسميتى كان على أهلى من رجال أسرة أبى أو أسرة أمى أن يسافروا بى وأنا طفل لسنوات الى طنطا حيث يوجد مقام ولى الله " السيد البدوى" . لنؤدى واجب زيارة ضريحه والتبرك بتجليات هذا الولى . وكان من بين الأسماء التى كانت تطلق على فى الصغر وحتى عندما أصبحت صبيا أذهب الى المدارس اسم "شيخ العرب" فالظروف جعلتنى الذكر الوحيد فى الأسرة الذى يبقى فى المنزل عندما يذهب رجال الأسرة وشبابها عبد المنعم وكان يكبرنى بخمس عشرة سنة وزكى وكان يكبرنى بعشر سنوات وربما أكثر من ذلك . فكنت موضع التدليل من جميع الاناث اللاتى يبقين فى البيت أو اللاتى يكن من

الزائرات . ولم يكن يحلو لهؤلاء وأولئك الا أن يسلمن على بالقبلات التى كنت أسمع صوتها يرن فى أذنى كالطلقات وأكاد أن أختنق من رائحة العطور التى يتعطرن بها ورائحة حبات العرق التى كانت عندما يجئن من الخارج تملأ وجوههن . كان لايحلو لهن الا أن يقبلننى فى فمى الصغير وبخاصة خالاتى غير شقيقات أمى (حميدة وعزيزة وزهرة) اللاتى كن فى سن الزواج فى ذلك الحين . وكنت موضع التكريم وبخاصة عند تناول الطعام ، فالملك لوجودى "يشيل الطبليه" . كنت ادعى لتناول الطعام لكى تحمل الطبلية على رأس الملاك ، وأذكر اننى كنت أتلكأ عن عمد فى تلبية الدعوة لكى يكثر الالحاح عليها .

وحتى فى محيط ذكور الأسرة فيما عدا ابنى عمى اللذين كانا يترفعان علىّ فى بعض الأحيان بل فى الكثير من الأحيان فلا يتحدثان الى حديث المودة ، كان جدى لأبى يسعده أن أذهب الى حجرته لكى أجد أبناء الأسرة من حوله أبناء الجيل الثالث من الأحفاد . كان هذا الرجل على الرغم مما يبدو عليه من تجهم فى الكثير من الأحيان ، لطيفا ظريفا مع هؤلاء الأحفاد . كان لايمانع أبدا فى أن يرى فتحية ابنة عمى محمود وهى فى سن الرابعة أو الخامسة ترقص وتغنى أمامه ، والكلمات تخرج من فمها مفككة متآكلة . وكنت تراه ومن يحيطون به فرحين سعداء . وأننى أذكر بعض فقرات هذه الأغنيات التى كانت تغنيها فتحية ، وهى مازالت فى سن الرابعة أو الخامسة من عمرها ، كانت تغنى راقصة :

"الطرح يابنات الامشاط والفليات"

وكانت تنظر الىّ إذ يرتفع صوتها . وجدى لأبى يضحك ملء فمه . وكل من فى الحجرة يفعل ذلك ، ولعلى كنت أكثرهم حبورا أو غرورا ، فقد كانت تقول وهى تغنى راقصة اغنية :

"مظلومة وياك ياابن عمى"

واذكر ماكان يفعله جدى فى ذلك الحين عندما كان يدعو أحد الأحفاد الكبار لكى يقرأ امامه وهو يصغى - ونحن أيضا نصغى - جريدة اليوم . واذا ماأخطأ القارىء كنت ترى الجد يصحح الخطأ وهو واثق من نفسه فتعلو قامته أمامنا وترتفع أكثر فأكثر . وعندما ذهبت لأول مرة الى المدرسة الابتدائية ، ، جاء دورى لكى أقرأ جريدة اليوم . وتمر الايام وقد حدثت واقعة السردار الانجليزى حاكم السودان المشهورة فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٢٤ ، فدعانى جدى لأبى لكى أقرأ الجريدة عن هذه الواقعة وعن تطور التحقيق فيها . وكان يصحح لى أخطائى أولا بأول لم أكن أتأفف من ذلك أبدا ، بل على العكس كنت راضيا مغتبطا .

وكانت معاملة أبى معاملة ناضجة ، فيها الحب العاقل والمشاعر الرزينة أكثر من الحب الفياض والمشاعر الجارفة . كان يحبنى مافى ذلك من شك . ومع ذلك فقد كنت أراه فى بعض الاحيان قاسيا. كان يصحبنى معه قبل غروب شمس أحد أيام الجمعة يوم أجازته الاسبوعية فاركب معه الترام . وكان يتيح لى فرصة الذهاب الى مسرح "على الكسار" فى حماية صديق ، ويبقى هو فى الخارج مع باقى الاصدقاء بجوار المسرح لكى يمارس معهم لعبة "الدومينو" . وكان ينتظرنى حتى ينتهى العرض فنعود سويا الى المنزل . ويدق على الباب فأسمع صوت أمى أو غيرها من نساء البيت ترد قائلة "مين ؟" فاذا به فى رباطة جأش يقول بصوت آمر "محمد" فيفتح الباب للتو . وندخل سويا فإذا بأمى والنوم يداعب جفونها واقفة على باب حجرتنا منتظرة مرحبة . وكان أبى وأمى وأنا معهما نخرج سويا لزيارة ضريح أحد الاولياء ، وكان هذا نادرا ، ولم أكن أدرى وأنا حتى الآن لاأدرى لماذا كانت هذه الزيارة ؟ كنا نخرج أبى ممسكا بيدى ، وأمى فى ملاءتها السوداء غالية الثمن والبرقع ذو "العروسة" المصنوعة من الذهب الخالص يغطى وجهها ، تسير على بعد من ورائنا . وكثيرا مااختلست النظرات اليها . فأراها وكأنها كانت تتعلم السير لاتزال . كانت تسير فى

احتشام ووقار على بعد من ورائنا . واذا ما عبرنا الحارة وشارع البقلى بحى الخليفة الى شارع السيدة عائشة ، نقف أبى وأنا معه ننتظر أمى لكى تركب معنا عربة "حانطور" كانت تنتظر فى بقعة قريبة من "كشك الترام" حددها أبى فى الغالب لكى يقف السائق فيها باتفاق سابق معه . وكان موعد الزيارات الى أضرحة الاولياء فى العادة موعدا مبكرا ، فبعد تناول وجبة الغداء واستراحة قصيرة بعدها ، نستعد للخروج من البيت . ونسير الى حيث توجد عربة الحانطور ، ثم نركب ذاهبين الى ضريح الولى المختار ، قد يكون ضريح "سيدنا الحسين" أحيانا ، وقد يكون مزار "سيدى المغاورى" (بالقرب من قلعة محمد على) أو قد تكون الزيارة لضريح "السيدة زينب" أحيانا أخرى . كنت صغير السن لاأدرى العوامل الحقيقية من وراء هذه الزيارات . وكان يطلب أبى منى أن أقرأ الفاتحة للولى وادعو ماشاء الله لى أن أدعوه وكنت أراه يوزع النقود على العديد من الناس الذين يجلسون فى المكان أو حول الضريح ، كانت أمى تقرأ سورة الفاتحة بصوت مسموع وكأنها تؤكد لنفسها أو لمن حولها أنها تحفظ آياتها فعلا . وكانت تدعو ماشاء الله لها أن تدعو . وكانت الدعوة المفضلة عندها أن يرزقها الله بأخ أو أخت لسيد بن زنوبة . أما أبى فقد كان يقرأ الآيات القرآنية فى صمت . وكان يتمتم بكلمات لم أكن استطيع سماعها وما كنت أسمعه منها لم أكن أستطيع استيعابه . وفى كل مرة نخرج كانت أمى تذكرنى دائما بأن أقرأ "قد جاءكم" ، وعلى كل حال فاننى كنت افعل ذلك غير منتظر منها هذا التذكير فقد صارت لى عادة أن اتلو آيات "لقد جاءكم رسول من انفسكم ... ، وصارت لها عادة أن تذكرنى بهذه التلاوة . وبعد الزيارة نعود الى البقعة التى كانت عربة الحانطور تنتظر قبل الذهاب ، ثم نترك العربة ونسير أبى ويده فى يدى أولا ثم أمى تسير على بعد من ورائنا . وكنت أختلس النظرات اليها وأراها على الرغم من هبوط ظلام مابعد الغروب وكأنها تتعلم السير لاتزال .

واذا كان جدى لأبى فخورا بى لأننى أدرس فى المدارس وانجح فى كل عام ، فان جدى لأمى كان فخورا بى أيضا . وكان من حسن حظى أننى لم أكن أجد عائقا فى الذهاب الى بيت جدى لأمى لقربه من المنزل أولا ولأننى ذكر . مازلت فى صباى نعم ، ولكن الصبى كما يقال فى التراث الثقافى المصرى "يمنع العدو" فمكانتى فى بيت جدى لأمى مكانة رفيعة من أجل ذلك . فوجودى يعنى أننى اعطيت أمى ثقافيا اجتماعيا حقوق الامومة وهى ابنة جدى لامى ، ووجودى كذكر حصن لامى أن ترث ماقد يتركه أبى اذا مامات بعد ان يرث حقه مما يتركه جدى من أموال أو عقار . ومن الجهة الأخرى ، فاننى اذا ذهبت الى بيت جدى لأمى أجد فيه خالاتى غير الشقيقات اللاتى لم يتزوجن حتى الآن ، وقد أجد خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى وقد لاأجدها ، وبالضرورة اجد زوجة جدى . ولن يكون فى المنزل غير هؤلاء سوى زوجة خالى سيد التى انجبت طفلا يحبو تبنته زوجة جدى التى لم تنجب من زوجها السابق او الحالى . وقد اجد زوجة ابن خالتى الشقيقة محمد التى ضمها بيت جدى لامى منذ زمن قريب . أما ذكور البيت جدى وخالى وابناء خالتى محمد وعيسى ومحمود ويوسف فهم فى أعمالهم . أى أننى عندما اذهب الى بيت جدى لأمى اكون الذكر الوحيد بين حشد من النساء . وكنّ وبخاصة خالاتى الفتيات الأبكار يتفنن فى الاحتفاء بى والاهتمام بنزواتى . وكن يصررن على أن اتناول طعام الغداء معهن أحيانا . وكانت خالتى عزيزة ، وهى أصغر من خالتى حميدة وأكبر من خالتى زهرة تحجز لى "أعقاب السجاير الطويلة" التى كان جدى لامى أو كان خالى سيد يتخلص منها . وكانت تغرى زوجة خالى بأن تختلس لى سيجارة أو أكثر من علبة سجاير زوجها . ومهما يكن من الأمر فقد غمرننى هؤلاء الخالات وغيرهن مع أمى بالحب الانسانى بألوانه بما يكفينى وزيادة . وقد بقيت آثار هذه المعاملة معى وأنا فى سن المراهقة وبعدها وحتى الآن ، تلك الآثار التى جعلتنى أوزع الحب على الجميع ، على الناس على

اختلاف اعمارهم وأنواعهم ومكاناتهم ، بلا من ودون انتظار مايقابل ذلك من أحد . فالحب الانسانى بألوانه يملأ عَلَىَّ كيانى وعندى مايكفينى منه و زيادة . ومهما صادفنى فى حياتى من منغصات من الناس على اختلاف اعمارهم وانواعهم ومكاناتهم فحبى لهم يفيض عليهم دون ماحرج لايزال . اننى عشت حياة طفولة سعيدة جدا فيها . وقبول الناس الاقرباء المقربين وغير المقربين والغرباء والأصدقاء لى ، لم يكن يحتاج الى دليل .

وعندما حصلت فى عام ١٩٢٦ على شهادة الابتدائية أقام أعضاء أسرة جدى لأمى كل على حدة افراحا فى قلب كل واحد منهم . واذ أحضر شهادة الدراسة وفيها : "سيد عويس محمد بن الشيخ محمد أحمد عويس والمولود فى القاهرة سنة ١٩١٣ أتم الدراسة الابتدائية للبنين ونجح فى الامتحان بذلك فى سنة ١٩٢٦ .... الخ" ، كان هذا النجاح وكأنه نجاحهم . وقد فرح أبى ولكن كان فرحه بتحفظ شديد !! ونقض وعدا كان قد وعده لى اذا أنا نجحت فى الشهادة الابتدائية ، وهو أن يشترى لى "عجلة" (بسكليت) . نقض هذا الوعد ، وكنت حزينا للغاية من أجل ذلك . وكان أصدقاء أبى اذ يروننى فى هذه الحالة يحاولون أن يعرفوا السبب فلا أشفى غليلهم ، فاذا بأبى يقول لمن يسأل وكأنه يسخر "ياسيدى سيد عاوز عجلة" ، وتكون السخرية واضحة ولاذعة فى التعليق على ذلك ، فيقول موجها الحديث الى "يابنى العجلة من الشيطان!" ويضحك الحاضرون الذين كنت ألعنهم واحدا واحدا فى سرى . ومع كل ذلك . ماحدث فى هذه المرة وما حدث فى مرات سابقة ، فاننى مازلت اكن الحب والاحترام العميق لهؤلاء الاصدقاء . كانوا يجتمعون فى "الوكالة" عند ابى يتحدثون فى شتى الموضوعات فى السياسة فى أكثر الأحيان وفى الدين أحيانا وفى غير ذلك من الموضوعات أحيانا أخرى ، مما أثر على حياتى الثقافية وحببنى فى المعرفة . ومن العجيب ان هؤلاء الناس كانوا جميعا من أعضاء الحزب الوطنى حزب الزعيم مصطفى كامل

والزعيم محمد فريد . وكانوا يتعاطون مهنا شتى فمنهم الترزى (السراوى) ومنهم النقاش (عم عبده عليوه) ومنهم الأديب (كامل كيلانى) ومنهم ضابط الجيش (عبد العزيز راشد) ومنهم صاحب المكتبة (الشيخ ابراهيم يوسف) كانوا يحضرون معا احيانا أو فرادى أحيانا أخرى . وقد لايحضر لعذر أو لآخر بعضهم ولكن عم عبده عليوه النقاش كان دائم الحضور . فهو اذا لم يكن يعمل يحضر فى أثناء النهار وفى أثناء الليل حتى موعد الاستعداد للانتهاء من عمل أبى . وقد عرفت فى حينه لماذا نقض ابى وعده ، كان هذا الاتجاه من أبى يرجع الى خشيته عَلَىَّ فى أننى إذ استعمل "البسكليت" قد أصاب بأذى . كان هذا كل مافى الأمر . وكان يرى أنه على صواب لأنه ابعد نظرا وأوسع افقا . وكان هذا اتجاهه فى كل مرة يرانى أحاول ان أساعد أحدا فى إدارة العمل فى الوكالة ، فانا لم أخلق لان أحمل حملا ثقيلا مثلا أو أساعد أحد العمال فى احدى عمليات التحضير الخاصة ببيع "بضاعة" الى عميل من العملاء . كان يخشى اذا أنا رفعت "سنجة" ثقيلة من "سنج" الميزان ان تقع من يدى فتسبب ضررا مافى جسدى . ومالى أن أفعل ذلك وعمال الوكالة كثيرون ، وهم يستأجرون وتدفع لهم الأجور من أجل ذلك . ولم تكن معاملة أبى لى تنتهى عند هذا بل انه كان يخشى على من الحسد . فقد حدث ذات مرة ان واحدا من أصدقائه قد فاجئنى بسؤال عن عددين اذا ضربتهما فى بعض يكون حاصل الضرب مساويا لحاصل جمعهما ، فأجبت توا أن العددين هما ٢ و ٢ . ثم سارعت وسألته سؤالا كان : ماهى الأعداد الثلاثة التى اذا ضربتها لبعض يكون حاصل الضرب مساويا لحاصل جمعها ، فلم يحر الصديق جوابا ، فضحكت ساخرا ان الأعداد الثلاثة هى ١ و ٢ و ٣ . ونظرت الى ابى فرأيت عينيه الدعجاوتين فيهما الرجاء والتوسل بأن أصمت ولاأزيد . ثم بدأ يتحدث عن بعض انماط سلوكى التى تظهر ضعفى كيافع فى سن الثالثة عشرة أو تزيد قليلا . ولن انسىقط إذ حان الحين لأن تجرى

لى عملية الختان ، وقد اجلت هذه العملية حتى بلغت سن الثامنة أو قبل ذلك بقليل ، أى قبل ان التحق بالمدرسة الابتدائية . فما كان منه أن ارسل "الاسطى أحمد شحاته" الى المنزل وابى أن يكون حاضرا . وجاء الأسطى احمد شحاته ، وهو حلاق صحى مشهور فى حى الخليفة حيث ولدت ومازلت آعيش فيه فى ذلك الحين ، واجرى العملية وقد فوجئت بها . واذا كان ابى لم يكن حاضرا فان امى أيضا لم تكن حاضرة تركتنى لزوجة عم أبى أم حسين سكينة وزوجة عمى محمود ، وذهبت وهى واجلة الى بيت أبيها القريب من منزل الزوجية . تركانى آبى وأمى فى يد الاسطى احمد شحاته لاعن جبن ولكن كما أنا متأكد الآن عن حب عميق منعهما من أن يواجها موقفا أكون فيه متألما . ومع ذلك فإن ابى كان لايتردد ابدا اذا ما انا شكوت من ألم يحتاج الى طبيب ان يأخذنى بيده الى طبيب توا . كان يفعل ذلك دائما . وقد فعل ذلك لأخى الأصغر "عبد الغنى" عندما مرض . ولكن القضاء قد حم فمات وهو لايزال طفلا صغيرا . وقد ران الحزن على قلب كل منا نحن الثلاثة أمى وأبى وأنا . كنت واعيا بما حدث . وكان موت أخى عبد الغنى المرة الثانية التى اواجه فيها الموت بعد وفاة عمتى أم بطه فى أول رمضان . وكنت أتغنى بين نفسى بكلمات الحزن والرثاء فى لحن حزين صادر من قلب مكلوم صغير . وعندما مرضت أختى "سكينة" أرسلها ابى الى الطبيب توا . كان يأخذ امى تحملها وكنت أصحب الجميع فى عيادة الطبيب المشهور فى شارع الفجالة بالقرب من شارع كلوت بك . وأذكر اننا ذهبنا ذات مرة وكان اليوم أحد ايام شهر رمضان ، كان ابى صائما وكانت أمى صائمة ، ولم أكن صائما . وبعد خروجنا من العيادة وبعد ان كشف الطبيب على شقيقتى وكان الجو حارا والشمس كانت مازالت ساطعة فطلبت من أبى أن أشرب ، فذهب بى الى محل بيع المشروبات المثلجة وشربت كوبا من الليمون وشرب معى كوبا من الليمون كذلك ، مما أثار دهشة أمى وعجبها ، ولكنها اعتبرته معزورا واعقل الناس اعزرهم للناس . وكم حزن أبى

عندما ماتت سكينة . وكان حزن أمي أعمق وأكثر . فقد كانت تفضل ان تكون لها ابنة ، فالابنة "حبيبة امها" ، وهى أى الابنة أيضا موضع "أسرار امها" . وقد حزن فى قلبى موت هذه الشقيقة . فقد بدت لى انها كانت على مستوى عال من الذكاء . كانت تفهم وتعقل ماتفهمه ، فقد كان حديثها يدل على هذا الفهم وهذا التعقل . كانت موضع حب الجميع ، ومن اجلها كانت "فاطمة" اخت "سنية" وابنة عم أبى مصطفى التى كانت فى سنها موضع حب وحنان عند أبى وأمي . كانت البنتان تتناولان طعام الغداء كل يوم جمعة معنا نحن الثلاثة أبى وأمي وأنا . وكان أبى يعاملهما كأنهما ابنتاه . وبعد وفاة سكينة استمرت فاطمة على تناول طعام الغداء كل يوم جمعة معنا . واستمرت موضع الحب والحنان عند أبى وأمى . وعندما ارادت ام فاطمة بعد وفاة سكينة أن تحجزها عن تناول طعام الغداء يوم الجمعة التالى على الوفاة ، ثار أبى وتوعد وطالب باحضارها وكان ماحدث لم يحدث . فالبركة كما كان يقول الجميع فى "سيد" ، و "وربنا يخليه ويبارك فيه زى مابارك الزيت فى القنديل" .

وبقيت بعد عبد الغني وسكينة وحدى . لم يعطنى أبواى أخا أخر أو أختا أخرى حتى ماتا . ولايمكن ان انسى مطلقا وحدتى الرهيبة والحرمان الذى كنت أجتره وحدى بعد وفاة أبى . فقد أحسست فى ذلك الحين أن أبى قد خذلنى . كنت أعتب عليه وأقول فى نفسى لماذا تركنى وأنا فى سن السادسة عشرة وأحد عشر شهرا ويوما واحدا ولم يكن لى أخ أكبر أو حتى أخ أصغر ؟ وكنت افعل ذلك دائما كلما سمعت "محمد عبد الوهاب" يغنى من بعيد أحد أغانية المسجلة على أحد الاسطوانات التى يديرها "جرامافون" الجيران والتى يتغنى جزء منها قائلا :

"صعبان علىّ أشوف غيرى عاش متهنى"

كانت تهزنى هذه الكلمات وكنت أرددها بأنفاسى وأقول فى

نفسى لماذا تركنى هذا الرجل وانا فى هذا السن الغضة وحدى ولم تؤهلنى الحياة بعد لكى أعيشها وتعايشنى ؟

وليلة وفاة أبى أذكرها جيدا . كان اليوم يوم السبت مساء ١٨ من شهر يناير عام ١٩٣٠ . وكنت قد انتهيت يوم الخميس السابق من امتحانات نصف السنة للسنة الرابعة الثانوية بالمدرسة الخديوية الثانوية . وكنت مغتبطا فقد اديت الامتحانات وأنا راض عن نفسى . وكنت مغتبطا أيضا لأن أمامى أجازة أياما معدودات أستريح فيها وأسعد . وفى يوم السبت مساء اويت الى فراشى المجاور الى فراش ابى . كانت امى تنام معى عادة . وكان أبى ينام وحده عادة . وفجأة استيقظت على حركات مزعجة ، أصوات مختلطة ملهوفة ، ووجدت أهل البيت جميعا قد استيقظوا وكان أبى نائما على السرير مستيقظا ولكنه كان يتنفس بصعوبة بالغة . وكان بين الحين والحين يصرخ متألما . ويبدو أنه كان يعانى هبوطا فى القلب . وجرى البعض لاحضار الطبيب . ورأى البعض أن يبعدنى عن أبى وهو يعانى مايعانى فأخذنى ابن عمى عبدالمنعم الى الدور الأعلى حيث يعيش جدى لأبى مع جدتى لأبى ، وفيما أنا طالع السلم سمعت أبى يصرخ بكل قواه قائلا "ياابنى" . ويبدو أنه لفظ نفسه الأخير بعد ذلك . فالطبيب قد حضر ولكنه ترك الحجرة توا . وجاء الأقارب المقربون من بيت جدى لأمى رجالا كانوا ونساء واختلط الحابل بالنابل وتوالت الصرخات وكنت أسمع العويل من كل مكان فى البيت وخارج البيت . ويبدو أن الخبر قد شاع وعرف الجيران ماحدث كما أخبر الأقارب الذين يسكنون بعيدا عن البيت . وطوال الليل كنت أسمع الصرخات والعويل ، ورأيت نفسى أبكى وحدى ، وقد رافقنى ابن عمى عبدالمنعم وكان يعزينى ويبدى الى "النصح باننى الان وقد مات أبى فقد آن الأوان لكى أحل محل أبى فى الوكالة تخليدا لذكراه . ولم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول . لم أكن مستعدا لمواجهة هذا الموقف قط . أن يموت أبى فجأة وأن

أواجه هذا الموت وحدى مع أمى . والحقيقة أن أبى لم يمت فجاة فقد حدث له ماحدث منذ سنوات قليلة . حدثت له نفس الازمة ضيق التنفس ولكن الطبيب جاء فى الوقت المناسب وأسعفه ، وعاد الى حالته الأولى . وفى تلك المرة كنت نائما أيضا واستيقظت من نومى على همسات وهمهمات ثم صرخات . وبعد أن ذهب الطبيب وعاد أبى الى حالته الأولى ذهب الجميع الى حال سبيله ماعدا أمى وماعداى . وفى الصباح تطوعت زوجة عمى أم على زينب لتخبرنى بأن ما حدث كان نتيجة لمحاولة أبى أن يمارس حقوقه الزوجية ولكن أزمة ضيق النفس قد دهمته . ولم أعقب على ماقالته لى ، ولكنى كنت أعى المعنى الذى كان يدور بخلدها . كانت هى الأزمة الأولى منذ سنوات قليلة قبل أن تدهمه الازمة الثانية التى أودت بحياته ، ومن بعده أصبحت يتيما وعشت وحدى مع أمى الثكلى .

وكنت ألاحظ منذ أن التحقت بالمدرسة الابتدائية أن تنفس أبى غير منتظم وأن هناك خطأ ما فى صحته . ذلك لأننى لكى أستعد للذهاب الى هذه المدرسة فصلت لى "بذلة أفرنكى" كنت ألبس تحتها قميصا وكان لابد من أن ألبس رباط عنق . وقد رؤى أن البذلة لكى تحمينى لابد أن يكون لها بنطلون طويل . والمشكلة التى كانت أمامى وأمام أمى وأمام أبى كانت كيف أربط رباط العنق ، لم يكن أحد يعرف ذلك فى المنزل سوى زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكينة . كانت تربط لى هذا الرباط يوميا . ولكن يحدث أحيانا أن يحدث سوء تفاهم بينها وبين أمى فترفض أمى أن أذهب اليها لتقوم بهذه العملية التى لم يكن أحد غيرها فى الأسرة يستطيع أن يقوم بها . عندئذ كان أبى يتطوع للقيام بها ، فكنت أسمع انفاسه تخرج من صدره ثقيلة ثقيلة وكان صوتها مسموعا وكان القلق يملأ فؤادى الصغير من أجل ذلك . كنت فى الثامنة من عمرى فى ذلك الحين ولاحظت تنفس أبى غير العادى وكان القلق يملأ فؤادى الصغير من أجل ذلك . وكان أبى يعلم ماعنده مافى ذلك من شك فكان يذهب الى الطبيب المعالج وكان يتعاطى الدواء .

ولكنه كان يدخن كثيرا ، وكان مولعا بالطعام ، يقوم بنفسه بتجهيزه طعاما دسما . وكان يصنع الاكل الذى يحتاج الى "الفرن الافرنكى" لكى ينضج . وكان له ذوق الاكول الذى يحب الوان الطعام والذى يحب أيضا أن يدعو الأقران الى التهام هذا الطعام . انظر اليه وهو يتفنن فى صنع "صينية الكنافة" مثلا أو فى صنع "صينية البطاطس باللحمة المفرومة "مثلا ، أو انظر اليه وبخاصة فى "عيد شم النسيم" وهو يشرف على "أكلة الفسيخ" وماتحتاج اليه من معدات كزيت الزيتون والليمون والبصل الاخضر وغيرها وغيرها . وأنا الآن أكاد أجزم أن الاكل الكثير الذى كان أبى يلتهمه وتعاطى التدخين بشراهة كانا من عوامل مرضه المستمر وبخاصة فى العشر السنوات الأخيرة من حياته . انه كان يصوم شهر رمضان مثلا ، وعندما يضرب "مدفع القلعة" ايذانا بغروب الشمس ، وكان قريبا منا ، كان أول شىء يفعله أن يشعل سيجارة ومن ورائها سيجارة ثم يأكل ماشاء الله له أن يأكل . لاحظت مرض أبى منذ أن كان عمرى ثمانية أعوام . وأذكر أنه لكى لايزعج أحدا أمى أو أباه أو أمه أو غيرهم فانه كان يقول انه سيسافر الى الاسكندرية لكى "يغير هوا" ، ولكنه كان يترك المنزل الى المستشفى لكى تجرى له عملية جراحية مثلا لايعرف أحد عن أسبابها شيئا . وعندما ذهب جدى وعمى وابن عمى زكى وأنا لكى نزور أبى فى المستشفى ذات مرة ، كان يأكل طعام المستشفى . وأمامنا كان يشيد "بطعامة" هذا الطعام لكى يهدىء من روعة الزائرين ويطمئنهم . كان يعرف مرضه ولم يكن يهمل علاجه ولكنه كان يخفيه دائما عن الناس حتى عن أقرب المقربين اليه . كان يرى أنه من العجز أن يئن اذا دعا المرض الى ذلك ، فكان يكبت ذلك الألم حتى لايثير الأسى فى نفوس من يراهم . وكان كل من يزوره فى المستشفى من الذكور ، لأن واحدة من نساء البيت لم تكن تجرؤ على ذلك وعلى رأسهن بالضرورة أمى .

وكان اذا هل هلال شهر المحرم يستعد الجميع من داخل البيت ومن فى خارجه من الأقرباء لكى يكتبوا كشفا بالملابس التى يحتاجون اليها . كانوا يفعلون ذلك بناء على أوامر أبى . فالوقت قد حان لاخراج الزكاة والشهر شهر المحرم . وهذا هو الموعد لاخراج الزكاة فى صورة ملابس للجميع . كنت ترى نساء زوجات أبناء البيت زوجة عم أبى أم حسين سكينة وزوجة عمى أم على زينب وأمى يجلسن . وكل واحدة تعدد الأشخاص وماينبغى أن يشترى لكل من ملابس خارجية كانت أو داخلية . والأولى تحمل فى يدها ورقة وقلما وتكتب الاسم وعدد الأمتار من القماش ونوع هذا القماش .

ويبدأ الكشف باسم جدى لأبى وجدتى لأبى ثم أعضاء كل أسرة نووية تنتمى الى آل عويس . ثم من يعيشون تحت أسقف البيت : الشيخ عبد الفتاح ونفيسة ورتيبة ومحمود أولاد عمتى أم بطة . ثم "خالتى نفيسة" أخت جدتى لأبى وابنتها "أم حسين حسنة" وحفيدتها "بياضة" ، ثم "سكينة ابنة أخت أبى المتوفاة و "عطيات" ابنة أخت متوفاة أخرى . ثم عمتى "أم زكية" وأولادها . ثم ثم ثم .. .. ويحسب عدد الأمتار والأنواع ثم الاثمان ثم جملة المبلغ المتوقع صرفه ويرسلن الكشف الى أبى عن طريق أمى . وتنتدب زوجة عمى أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكينة لتذهبا باذن لشراء مايلزم . وكان يعتبر يوم الشراء والأيام السابقة عليه أعياد فى الأسرة . وبعد الشراء يبدأ التوزيع على الجميع من فى داخل البيت ومن فى خارجه . وتحاول كل من زوجة عمى محمود أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكينة ، وهما المسئولتان عن الشراء ، أن ترضيا كل من اشترى له أو لها قطعة أو أكثر من القماش من حيث النوع ومن حيث اللون ومن حيث الكمية ، حتى يرضى الجميع أو حتى يدعى الجميع هذا الرضاء . وكانت أمى عادة أول الراضيات مهما كان نوع مااشترى لها ولى أو لونه أو كميته . وحتى ينتهى شهر المحرم كنا نسمع الروايات عما

واجهته كل من المسئولتين عن الشراء . الروايات عن البائعين فى محلات الغورية والموسكى والتربيعة ، وعن راكبى "السوارس" وراكباته ، وعن "الغدوة" السنوية وأنواعها التى كانتا تأكلانها عادة من عند "الحاتى" وعن ثمن هذه "الغدوة" ، وعما جد فى الشوارع وما أختفى من المعالم ، وعمن قابلاه من المعارف أو الجيران الحبيبات منهن والعدوات .

وإذا كانت وفاة عمتى "أم بطة" هى أول مواجهة للموت فى حياتى ، وكانت وفاة شقيقى عبد الغنى المواجهة الثانية ، ووفاة سكينة شقيقتى المواجهة الثالثة ، إن وفاة أبى كانت المواجهة الخامسة لاالرابعة ، وذلك لأننى أذكر وانا فى السنة الدراسيه الثانية فى المدرسة الابتدائية عدت الى البيت ذات يوم بعد انتهاء الدراسة فإذا بى أفاجأ بصراخ وعويل حاد ومتواصل فى بيتنا . كان عم أبى مصطفى مريضا منذ ايام وتركته فى الصباح وكان لايزال مريضا . وكنت اتابع مرضه لانه كان انسانا كريما ذا أخلاق رفيعة . كان باختصار انسانا "طيبا" وقد ارسل ابى اليه الطبيب المعالج كما كان يفعل سواء كان المريض قريبا أو غير قريب . ولكن متابعتى لمرض عم أبى مصطفى كانت عن قرب وكنت ارى أحد المشايخ يأتى خصيصا الى حجرة عم أبى مصطفى المريض فيقرأ له مايتيسر من أيات القرآن الكريم . وأذكر انه فى ذات مرة طلب طبقا صينيا أى مصنوعا من الصينى وأملى على مرافقه ، فقد كان كفيفا ، بعض الايات القرآنية الذى كان يكتبها بالحبر الأسود "بقلم بسط" ثم طلب الشيخ من زوجته أم حسين سكينة أن يوضع فى الطبق بعد ذلك ماء الورد ثم يشفى إن شاء الله تعالى . وقد فعلت ذلك وشرب المريض الخليط المكون من الحبر الأسود بماء الورد . وكان التبخير فى المنزل لاينقطع . والادعية تتلى دون توقف . فضلا عن الأحجبة التى تؤكد الشفاء التى كان يقوم بعملها المختصون من المشايخ وأصحاب الكرامات. ولكن المريض لم يشف . ومات هذا الرجل الطيب وترك زوجته وابنتيه سنية وفاطمة

وأبى جدى لأبى أن يتركن المنزل وأكد ذلك أبى وتطوع أن يضمهن تحت جناحه مع أمى ومعى . أما زوجة عم محمود أم على زينب وابناؤها عبد المنعم وزكى وفتحية والبرنس ثم سنية ومعهم نفيسة ورتيبه ومحمود فقد تولى شئونهم جدى لأبى ، ذلك لأن عمى محمود على وشك الافلاس ولم يكن يستطيع الصرف على زوجته وابنائه ولما كان زكى قد تعثر فى دراسته الابتدائية فإن جدى لأبى رأى أن يشركه معه فى إدارة المحل الذى يشرف عليه فى ميدان العتبة الخضراء . وعبد المنعم سائر فى دراسته فى الأزهر الشريف لايعرف عنه أحد الشىء الكثير . وقد حاول أبى أن يشركه فى العمل معه فى الوكالة ولكنه فشل . ومهما يكن من الأمر فالذى حدث من تغيير لم يؤثر كثيرا فى تصدع الأسرة . وقد رحب أبى بالتقسيم ورضى الجميع عنه ، وأكد أبى لأمى أن كل ماتطلبه زوجة عمى محمود منها أو مايطلبه أحد أبنائها فى حدود الأمكانات تعطيه لهم ولاغضاضة عنده من ذلك . ومن الناحية الأخرى كان عمى محمود يطلب البضاعة من أبى على أن يسد ثمنها ولكن كان لايفعل ذلك . فكان أبى يعطيه دائما ولكنه كان يمتنع أحيانا على سبيل اعطاء الدرس ، وكان عمى محمود " يوسطنى " بينه وبين أبى ، وكنت انتصر دائما لعمى . ويبدو ولى أن أبى كان يرى فيما يعطيه لعمى بابا من أبواب الزكاة . وكما كان يفعل عمى محمود ذلك مع أبى أحيانا وخاصة عند استهلال المواسم كشهر رمضان أو عيد الفطر أو عيد الأضحى .. فان أبى يفعل شيئا من هذا القبيل مع جدى لأبى ، وكنت فى كل مرة الوساطة بين أبى وجدى . كان يوم الخميس هو يوم "التحصيل" عادة من عملاء أبى المنتشرين فى حى الخليفة وبخاصة فى حى "عرب يسار" وحى "الخارطة القديمة" وحى "الخارطة الجديدة" وحى "الابجية" . وكان يذهب اليهم ليأتى منهم بالنقود نظير البضاعة التى تسلموها فى خلال الأسبوع . ليدفع هو بدوره ماعليه أو بعض ماعليه للتجار فى حى "بين الصورين" أو حى "بولاق" يوم الجمعة بعد الظهر أو عندما

ياتى المساء ، فإذا كان ما حصله من عملائه مبلغا أقل من الذى كان يجب عليه أن يدفعه فإنه كان يرسلنى الى جدى لأبى صباح يوم الجمعة لكى آخذ منه الفرق جنيهات قد تكون خمسين جنيها وأحيانا أكثر من ذلك . وأذكر أن جدى لأبى مايكاد يبدى أية ملاحظة فإننى كنت أسارع الى الدفاع عن أبى فى صيغة يبدو فيها عنصرا أو عناصر من التمرد . واذكر أن جدى لأبى لم يخيب لأبى طلبا أولى رجاء قط . كان يكتب أبى لجدى ورقة غير مطوية يقول فيها :

"أرجو اعطاء سيد مبلغ كذا لضرورة لزومهم"

ثم يوقع . وكنت أرى لفظ "لزومهم" ، وكنت فى ذلك الحين حاصلا على شهادة الكفاءة ، ولم أملك أن اعلق بشىء على هذا الخطأ غير الجسيم .

هكذا كانت تسير الحياة بأسرتى وانا أعيش مع أمى وأبى وأبناء العمومة وبناتها ، ومع أصدقائى فى الحارة وفى المدرسة على السواء . وكنت فى المدرسة أحيا حياة التلميذ المرموق ، أؤدى واجباتى على مايرضى المدرسين والأساتذة وقبل كل ذلك على مايرضينى . ولكن الأجازة الصيفية إذ تاتى فاذا أنا بين جدران الوكالة لا لاعمل ولكن لكى أراقب العمال الذين يستأجرهم أبى – وكان أبى حريصا جدا على ذلك – وكنت فى قرارة نفسى متألما لذلك كثيرا . كانت تبدأ الأجازة فى يونيو وتنتهى فى سبتمبر ، أربعة شهور طوال . لم تكن لى الحرية ان أعيش هذه الفترة الطويلة كما أرى . ولاننى أعلم أن أبى فى حاجة الىّ ولاننى تاكدت مرارا أنه مريض ويخفى على الآخرين مرضه ، فقد كان قلبى يتمزق ، ولم أقل شيئا مما أشعر به لأحد أيضا . كنت أبكى وحدى أحيانا لان صرح أبى العملاق ابن البلد الضاحك الكريم الذكى الشهم صاحب الحول والطول ذى الهيبة ينهار أمامى رويدا رويدا . وكان لابد لى من أن ألبى رغبته واكون فى الاجازة الصيفية فى الوكالة أراقب العمال الذين يستأجرهم .

وكانت وفاة أبى النكبة الكبرى التى حلت بالأسرة . كان أبى اليد اليمنى لجدى أبيه ، فهو الركن الركين الذى كان هذا الجد يعتمد عليه . واذا كان جدى قد تمكن من شراء العقارات التى يملكها أو ادارة العمل الذى كان يشرف عليه فالفضل كان يرجع لأبى . والآن وقد مات فان تصدع الأسرة الكبيرة قد حل بها وفرق بين صفوفها . وأمى كانت هناك ولم تكن أيضا . كان حزنها شديدا شديدا . كانت تبكى ليل نهار . ودموعها كانت تنهمر كأنها ماء الامطار . وكنت أراها فى ملابسها السوداء وكانت ترانى ولم تكلمنى ولم أجرؤ على الحديث معها . ومرت الأيام وهى على هذه الحال . ولكن كان الانقاذ على يد محمد ابن اختها الشقيقة نبوية . وكانت هذه الشقيقة قد ماتت قبل ذلك بعام ، ثم مات جدى لأمى بعد ذلك بشهور . فلم يبق من أهل أمى سوى حميدة وعزيزة وقد تزوجتا واختهما زهرة التى لم تتزوج ، وهن اخواتها غير الشقيقات فضلا عن اختها غير الشقيقة زكية . كان خالى سيد مشغولا بعمله . ومهما يكن فقد كان رجلا سكيرا لايعيش الا لنفسه ومن أجل لذاته وتحقيق مصالحه . ولكن محمد ابن الشقيقة نبوية كان اقرب الى أمى من كل الاشخاص . وكان يضع أبى فى منزله عالية . فهو لم يكن لينسى أبدا ما فعله أبى من أجله عندما انتهى عمله كسروجى فى القلعة وصار لايلوى على شىء . وانتهى به الامر ان يتاجر فى " المنى فاتورة " وكان أبى أول من شجعه واعطاه مايكفى ليكون رأس ماله الأول الذى بدأ به حياته العملية حتى صار فيما بعد تاجرا مرموقا فى السوق ، يعرف عند أهل " الحتة " ويشيدون بذكره . وكان محمد ابن خالتى نبوية قد تزوج وأصبح رجلا عندما مات أبى . كان هو البلسم الشافى لامى . وعلى الرغم من مستواه العلمى الضئيل فقد كان رجلا متدينا انضم الى " الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية " وحف شاربه وأعفى لحيته ولبس العمامة وأرخى العذبة . وحمل بذلك ثقافة دينية كانت تزدهر فى المجتمع المصرى فى الثلاثينيات وحتى قبل ذلك . وهنا

كان دور محمد ابن خالتى نبوية مع أمى الحزينة المكلومة . كان يأتى اليها كل مساء ويحادثها فى الصبر ويتحدث معها حديث العزاء ، ويطلب منها أن تدعو لأبى المتوفى ، وان تذكر الله قبل أن تنام مرات ومرات وتهب ثواب ذلك اليه . واستمرت أمى تفعل ذلك حتى ماتت . وكانت تضيف الى كل ذلك قراءة " لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم ..." .

وبدأنا نتحدث سويا أمى وأنا . كنا قبل ذلك نتحدث بعيوننا الحزينة وبقلوبنا المكلومة وعاشت أمى ماعاشت ولم تنس ابى أبدا . واذا كان ابى قد مات فى شهر يناير عام ١٩٣٠ فإن أمى قد تبعته فى شهر يناير عام ١٩٥٠ . عشرون عاما مرت مر اللحظات ولم تنس هذا الزوج الذى بدأ لها فى أول زواجها منه كأنه الوحش الكاسر وانتهى وبخاصة فى السنين الأخيرة وكأنه الطفل الوديع .يتحدث معها كل ليلة عندما يعود من عمله حديث الود والحنان . كانا يتسامران كل ليلة قبل أن يناما . وكنت وأنا فى سريرى استيقظ على هذا الحديث وهذه المسامرة . وكان قلبى يخفق سرورا وحبورا . فقد كان ابى على الرغم من مجافاته لى فى بعض الاحيان ودودا كريما . وكان لايرى فى مجافاته لى أمرا سيئا أبدا بل يرى فيها مصلحتى التى لم أكن لادركها فى ذلك الحين وكنت فضلا عن ذلك أكن لأبى الاحترام الشديد الذى هو الحب المخلوط بشىء من الخوف . وكان تعاطفى مع مرضه المستمر عميقا عميقا عميقا .

وشيعت جنازة أبى صباح يوم الاحد فى يوم ١٩ من شهر يناير عام ١٩٣٠ . وكانت جنازة مهيبة سار فيها المئات وربما الالوف من أهل حى الخليفة . وكان يوما مشهودا قد حفرت أثاره فى قلبى وبقيت حتى الآن . ووقفت اتقبل العزاء . وأقيم السرادق فى المساء ثلاث ليال . وكانت أصوات المشايخ "عبد الفتاح الشعشاعى" . "الصيفى" و "الفران" وغيرهم من قراء الجيل يتلون القرآن فيمتلىء السرادق بالناس الذين جاءوا للعزاء أو جاءوا للاستماع

لهؤلاء القراء . واستقر الرأى فى خلال هذه الأيام الثلاثة التى انتهت بيوم الثلاثاء ٢١ من شهر يناير عام ١٩٣٠ الى أن اترك مدرسة الخديوية الثانوية وأنا فى السنة الرابعة لأدير الوكالة التى تركها أبى وحدى . كان جدى لأبى يطلب ذلك وكان كل من رجال الأسرة : أسرة أبى أو أسرة أمى يطلبون ذلك . لم يكن لأمى رأى فى الموضوع . انها فى حزنها الشديد لاتعيش الا مع زوجها الذى مات . حتى اذا حاولت امى أن تبدى رأيا فان خبراتها لاتسعفها برأى ، فقد كان الرأى دائما لغيرها لابيها أولا ثم لستى حمدة ثم لجدى لأبى ثانيا وثالثا ورابعا . لم تكن تستطيع فى ضوء ظروف نشأتها أن تكون لها رأيا مستقلا . ورأى الجميع وقبلهم رأى جدى لأبى أن استأنف العمل فى الوكالة التى تركها أبى وأن اترك الدراسة التى كانت حلم هذا الأب أن أستكملها حتى النهاية فى مصر وبعد النهاية فى اوروبا تماما مثل الزعيم "مصطفى كامل" .

لم يأت شخص واحد من الأقارب المقربين أو غير المقربين أو الغرباء ليقول لى "لاتفعل" الا "حسنين افندى" الذى كان "الشيخ حسنين" عندما كان يدرس لنا فى المدرسة الاولية ، فقد قال لى ذلك بعد ثلاث سنوات . وكنت قد تركت المدرسة وخضت مدرسة الحياة فى شخص العمل فى التجارة ومواجهة "السوق" ومن فى السوق من أشخاص كانوا كالذئاب أحيانا أو كانوا كالكلاب أحيانا أخرى . وناظر المدرسة الخديوية فى ذلك الحين "لبيب بيك الكردانى" لم يكلف نفسه ليراجع جدى لأبى فى هذا القرار . كان من واجب هذا الرجل وهو يعلم أننى من أوائل الطلبة فى المدرسة ومن اخلصهم لطلب العلم والمعرفة أن يفعل مايفعله "حسن على" ناظر مدرسة أم عباس الأول الابتدائية ، عندما جاءه "الشيخ إبراهيم" ، وهو مأذون حى السيدة عائشة بقسم الخليفة ويسكن فى أحد بيوت جدى ، يشكو اليه منه . فاذا هو يتحدث الى أبى بالتليفون طالبا أن يأتى الى المدرسة فى أقرب فرصة ممكنة . وسارع ابى الى تلبية هذا الطلب وذهب وهو يتوجس ويظن

الظنون . فعندما عرف الموضوع قال أبى موجها كلامه الى "حسن على" ناظر المدرسة" أن مهمتى أن اربى جسم سيد وانتم تربون روحه ، فالمرجع الأول والأخير فى ذلك أنتم ، "وانتهت المقابلة على خير وتنفس أبى الصعداء ، ولم يعجب كثيرا ولا قليلا من تصرف "الشيخ ابراهيم" فهو كما كانت تقول "عيوشة زردقة" من فتوات حى الزرايب المتفرع من شارع السيدة عائشة عن هذا الرجل" دا راجل سو ومسير السو ينسو " . قد فعل ذلك حسن على ناظر المدرسة الابتدائية ازاء هذا الموقف غير الحاسم ولكن لبيب الكردانى ناظر المدرسة الثانوية لم يفعل شيئا ازاء موقف خروجى من المدرسة وانقطاعى عن الدراسة وهو موقف حاسم فى حياة احد الطلبة الجادين عنده .

٣ ـ مسيرتى التعليمية : المرحلة الدراسية الابتدائية

"العصفورة دى لمين؟"

"لســـــيـــد"

كان ذلك أول ماوجهنى عندمادخلت الكتّاب الذى كان ملحقا بمسجد السيدة عائشة النبوية بقسم الخليفة . كان الشيخ يتغنى بالمقطع الأول ، وكان تلاميذ الكتّاب يرددون اسمى وكأنهم "الكورس" فى المسرح . وتكرر هذا مرارا حتى انقطع سيل دموعى وهدأ روعى . ذلك لأننى كنت رافضا الذهاب الى الكتّاب وبكيت محتجا على إصرار ابى على ذهابى . فحملنى عمى محمود شقيق أبى على كتفه فى طريقه الى الكتّاب ومن ورائه أبى يصرخ قائلا : "اسكت ياكلب" . وتصادف ان كانت العصافير تطير حول شباك الحجرة التى يجلس على المقاعد المرصوصة فيها تلاميذ الكتّاب ، وانتهز الشيخ الفرصة فتغنى بما تغنى ، وردد التلاميذ ماارددوا ، وسرعان ماانقطع سيل دموعى وهدأ روعى . كانت هذه هى تجربتى الأولى مع طلب العلم وكنت فى الرابعة من عمرى وربما

اقل من ذلك . وقد اختار لى أبى هذا الكتاب لقربه من الوكالة التى يعمل فيها لأكون على قرب منه ومن عمى الذى كان يعمل فى "محل العطارة" القريب أيضا . لاأدرى كم مكثت فى هذا الكتاب ولكن يبدو ان الفترة التى قضيتها فيه كانت قصيرة فسرعان ماوجدتنى فى "مدرسة السيدة عائشة الأولية" وكان موقعها قريبا أيضا من وكالة أبى فى "شارع الزرايب" الذى يسكن فيه العديد من أفراد "طايفة المعمار" ومن البنائين والنقاشين والمبلطين والنجارين والحجارين وغيرهم . ولم يكن يسكن فى الشارع من "الأفندية" الا عدد قليل جدا . وكان الكثير من سكان هذا الحى ممن هاجروا من الريف القريب ، فتراهم مازالوا يمارسون بعض العادات والتقاليد الريفية . وحتى اللهجة الريفية مازالت تلوكها أفواههم . ومع ذلك فإن "أولاد البلد وبنات البلد" كانوا الفئة الغالبة . وفى المدرسة الأولية التى انتقلت الى حى "المشرقى" (عطفة السرجة) بقسم الخليفة أيضا ، لم أتعلم كثيرا . وأذكر اننى تعلمت الأبجدية وبعض العمليات الحسابية ، كما حفظت بعض الآيات القرانية التى كنا فى الفصل ، التلاميذ وأنا ، نرددها ترديدا جماعيا . وتعلمت ضمن ماتعلمت بعض الأناشيد وقطع المحفوظات التى تتضمن المواعظ التى تحض على صنع المعروف فى غير أهله مثلا . وفى هذه الأثناء وقعت الهدنة بين الحلفاء فى عام ١٩١٨ ، وتدفقت مشاعر الوطنية فى صفوف الشعب المصرى تمهيدا لقيام ثورة عام ١٩١٩ . وأذكر اننى وتلاميذ المدرسة فى كل صباح فى الطابور كنا نردد نشيدا أذكر منه .

يارسول السلم الى مصرا ... قم هنىء العالم بالبشرى
انــا أبنــاء النيــل بنـيـه ... أعلا من قد سلفوا قدرا

كنت أردد مع المرددين هذا النشيد كل صباح وأنا لاأعى معنى لأية كلمة فيه ، تماما كما كنت أفعل عندما كنت أردد أيات القرأن الكريم .

وفى خلال الدراسة فى المدرسة الأولية كانت الأغانى السائدة فى ذلك الحين تشنف أسماعنا ، وكنا نحفظها . ولم نكن ندرى من أين كانت تأتى الينا . فلم يكن هناك مذياع أو تليفزيون أو أداة من أدوات الاعلام الحديثة فى ذلك الحين . كنا نغنى جماعيا :

"الحلوة دى قامت تعجن فى البدرية"

و "زورونى كل سنة مرة حرام تنسونى بالمرة"

وكنا نغنى أيضا :

"شم الكوكايين خلانى مسكين مناخيرى بتون

وقلبى حزين وعينى فى راسى رايحين جايين"

و"سيبنا يابا داحنا غلابا نسكر فين ونحشش فين

وبقيت بميتين الوقيـة"

المهم ان الكتاب ثم المدرسة الأولية قد مهدا لى أن أعيش مع غيرى من الصبيان ممن كانوا فى مثل سنى أو كانوا أكبر منى سنا . والاخرون كنت أخشاهم فهم من أبناء "حى قلعة الكبش" و "حى طولون" و "حى السيدة زينب" الذين كانوا يعيشون فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى يتميز بقيم تدعو الى طول اللسان والى العدوان . وكنت أراهم وأحد المدرسين الذى لاأذكر اسمه الآن إذ يقف على الباب يراقب التلاميذ فى "فسحة" مابين الفصول . وكان هذا المدرس ذا شارب مفتول تداعبه انامله من لحظة الى أخرى ، كنت أراهم يجمعون نفسهم فى "كورس" ويرفعون أصواتهم بالغناء قائلين :

"شوفوا لافندى واجف عيبصبص"

"حاطط بـدرة وشعـره مجصجص"

وكان المدرس لايحرك ساكنا ، وكنت أقف أمام جمع هؤلاء التلاميذ الكبار واجما متأففا .والتلاميذ الكبار يغنون ولايبالون أحدا أو شيئا حتى تنتهى فترة الفسحة المحدودة ، ثم يدخل الجميع الى الفصول ليستأنفوا الدراسة .

وقد لاحظت ان من التلاميذ عددا يأخذ كل واحد فى أثناء النهار رغيفا من الخبز الطازج ، ويوزع هذا الرغيف الطازج علنا على هؤلاء التلاميذ يوميا . وقد علمت ان هؤلاء يتامى المدرسة فقد كان من بينهم محمود ابن خالتى أم محمد شقيقة أمى الذى كان يتيم الأب . وكنت أنظر الى هؤلاء فكنت أرى فى عيونهم بريقا يشع مشاعر الخجل واللامبالاة والتميز جميعا . وكان الكثير منا يغبط هؤلاء اليتامى وبخاصة اذا قضم أحدهم من الرغيف الطازج الذى معه لقمة يلوكها فى فمه وكان الواحد منا كان يود لوأنه هو الذى قضم هذه اللقمة .

وجاء اليوم الخالد فى حياة تلاميذ المدرسة . كنا مازلنا نقف فى طابور الصباح وكنا نغنى نشيد الصباح ، وكان الحماس زائدا ، والأصوات عالية ، ومن أمامنا يقف رجال كبار ، قيل لنا انهم من طلاب المدارس العليا . وصمتنا وران الصمت على المكان كله . لم يقل الناظر شيئا . ولم يقل المدرسون شيئا . حتى "الشيخ حسنين" (الذى صار حسنين افندى بعد ذلك) محبوب التلاميذ جميعا لم ينبس ببنت شفة . واذا بأحد الواقفين من الضيوف يخبرنا بأنه يجب أن نذهب الى بيوتنا وأن لانعود الى المدرسة لحين اخطار ذوينا بذلك . وكانت نصيحته بعد ان هتف وهتفنا بعده ثلاث مرات :

"تحيا مصر حرة"

أن نخلد الى الهدوء فى طريقنا الى بيوتنا . وكانت هذه البيوت قريبة من المدرسة . وأذكر اننى ذهبت الى البيت فى شارع البقلى حارة الشراقوة وذكرت أمى ماحدث ، فكانت تعليقها على ذلك :

"اللوا سمـــوه ياسيـــد الانجليز سمـــوه

وأذكر الآن مااختلج فى جوانحها ، وان الدمع كاد ان يجرى من عينيها . وكانت لحظة أكدت لى فيما بعد أن الظالم المستبد يذكر عادة مايفعله وينسى ماهو أهم . رد فعل مافعل . وان الوطنية

مشاعر لايقف فى سبيل وجودها فقر أو جهل أو حتى ضباب فكرى . وكانت لحظة أكدت لى فيما بعد أن المصالح تصنع النوايا التى بدورها تدفع الانسان القاهر ليقهر أكثر وتدفع الانسان المقهور ليتحرر من قيود القهر ليكون حرا فيؤكد ذاته ويعمل لنفسه ومن أجل المقهورين الآخرين .

حدث ذلك فى أحد أيام شهر مارس عام ١٩١٩ بعد ان نفى سعد زغلول لأول مرة . وأذكر اننى لم أذهب الى المدرسة الأولية بعد ذلك . ومكثت فى البيت بين يدى ابن عمى عبد المنعم الذى كان يكبر أبناء الأسرة من الذكور ليعلمنى "اللغة العربية" . وكان ابن العم هذا سعيدا بتعليمى وتعليم أخيه زكى وأخته فتحية وابنة عم أبيه سنية وحتى محمود ابن عمتى أم بطة . كنا تلاميذا له وبدأت أعرف منه ماهو "الفعل" وماهو "الاسم" . وقد كان لذلك أثر كبير فى اهتمامى باللغة العربية وقواعدها فيما بعد . واستمر هذا التعليم الاختيارى فترة من الزمن لاأتذكر مداها . وأذكر أن عبدالمنعم ابن عمى كان يهتم بتلقيننا الشىء الكثير عما كان يدور من حوادث سياسية فى ذلك الحين . فقد كان له باع كبير فى هذا الشأن . واشتراكه فى المظاهرات فضلا عن قراءته للصحف وغيرها من المنشورات ، كل ذلك كان ييسر له المعرفة عن هذه الأمور أكثر سنا وربما أكثر من أى عضو آخر من أعضاء الأسرة . وأذكر أيضا أنه كان يهتم بتحفيظى أبيات من الشعر ، وكنت أحفظ مايلقنه لى ولا أعرف من الذى قاله . وكنت أيضا لاأفقه لما أحفظه من أبيات معنى . وكان ابن العم يتعمد عدم تفسير معناها ويؤجل ذلك يوما بعد يوم . وعندما شببت عن الطوق استطعت أن أعرف قائلها كما أعرف معناها . ومن هذه الأبيات أذكر هذين البيتين للشاعر أحمد شوقى وهما :

ريم علي القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا
ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم

كانت جلسات جدى لأبى مع أحفاده الذكور والاناث معا تفتح أمامى آفاق المعرفة . كان الرجل يقرأ فى الكتب التى تملأ خزانته وهى كتب فى الغالب دينية ، وكان منها تفسير القرطبى وصحيح البخارى وغيرها . وعلى الرغم من أن أوراقها كانت صفراء فانها كانت موضع فخر الجد وفخرنا جميعا . كان يقرأ لنفسه أحيانا ، وكان يدعو ابن عمى عبدالمنعم ليقرأ له ولنا أحيانا آخرى ، وكنا نفهم القليل . ولكن المناخ الثقافى الذى كان يظللنا ترك آثاره فينا بعامة وفى أنا بخاصة . وجلسات أبى مع أصدقائه كان لها لون آخر ، اللون الوطنى المتدفق فقد كانوا اذا ماتحدثوا كان حديثهم الوطنية الصادقة ، حديث حب مصر والذود عنها وتحريرها من الاستعمار الانجليزى الجاثم على صدرها . وكانوا أيضا يتحدثون عن "أمين الرافعى" ، وكان البعض منهم يكاد أن يحفظ عن ظهر قلب مقالات هذا الرجل الذى كان ينشرها فى جريدة "الاخبار" . وفى هذه الجلسات كنت أسمع لأول مرة عن مصطفى كامل ومحمد فريد وعبدالعزيز جاويش وسعد زغلول . وقد سمعت أيضا لأول مرة عن الأفغانى وعن محمد عبده وعن عبدالله النديم وحتى عن قاسم أمين . أسماء لم أكن أعرف عن الأشخاص الذين يحملونها شيئا ، ولا عن أدوارهم من أجل رفعة مصر ولا عن التضحيات التى بذلوها بسخاء من أجل تحقيق آمال الأمة فيهم وآمالهم فيها وفى مستقبلها . وفى هذه الأثناء بدء فترة ثورة عام ١٩١٩ ومابعد ذلك حتى أوائل عام ١٩٢١ لم يكن لى مستقر ولا مصدر للتعليم سوى جلسات جدى لأبى وجلسات أبى فضلا عن الدروس التى كان عبدالمنعم ابن عمى يرغب فى القائها على أحفاد الأسرة من الذكور ومن الاناث . عندئذ رأى أبى أن الأوان قد أن ليرسلنى الى حيث تكون الدراسة المنتظمة الى "مدرسة والدة عباس باشا الأول الابتدائية" التى صارت فيما بعد "مدرسة بنبا قادن الابتدائية" ،

والتى يعرفها الناس بأنها مدرسة "أم عباس" ، فهى المدرسة التى تعلم فيها الزعيم مصطفى ، وهذا عند أبى سبب كاف ، ومهما قيل له إنها مدرسة لاتتبع الحكومة أو أن مصاريفها أعلى من مصاريف المدارس الحكومية مثيلاتها ، فان كل ذلك لايهم . واستعد أبى لالحاقى بهذه المدرسة . فذهب الى الترزى ليفصل لى "بدلة" من قماش من الصوف المتين بشرط أن يكون "البنطلون" طويلا حتى يحمينى من برد الشتاء . واهتم أبى أيضا بتفصيل "حذاء" جديدا وقميصا تربط فى ياقته رباط عنق . واشترى لى "طربوشا" جديدا أضعه فوق رأسى . ولم يسبقنى فى لبس هذه الملابس سوى ابن عمى زكى الذى سبقنى الى مدرسة ابتدائية أخرى ولكنه لم يمكث فيها كثيرا حيث رأى جدى لأبى أن يأخذه معه ليساعده فى العمل الذى يديره فى ميدان العتبة الخضراء كان جدى وأبى وعم أبى مصطفى وعم أبى عبدالفتاح وعمى محمود شقيق أبى لايلبسون الملابس الافرنجية . كانوا يلبسون القفطان والجبة أو الجلباب وفوقه العباءة والعمامة ، وكان البعض يحلو له أن يلبس الحذاء والبعض الآخر كان يلبس "البلغة" فى قدميه . وقد شذ عمى محمود فكان لايلبس العمامة واستبدل بها لبس "الطربوش" .

وفى أكتوبر وبالتحديد فى يوم السبت الأول من هذا الشهر عام ١٩٢١ ذهبت الى المدرسة الابتدائية . كان يوما حاسما فى حياتى التعليمية . وسرعان ماوجدتنى فى بيئة ثقافية اجتماعية مختلفة عما كنت أعتاده . النظافة النظافة كل شىء نظيف الأرض والحوائط والمقاعد والسبورات والمراحيض وكل شىء . النظام النظام كان كل شىء يسير فى هذه المدرسة بنظام دقيق ويشرف على تطبيقه الناظر "حسن على" ويعاونه المدرسون والاداريون وضابط الالعاب والفراشون . وواجهت لأول مرة تناول الطعام خارج الأسرة فى "اليمكخانة" ، وهو المكان الذى أعد لتناول طعام الغداء . وعندما حان الحين لكى نأكل أمرنا بالوقوف فى "طوابير" كما فعلنا فى الصباح ووجدت نفسى مع خمسة من التلاميذ نجلس أمام مائدة على كراسى ، وأمامنا الطعام على المائدة فى "عامود" ذى

ثلاث طاسات واحدة مملوءة بقطع من اللحم والثانية بالخضار والثالثة مملوءة بالأرز ، وأمام كل واحد منا ثلاثة أطباق الواحد فوق الآخر ، وبجوار الأطباق من اليمين توجد سكين وملعقة كبيرة ومن الشمال توجد "شوكة" وأمام الاطباق كانت توجد سكينة أصغر وملعقة أصغر ، وبجوار الأطباق وجدت أمام كل واحد منا فوطة نظيفة تضمها حلقة من النيكل . وأمرنا بأن لانقرب الطعام حتى يؤذن لنا . وقبل أن يؤذن لنا قام ضابط المدرسة "صفوت أفندى" فينا خطيبا وأكد فى خطبته أننا سنأكل لابأيدينا بل يجب أن نستعمل "الشوكة والسكينة والملعقة" فى تناول الطعام . وأنا أعرف كيف أستعمل المعلقة من قبل فقد كنت أمارس ذلك فى الأسرة . أما ممارسة الشوكة والسكينة فلم أكن ادرى عنها شيئا . كنت مثل كل أعضاء الأسرة نأكل بأيدينا . وكان المهم كما كانت تأمرنا زوجة عمى أم على زينب أن يكون حجم "اللقمة" صغيرا ، أى أن "نغمس نونو" ، وياويل من كانت لقمته كبيرة فى ضوء تقديرها . وحتى لو كان الخضار المأكول "ملوخية" . وكان هذا لايتعارض مع تعاليم أبى الذى ماآتى أمامه صحن الملوخية وبخاره المشبع بالثوم المقلى فى المسلى البلدى يفوح ، كان يقول وبين أصابعه لقمة كبيرة يغمسها فى الصحن ثم يضعها فى فمه :

ان القلقاس رجل هلاس
أما الملوخية فيقرطفوها الايدين المحنية
ويخرطوها السكاكين الدهبية ،
والزور يفرقع والطن تتطرقع
وتقول هات هات لقمة كبيرة !

وكان أبى عندما يقول" لقمة كبيرة " يقلقل القاف ...

المهم فى الموضوع أننى أذكر أن مواجهة أول مرة لتناول طعام الغذاء فى المدرسة الابتدائية كانت امتحانا صعبا لى . ولما نظرت حوالى وجدت أنها كانت امتحانا صعبا أيضا للتلاميذ الذين كانوا يجلسون معى . وجاء الانقاذ على يد "عيسى أفندى" سكرتير

المدرسة الذى سرعان مالاحظ موقفنا ، فأخذ يدرب الواحد تلو الآخر على كيفية الامساك بالشوكة واستعمال السكين . وانتهى اليوم الأول بالمدرسة على خير ، وذهبت الى البيت وحدى كما جئت الى المدرسة فى الصباح وحدى . ولم يكن يصحبنى أحد فكنت اسير من البيت الى شارع الركبية مارا بالمشرقى ثم "السيدة سكينة" ، والى شارع الصليبة حتى بداية شارع السيوفية التى تقع المدرسة فيه . وفى الرجوع فى نفس الشوارع والحارات حتى بيتنا فى زقاق الشراقوه بشارع البقلى .

وفى اليوم التالى ذهبت الى المدرسة فى الوقت المحدد ، ولم تنس امى أن تذكرنى كما فعلت بالامس وكما ستفعل كل صباح بعد ذلك أن "أقرأ قد جاءكم" ، وحرصت زوجة عم أبى أم حسين سكينة أن أخرج من البيت أولا ثم تخرج فتحية بعدى ثم تخرج سنية بعدها عندما أغيب عن الأنظار . وكانتا قد التحقتا بالمدرسة الأولية بالمشرقى وكانت قريبة من بيتنا . وفى الحصة الثالثة فوجىء تلاميذ الفصل بأن هذه الحصة حصة ألعاب ، وانه على كل تلميذ أن يخلع "جاكته البدلة" و "القميص" ويبقى بالفانلة والبنطلون . وقد فعل ذلك جميع التلاميذ ، خلعوا ماطلب منهم أن يخلعوا فى المكان المعد لذلك ، وقد خلعت ماطلب منى أن أخلعه بعد أن خلعوا لأننى كنت أحمل مابين الفانلة والقميص "حجابا" أصرت أمى على أن أحمله منذ ان ولدت - فى قول - أو منذ أن نجحت فى المشى على رجلى وانا صغير دون تعثر - فى قول آخر - وحتى الآن . وأحسست ان التلاميذ وضابط الألعاب "مقبل أفندى" اذا مارأوا هذا الحجاب الذى أحمله سيسخرون منى ، وأنا لن أكون موضوع سخرية لأحد . أخفيت الحجاب . وذهبت بدونه لنلعب الألعاب الرياضية التى لم أكن قد مارستها قط من قبل . وكانت فترة أسعدت الجميع وأحسسنا بعدها أنها حصة لاتقل شأنا عن أية حصة أخرى . وقررت فى نفسى أن أستمر فى ممارستها كلما أتاحت الفرصة لى ذلك . ثم اذا ماانتهت فترة ممارسة الألعاب

تسابق التلاميذ الى المكان المعد لخلع الملابس وأعادوا لبس ماخلعوا وقد ذهبت متخاذلا حتى اذا ماانتهى أخرهم ذهبت وأعدت لبس ماخلعت وكان الحجاب ضمن مالبست ، ولكننى صممت على أمر اذا ماعدت الى المنزل لابد أن افعله . وعدت الى المنزل وقلت لأمى متمردا " انا مش حلبس الحجاب دا تانى " . وانزعجت أمى لذلك كثيرا ، وقد حاولت اثنائى عن هذا القرار ورفضت باباء وشمم . فاستنجدت بزوجة عم أبى أم حسين سكينة وبزوجة عمى أم على زينب ، وانتهى الأمر بعد أن رأين اصرارى على هذا القرار الى ان يستشيرون " الحاجة صابرة " وأن يعلق فى الوقت نفسه الحجاب على الحائط بجوار السرير الذى أنام عليه بصفة مؤقتة . وقد أقرت الحاجة صابرة هذا التصرف ولم أحمل هذا الحجاب أو غيره بعد ذلك أبدا . ولكن مازلت وربما حتى كتابة هذه السطور أسمع من يقول بأن " سيد ابن بخور " فقد ذهبت الى الحاجة صابرة قبل الذهاب الى المدرسة الابتدائية بأسبوع لتقوم هذه الكوديا بعملية تبخيرى . ولم تكن أمى معى وقد فعلت ذلك من وراء أبى ودون أن تأخذ منه الاذن . ولم أمانع فى ذلك من أجل أمى فأنا دائما كنت أحب أن أرضيها وأكتم سرها وان كانت طوال حياتها حتى مات أبى تحذرنى من البوح والا فان أبى يطلقها ويتزوج من أخرى تكون لى زوجة أب . كتمت سرها دائما عن أبى ولم أخذلها . وماهذا السر الا أنها كانت تذهب أحيانا الى بيت جدى لأمى أو كانت تختلس بعض الوقت لتقوم بواجب العزاء . وقد فعلت ذلك ذات مرة عندما ماتت عمتها الأخت الشقيقة الكبرى لأبيها ، وكانت عزيزة على أسرة جدى لأمى . ذهبت مع أخريات ، وعندما وصلت الى بيت العمة أخذت تلطم خديها فترة من الوقت حتى كلت يداها ، ثم سارعت بعد هذه الوجبة المؤلمة الى بيت الزوجية مستريحة البال فقد أدت واجبها بضرب نفسها بين دهشة الحاضرات من نساء وفتيات . كانت بينهن زوجتى المقبلة وكانت فى ذلك الحين فى العاشرة من عمرها .

وكان أمامى خمس سنوات دراسية حتى أتمكن اذا استمر نجاحى سنة بعد سنة من الحصول على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية واصبح أفنديا ثم أستطيع الالتحاق باحدى المدارس الثانوية ومنها الى الجامعة وربما أدرس بعد الجامعة فى أوربا تحقيقا لحلم أبى . ومرت السنون سنة بعد الأخرى . وأننى أذكر الأشخاص وبعض الوقائع التى واجهتها فى أثناء دراستى بالمدرسة الابتدائية . فقد التحقت بها وأنا فى الثامنة من عمرى وتخرجت فيها وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى لايمكن الا أن أذكر حسن على ناظر المدرسة الذى كان يرى فى " النجابة " ويقول أمام التلاميذ مادحا ان عويس " عقله بلوظة " يقصد مثل مطبعة البالوظة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان والذى كان يفخر أمام الضيوف فيطلبنى الى حجرته ومعى الكراريس ليلقى نظرة ويدع ضيوفه أن يروا مايرى وفى عينيه معالم الافتخار بى . وكان هذا الرجل يطلبنى الى تلاميذ السنة الخامسة وكنت لاازال تلميذا فى السنة الرابعة لكى يسألنى أمامهم عما يعجزون عن الاجابة عنه فأجيب ويقول لى متباهيا أمام هؤلاء التلاميذ بملء فيه " متشكر ياعويس " والمناسبة التى تجعله يطلبنى الى هذا الفصل انه كان يشترك فى تدريس بعض المواد اذكر منها " مادة المطالعة " ومادة الصحة فى سنتى الرابعة والخامسة . فاذا عجز تلاميذ الخامسة كان يرسل الى تلاميذ السنة الرابعة ليلقنوهم درسا . وكنت ضمن هؤلاء التلاميذ الذين كانوا دائما تحت طلبه . ويذكر لهذا الناظر فضلا عن هذا كله انه كان يؤمن بالنظام ويرى أن الأخلاق قبل العلم أو هما صنوان . ومع ذلك فقد كان لى معه موقف ربما يكون قد أحرجه . ذلك أن أحد تلاميذ فصلى وأذكر اسمه الآن بعد مرور اكثر من خمسين عاما قد وضع " الباشورة " التى تمسح السبورة على كرسى المدرس قبل أن يبدأ الحصة أى قبل أن يحضر ليبدأ الحصة ، هذا التلميذ كان " عبد الغنى قدرى " وكان المدرس هو مدرس اللغة العربية . وكان هذا المدرس رجلا جادا

ولكنه كان قاسيا . فما كان منه الا أن خرج من الفصل عندما رأى " الباشورة " على الكرسى لتوه ذاهبا الى حجرة الناظر ليشكو اليه ماحدث . ومامرت لحظات الا والناظر واقفا بيننا وقد سبقته هيبته التى يشعر بها الجميع دائما . وجاء ليحقق فى موضوع وضع الباشورة على الكرسى . من الذى وضعها ؟ وسأل فلم يذكر أحد منا شيئا . وسأل عددا من تلاميذ الفصل واحدا واحدا فلم يذكر أحد منهم شيئا . وبعد أن نفذ صبره طلب تلميذا كان من التلاميذ المشاغبين أن يتبعه الى حجرته . وذهبا الناظر أولا ويتبعه التلميذ المشاغب وكان ضخم الجثة كبيرا ، ومشى وراء الناظر وسمات الاستهتار وعدم المبالاة تبدوا على وجهه . لم يسألنى الناظر عن الواقعة ولم يسأل كثيرين غيرى ، ولكنه سأل البعض فقط . وانتهى به الأمر الى أن يتهم التلميذ المشاغب وأنا لاأذكر اسمه الآن مع الأسف الشديد . وفى " فسحة الظهر " بعد تناول الغداء علمنا بأن العقوبة وقعت على المتهم الذى لم يفعل شيئا ، فما كان منى الا أن انتصرت له وأعلنت أن الذى فعل مافعل هو عبد الغنى قدرى . وعندما مثلت بين يدى الناظر ذكرت ذلك فى صراحة وكان أن أنقذ المظلوم وعوقب الفاعل . وكان من بين المدرسين " الشيخ على بدوى " الخطاط المشهور و " كامل افندى عطية " مدرس الرياضة والذى يدرس لنا "الخط الأفرنكى" ، ومدرس الديانة "الشيخ إبراهيم" و "أحمد أفندى على" الذى كان يدرس لنا اللغة الانجليزية فى السنة الأولى . وكانت هذه اللغة غريبة علىّ وعلى كل عضو من أعضاء الأسرة ابتداء من جدى وأبى وأمى وغيرهم . كان هذا الرجل ممتازا حقا . وكان أسلوب تدريسه اللغة أسلوبا فريدا . كنا ندرس حروف الابجدية وكأننا ندرس الاغانى . وكان هو الملحن والمؤدى وكنا نغنى الحروف حرفا حرفا غناء جماعيا . وكان هذا المدرس يؤلف تمثيليات قصيرة باللغة الانجليزية ويختار من يمثلونها منا وكان هو المؤلف والمخرج معا . وكانت الأناشيد التى يؤلفها عديدة وكلها باللغة الانجليزية نمثل معانيها ونحن نلقيها .

كان هذا الرجل مبتكرا ومن غير جدال كان يسبق زمنه . ولم أجد صعوبة فى أن أحفظ دروسى باللغة الانجليزية وحدى عندما أعود الى البيت . لم أطلب معونة من أحد فانه لم يكن يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك . ولم أطلب من أبى مدرسا يساعدنى على حفظ الدروس فقد كان يكفينى ماأتذكره من دروس أحمد افندى على فى الفصل . واننى أذكر صفوت أفندى الضابط الذى كان يحرم علينا اللعب فى أثناء الفسح . كانت العصا دائما فى يده اليمنى تضرب يمينا وشمالا سيقان كل من يحاول أن يجرى فى "الحوش" وقد نالتنى منه "علقه" بسبب ذلك ، وكنت كلما احتج ، وكنت أحتج ، زاد استعمال العصا على ساقى ، ولايمكن ان أنسى "عيسى أفندى" سكرتير المدرسة الذى كان له الفضل فى تدريبى على استعمال الشوكة والسكين فى تناول الطعام ، ومع ذلك فقد ظلمنى عندما ظن ذات مرة أننى أتحدث فى أثناء تناول الطعام ، فأخرج علبة "السجاير" من جيبه وكتب أسمى على ظهرها ، وكان هذا إيذانا بأننى قد عوقبت بعقوبة :

"خبز قفار وحبس آخر النهار"

كان ظالما عيسى أفندى هذا ، ولكنى لاأنسى له أنه عندما كنت أملأ "الاستمارة البيضاء" لامتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، نظر الى شهادة ميلادى قبل أن أكتب أسمى وأملانى اسمى ليكون "سيد عويس محمد" بدلا من "سيدمحمد عويس" فقد كان مكتوبا أمام أسم المولود "سيد عويس" وليس "سيد" فقط ، ولما كان اسم والدى "محمد عويس" فانه أكتفى بأن أكتب باسمى « سيد عويس محمد » ، ومنذ ذلك الحين وأنا أفعل ذلك ، وانا اكتفيت أحيانا أن أختصر الاسم الى "سيد عويس" فقط وهو اسمى المكتوب فى شهادة الميلاد أمام اسم المولد . وهنا يجب أن أذكر "طاهر أفندى" أحد المدرسين الذى كثيرا ماجمع منا النقود من أجل القيام برحلات التى لم نقم بها أبدا . وكذلك عم طه الذى كان مسئولا عن نظافة حجرة الرسم وتنظيمها وكثيرا ماكان يطلب

منا النقود لأنه كان دائما فى حاجة اليها .

وبفضل المدرسة الابتدائية ذهبت مع العديد من التلاميذ فى رحلة مدرسية لنرى "أبى الهول وأهرامات الجيزة" ونعيش يوما عظيما رائعا مازالت أثاره محفورة فى صدرى ولن تمحوها أبدا صروف الزمان . ياللروعة وياللعظمة . لم أكن أدرى حتى ذلك الوقت ، وكنت فى الثالثة عشر من عمرى ، أن هذه الآثار تحيا شامخة بين ربوع مصر . ولعل هذه الزيارة من وحى ناظر المدرسة حسن على الذى كان يهتم أهتماما خاصا بالتاريخ الفرعونى . وقد لخص هذا الرجل التاريخ الفرعونى منذ عهد "مينا" مؤسس أول أسرة الى الأسرة الثلاثين فى رسم بيانى على ورق أنيق . وأعطى لكل أسرة مسافة تدل على مدتها وكتب تحتها ملوكها وأهم ماقاموا به من أعمال . فكانت نظرة واحدة الى هذا الرسم تكفى لاستيعاب هذا التاريخ الطويل . وقد نال كل تلميذ نسخة من هذا الرسم نظير ثمن رمزى ضئيل . وكما ذهبنا فى رحلة أبى الهول والاهرام ، نظمت المدرسة لنا رحلة أخرى الى المعرض الزراعى الصناعى فى عام ١٩٢٦ . وفى هذا المعرض رأينا مصر الحديثة وهى فى خطواتها الأولى .

وفى أثناء الدراسة كانت الحياة السياسية فى المجتمع المصرى غير مستقرة . كانت ثورة ١٩١٩ قد قامت بقيام الشعب المصرى على قلب رجل واحد . وكانت فترة مابعد الثورة فترة لم تعرف الأستقرار ولكنها عرفت "مشروع ملنر" كما عرفت المفاوضات بين الزعماء المصريين والانجليز الغاصبين وفشلها . وعرفت كذلك نفى سعد زغلول للمرة الثانية ، ووضع الدستور (عام ١٩٢٣) وافتتاح البرلمان ، وحل مجلس النواب ، وقتل السردار (عام ١٩٢٤) .. الخ . وكانت الحياة المدرسية على الرغم من النظام الصارم الذى ألى حسن على ناظر المدرسة أن ينفذه بكل دقة تصطدم بهذه الأحداث . ولم يكن تلاميذ المدرسة أو اباؤهم او امهاتهم أو الكبار فى أسرهم يعيشون فى ذلك الوقت على هامش

الحياة فى المجتمع المصرى . بل كان الحديث عن هذه الاحداث لاينقطع فى المدارس ولا فى البيوت ولا فى الشوارع . وأننى أذكر فى خلال أحد الأعوام الدراسية وكان تلاميذ المدرسة يجلسون الى امتحان نصف السنة فإذا بمظاهرة كبيرة قوامها مئات الطلبة من المدارس الثانوية العليا تقتحم المدرسة عن طريق الباب بعد كسره ، واذا بهؤلاء المتظاهرين يملؤون حوش المدرسة الواسع . وقد أمرنا بأن نبقى فى الفصول . وعندما ألح علينا الفضول وكانت الفصول فى الدور الأعلى فاذا ببعض التلاميذ وأنا منهم يتركون الامتحان ويطلون على الحوش فيرون عجبا . كان الناظر حسن على عملاق المدرسة وجبارها فى وسط المظاهرة يحادث قادة المتظاهرين ويجادلهم وقد بدا أمامنا قزما . ولكن لافائدة لابد أن يخرج تلاميذ المدرسة متظاهرين ولابد من أن تتعطل الدراسة للمناسبة التى تظاهر من أجلها الطلبة الكبار . وعندئذ أمر الناظر بتعطيل الدراسة والغاء الامتحان على أن يخرج تلاميذ المدرسة مباشرة الى بيوتهم فهم مازالوا صغارا لايستطيعون أن يكونوا ضمن المتظاهرين يجوبون معهم الشوارع والميادين . ويومها كما اذكر خرجنا من أبواب سرية الى الشارع مباشرة . ومنها الى بيوتنا .

وفى خلال العطلة الصيفية . سنة بعد سنة . فى خلال الدراسة فى المدرسة الابتدائية ، وكانت أى هذه العطلة تبدأ فى شهر يونيو وتنتهى فى أخر شهر سبتمبر من كل سنة . كنت أذهب الى وكالة أبى بعيدا عن الحارة التى يقع فيها بيتنا لأكون تحت رعاية أبى مباشرة . وذلك أن الحارة كانت مرتعا لى ولأصدقائى فى خلال السنة الدراسية فى أيام الخميس والجمعة . نلعب الكرة "الشراب" أو نتبادل الأحاديث أو نمارس اللهو البرىء . وكان هؤلاء الأصدقاء كلهم من العمال الصغار . منهم الذى يمارس صناعة الحدادة ومنهم الذى يعمل سروجيا فى القلعة . ومنهم من يعمل فى صناعة الميكانيكا . كانوا أو معظمهم أكثر حرية منى .

فهم يجوبون الشوارع الى وسط المدينة فى طريقهم الى أعمالهم ، وهو يذهبون الى دار السينما ، "دار سينما أولومبيا" أو "دار سينما ايديال" فى العتبة الخضراء . ويجىء "رمضان" أحدهم وهو ابن أم على نبيهة زوجة الحانوتى التى تسكن فى أحد حجرات بيت جدى لأمى . وتراه يحكى لنا عن الافلام ويذكر أسماء مثل "شارلى" و "زوجوتو" و "ايدى بول" التى لم أكن أعرفها . وتراه أحيانا يقلد شارلى وهو يمشى . وقد نجحت فى تعلم ركوب الدراجة دون مأذن من أمى أو من أحد غيرها . وكانت فرصة للمتعة والانطلاق . وكانت الحارة لى امتدادا لبيتى . فأنا عند الجيران أعامل كواحد من أبنائهم وكنت أشعر بأن أمهاتى ليست فقط أمى وزوجة عمى محمود وزوجة عم أبى أم حسين سكينة . بل أيضا خالاتى غير شقيقات أمى وخالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى فضلا عن "أم شعبان" الذى يملك ابنها المنزل الذى تعيش فيه معه ومع زوجته وأبنائهما . وكانت زوجة "الحاج شعبان" أيضا أم لى . وكذلك أخت "الشيخ عبد الغنى" شيخ معهد طنطا الذى يملك منزلا فى الحارة أيضا ويتركه لأخته الأرملة وأبنائها ، وكان لايأتى اليه الا فى الاجازة الصيفية . وكذلك "الست أم أحمد العسيلية" وهى أرملة تعيش وحدها وتكفل ابنها وابن اختها الذى كان فى سنى أو أكبر قليلا وبدأت صحبتى ثم صداقتى بابن الأخت "محمد بدر" منذ ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور . كنت أدخل فى اى بيت فى الحارة أجد أما ، أطلب أن أشرب فيلبى طلبى ، واذا جعت طلبت "لقمة" فأعطى لقمة . وكان يفعل أبناء الحارة مأفعله وتلبى طلباتهم فى حب وحنان . كان التكافل الأجتماعى فى هذه الحارة سائدا . وكان من يسكن فى هذه الحارة فى ذلك الحين يسكن فى بيت يملكه ، سواء كان هذا البيت صغيرا أو كبيرا .

وفى أثناء الاجازة الصيفية انتقل الى بيئة ثقافية اجتماعية أخرى . ولكنها تشابه البيئة الثقافية الاجتماعية التى تعكسها الحارة التى ولدت فيها ونشأت . ولكن الاختلاف فى نوع السكان .

وفى العلاقات الاجتماعية التى تربطهم . كان أغلب السكان فى البيئة الثقافية الاجتماعية التى تقع فيها "وكالة" أبى من أبناء البلد ومن بنات البلد . وكان بعض السكان أتين مهاجرين من الريف القريب من القاهرة . وكانوا كما كان سكان الحارة . كلهم . من المسلمين ، وان وجدت استثناء بعض الاحيان . كان معظم سكان حى السيدة عائشة وحى الزرايب وعرب يسار والذرعى (نسبة الى سيدى الاذرعى) وباب القرافة وقره ميدان والمحجر . وهى الأحياء التى كانت تحيط بالوكالة التى يتاجر فيها ابى ويقوم بإدارتها . من أرباب حرفة "المعمار" ، كان جبل المقطم قريبا فكان منهم الحجارون ، وكانت الحجارة فى متناول اليد فكان منهم البناؤون . ومع هؤلاء كان النقاشون والمبيضون والمبلطون والنجارون . ومن السكان من كان يعمل فى الخدمات التى تتعلق بهذه الأعمال التى توفر حاجاتهم كتجار بقالة وأصحاب مقاهى . وكان من السكان من يتعاطى مهنة "التربية" ومن يقوم بخدمات الأعداد لدفن الموتى . ومن يبيع الخضار واللحم والفاكهة . كانوا يكوّنون مجتمعا محليا . فهم يعيشون فى بيئة جغرافية معينة . وهم يحاولون تحقيق أهداف حفظ النوع ويحيون فى مستوى معاشى لائق . وكانوا يعيشون بالضرورة فى جماعات . وكانت لهم عاداتهم . وقيمهم ، ومثلهم العليا . التى يبثها فى العادة فيهم ائمة عدد كبير من المساجد أو كانوا يتوارثونها ثقافيا جيلا بعد جيل . أما أعيانهم أصحاب الكلمة العليا فقد كانوا يعدون على الاصابع . كان أشهرهم أرباب عائلات أبو الدبل وراشد والقط ومحسن (شيخ الآمامين الشافعى والليثى) واسماعيل عمران . وكان هؤلاء الاعيان أعيانا لأنهم أغنياء وأقرب الناس الى أصحاب السلطة والنفوذ سواء كانوا من المصريين أو من الانجليز .

وكان يحلو لنا نحن الصبيان . وبخاصة هذه الفترة من عمرى التى كان ابى يبيح لى فيها أن أختلط بأندادى على اختلافهم . أن نلعب الكرة فى "قره ميدان" أحيانا . أمام سجن مصر . أو فى

القرافة حيث السكون الأبدى ، الذى كان يقطعه أصوات المشيعين والمشيعات لاحدى الجنازات . أى حيث يوجد الموتى فى مقابرهم . كنا نختار مكانا فسيحا لايكون فيه مقابر لاحد ونلعب ماوسع لنا وقت أن نلعب . وبدا لى أن الموتى المدفونين والجنازات التى لايمر يوم واحد الا ونشاهد منها أكثر من واحدة ، فى أثناء الصلاة على الميت بجوار ضريح السيدة عائشة النبوية . أو بعد ذلك فى أثناء الدفن وبعد الدفن . بدا لى كما بدا لزملائى بمرور الزمن أن الامر عادى . وهذا شىء متوقع . وقد تأكدت من ذلك عندما كنت فى أثناء احدى سنين الدراسة كلما ذهبت الى المدرسة وكلما عدت منها الى البيت وأنا أسير فى شارع الصليبة وفى شارع الركبية حتى مسجد "السيدة سكينة" ، التى كان يقع بجواره مسجد "السيدة رقية" . ومسجد "شجرة الدر" كنت أمر على هياكل عظم إنسانية على طول الطريق حيث كان العمال يحفرون لأول مرة توصيل المجارى فى هذا المكان . كانوا كلما حفروا أخرجوا هياكل عظم انسانية . كان أصحابها الموتى مدفونين فى مواضع الحفر . لم أكن أشعر بشىء غير عادى . ولم يفعل ذلك الناس من حولى . وكانت الحوانيت فى الطريق مفتوحة ويأتى اليها روادها يشترون ماطاب لهم من مأكل أو مشرب . كان منظر هذه الهياكل يوحى بالتفكير مافى ذلك من شك . وكان يجعلنى أنظر الى الحياة وكأنها سراب وان محاولة التكالب عليها هى من قبيل عملية " قبض الريح " . ولكنى فى الوقت نفسه كنت أسير فى الطريق مع السائرين ، كما كنت ألعب الكرة فى قرافة " الزرعى " مع اللاعبين . وهنا تحققت عندى فكرة " الحياة اقوى من *الموت* " وأن الموت على رهبته لن يقف فى سبيل حياة الآخرين .

ولم يكن ملعب " الزرعى " الملعب الوحيد الذى كنت وأصدقاء اللعبة فى حى السيدة عائشة والأحياء المجاورة نلعب فيه الكرة . بل كنا نلعب كما ذكرت فى الأرض الفسيحة فى " قرة ميدان " بجوار سجن مصر . وكنا نلعب أيضا فى ارض أخرى بجوار سور

القلعة بجوار حى " الأبجية " . وفى ذات يوم بعد أن لعبنا واشتد بنا التعب بدأنا العودة الى قواعدنا فاذا نحن نرى بعض نساء الحى واقفات شبه عاريات تحت سور القلعة والجنود الانجليز يطلون عليهن من أعلى . كان النصف الاسفل من اجسامهن عاريا تماما . وكانت كل واحدة منهن تضرب ساقيها بيديها وماتحت الساقين ومابينهما صانحة " هالوجونى جيفت مونى " . " هالوجورج جيفت فود " والانجليز يضحكون ويهللون ويقذفونهن ب " البقسماط " أحيانا وب " السليقة " أحيان أخرى . وكان لهذا المنظر اثر فى نفسى ونفوس من كانوا يلعبون معى من الصبيان . ولم نجرؤ على أن نفعل شيئا الا أن نقذف هؤلاء النسوة بالحجارة حتى مشين من أمام أعيننا يجرين وراءنا فلم يستطعن لأننا كنا أسبق منهن وأسرع . كان هؤلاء النسوة يمثلن حالة الناس فى حى الخليفة فى تلك الأونة من حيث الضنك الذى يعانون منه . والبطالة التى يواجهونها باستمرار . فهم أو معظمهم أولا وأخيرا " أرزقية " ينتظرون العمل فلا عمل . وان جاء العمل فانه يجىء متقطعا . وفى العشرينات فى النصف الآخير منها كانت الظاهرة أوضح . فالكساد كان يضغط على أنفاس سكان الحى من العمال . واننى أذكر أن عددا كبيرا منهم ممن كانوا يشتغلون فى صناعة " لف السجاير " قد أخرج من العمل عنوة . فقد حلت الآلات المشكلة دون الحاجة اليهم . وتعاطى هؤلاء أو معظمهم أعمالا لاتمت بمهنتهم بصلة . فمنهم من كان يبيع السجاير . ومنهم من كان يبيع " نبوت الغفير " وهو يمثل الحلوى التى كان يهوى أكلها أطفال الحى . ومنهم من كان يقلى السمك ويبيعه وتعاونه فى ذلك زوجته وبناته . وقد رأيت أخرين بدأوا يبيعون الخبز مجرد الخبز ليكسبوا مايسد رمقهم .

ولم أكن طوال الوقت فى أثناء فترات الاجازة الصيفية ألعب الكرة الشراب . بل كانت لى اهتمامات أخرى . منها اننى كنت أقرأ بعض الكتب والمجلات التى كان أبى يقتنيها ومنها كتاب الطهطاوى

"تخليص الابريز" ومنها مجلات مثل "المقتطف" ومجلة "الأستاذ" . هذا فضلا عن الصحافة اليومية التى كان ابى يحرص على قراءتها يوميا . ولن انسى ماكان يحدث لى فى بعض الاحيان . والمعارك السياسية بين سعد زغلول وعدلى يكن على اشدها . فأجدنى أمام حلقة تضم أكثر من عشرة من الرجال ومع احدهم الجريدة اليومية . وكان هؤلاء يجلسون امام حانوتى العطار الذى يديره عمى وهو على مسافة ليست بالبعيدة من وكالة ابى . اجدنى أمام هؤلاء عندما ينادى على الرجل الممسك بالجريدة وانا أسير امامهم قائلا :

"سيد افندى احنا منتظرين"

وكنت اتوسطهم قارئا لهم مايحلوا لهم أن يطلبوا قراءته أو مايحلو لى أنا قراءته . وكانوا وهم رجال كبار ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير أحيانا . وكانوا أحيانا أخرى يظهرون الأعجاب بالاشارة أحيانا وبالكلام احيانا أخرى لما يستمعون اليه . وانا بينهم كأنى قزم صغير بين عمالقة . وكنت ارى من بعيد ابى وهو ينظر الى وعيناه تنمان عن الشفقة وكأنها كانت تدعو لى الوقاية من شر الحاسدين . ومن هنا أحسست بالظلام المعنوى الدامس الذى كان يعيش فيه هؤلاء الناس . كما أحسست بالجهود المضنية التى يبذلونها من أجل ادخال شعاعا من النور لكى يبدد هذا الظلام . كانوا والملايين من المصريين يريدون أن يعرفوا مايدور حولهم من حوادث مصيرية . وكانوا يتلمسون فى سبيل هذه المعرفة الطريق . وكأن لسان حالهم يقول "من سار على الدرب وصل" . ولم أكن أحس بشىء من الغرور ولكنى امنت بقيمة المعرفة وقداستها واثارها وأيقنت ان المعرفة هى السبيل ليتسلط الانسان على الظواهر الطبيعية منها والاجتماعية . ومن ثم فهى سبيل التحرر من القيود المعنوية التى تشل التفكير السليم . ومن ثم فهى نقطة البداية للحرية التى لايبقى الانسان انسانا بدونها ابدا .

ولعل ابى لكى يتفادى قيامى بهذا الدور قد دفعه الى أن يدعونى فى أثناء العطلة الصيفية التالية أى فى صيف عام ١٩٢٤ أن التحق بكتاب الشيخ طه كى ازداد لونا من المعرفة لعلى أن اتذوقه واستسيغه . فذهبت الى كتاب الشيخ "طه يوسف" وهو فى نفس الحى . وفيه عشت قريبا من ابناء الطبقة الكادحة حقا . كانوا يلبسون "الهلاهيل" وكانوا حفاة ، وكان اباؤهم وأمهاتهم يفعلون ذلك فعلا . وكنا نقرأ القران فى معظم الأحيان وكانت سنى قد بلغت الحادية عشرة فاستطعت أن أحفظ "اجزاء عم وتبارك وقد سمع" حفظا وترتيلا . وكلما طلب منى الشيخ طه أن اقرأ كان يقول لى بعد الانتهاء :

"أنت جيم" ثم يتبع ذلك بقوله "يعنى جاموسة" أو بقوله "يعنى جحش" أو بقوله "يعنى جدع" . وكان الشيخ طه رجلا عاديا : لم يكن كفيفا وكان يلبس الجبة والقفطان فضلا عن العمامة والمركوب الاحمر . وكان موضع احترام ابى ورجال الحى . وكانت فرصتى كبيرة جدا لكى أعيش بين التلاميذ الصغار وكنت صغيرا مثلهم . وقد كبروا معى فاستمرت الصداقة ، واذكر منهم الكثير عندما صاروا رجالا ذوى حيثية فى المجتمع المحلى الذى يحيط بوكالة أبى وحانوت عمى محمود وحانوت عم أبى مصطفى . ومع كل ذلك فاننى ابيت الذهاب الى كتاب الشيخ طه فى صيف عام ١٩٢٥ . واقترح على أبى أن أذهب الى مدرسة ابتدائية أهلية تقع فى شارع محمد على وهى "مدرسة حسن المسرات" . حتى تكون الفرصة لدى لأشغل وقت فراغى فى مكان يساعدنى على التأهيل للحصول على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية فى عام ١٩٢٦ . وقد وافقت على ذلك . وسعدت بهذا الاقتراح . ولكن عندما ذهبت الى هذه المدرسة لم أجد المستوى العلمى الذى يفيد أو يضيف الى معلوماتى شيئا . فابتأست من هذه النتيجة ولكن عوض ذلك اننى كنت أسير فى الذهاب وفى الاياب فى شارع محمد على وكنت آخذ الترام أحيانا وفى الغالب كنت أفضل السير على الاقدام .

فأرى الاعلانات عن المسرحيات فى مسرح رمسيس مثلا . ولاول مرة قرأت اسم "يوسف وهبى" واسم "روز اليوسف" وايقنت ان هناك مسارح أخرى غير مسرح "على الكسار" أو مسرح "الحلو" المتنقل الذى كان يأتى الى حى الخليفة مرة فى كل عام او فى كل عامين .

وهكذا قدر لى ان أكون فى أوقات فراغى فى أثناء السنة الدراسية مع لداتى من أبناء "زقاق الشراقوة" و" شارع البقلى " وأن أكون فى أوقات فراغى فى أثناء العطلة الصيفية مع لداتى من أبناء " السيدة عائشة " و " الزرايب " و" باب القرافه " وكان هؤلاء الرفاق من الذكور عادة ولم يكن الفرق بينهم اقتصاديا شاسعا . وأن كانت القيم السائدة فى الحى الذى يحيط بالبيت تختلف عنها فى الحى الذى يحيط بالوكالة . كنا نسمع" سب الدين " طوال الليل والنهار فى الحى الثانى وحتى فى أثناء ليالى وأيام " شهر رمضان المعظم " . كان الناس فى هذا الحى اناسا شتى . وهم وأن تباينوا من حيث مكان منبتهم فهم متقاربون من حيث النظرة الى الحياة والى الموت والى الناس والى بعضهم بعضا . وكان أبناؤهم على شاكلتهم ومنهم اصدقائى . ولكنى كنت حريصا على أن لاأقلدهم وبخاصة عندما يشتم بعضهم بعضا أو يشتم بعضهم الاخرين . كانوا " عفاريت " . وحتى الصبى الكفيف " الشيخ مليجى " كان يمثل " الوابور " والاولاد الحفاة يمسكون ذيل "جلابيته" وكل واحد يمسك جلابية الآخر وكانهم العربات يمرقون فى الشارع وكان الوابور " لايبالى بشىء " أو بانسان وهو يجرى وكانه الصاروخ . وكنت تراه يترنم قائلا " ياوابور يامولع " وباقى الاولاد " " العربات " ينشدون وراءه نشيدا جماعيا قائلين " حط الفحم " أما أولاد حارتنا فكانوا صبيان حرفيين " صنايعية " . كنا نلعب معا الكرة الشراب أحيانا او كنا نلعب " البلى " أو كنا فقط نغنى غناء جماعيا ولم يكن أحد يجرؤ على أن يسب أخاه سبا مقذعا أو أن يتجاسر على أن يسب

" الدين " . فالحارة فى ذلك الحين كانت عبارة عن ستة بيوت يملكها الذين يسكنونها . وكان سكان الحارة يعرفون بعضهم بعضا ويتبادلون الاحترام والمودة . وكانت الحارة تجتذب أحيانا أولادا من الحوارى الأخرى مثل " حارة التاسة " و" عطفة الدقاقين " و" حارة المشرقى " وغيرها . كانت الحارة تمثل لهم مكانا يستطيعون أن يلعبوا فيه " البلى " أو " الكرة الشراب " . وكان هؤلاء أولاداكبارا . وكنا أنا وزملائى نلعب فى هذه الاثناء دور المتفرجين . نشاهد ونتعلم ونحن نشاهد مانشاهد .

والبنات فى المرحلة الى كنت أمر بها وبخاصة فى عام ١٩٢٦ لم يكن لهن دور كبير فى حياتى ، وأن كن موضع اهتمامى فى بعض الاحيان ، وبخاصة البنات اللاتى كن يعشن حول" وكالة " أبى . فكانت هناك " حميدة " و" فاطمة " و" حياة " يجتذبن انظارى فقد كنت محط الانظار فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية ، ولكنى كنت اذكر دائما نصيحة أمى التى كانت تحذرنى من أن " تضحك " علىّ " احدى البنات " . وكنت اعدها بأن ذلك لن يحدث ابدا . ويبدو اننى فى هذه السن وحتى فيما بعدها لم اهتم كثيرا بتوطيد علاقة مع بنت من البنات ، كنت اعيش مع البنات فى أحلام اليقظة نعم ، ولكن يبدو أن حب أمى وحب خالاتى غير شقيقات أمى وحب النساء اللاتى كن من حولى من غير هؤلاء قد أشبعنى واعطانى ماكان يكفينى حتى تزوجت . وقد تزوجت مبكرا . وقد اعطانى هذا الحب فضلا عن حب زوجتى لى ماكفانى بعد ذلك حتى بعد أن سافرت الى أوربا والى الولايات المتحدة مرات ، وكنت وحدى . لم أبدأ الارتباط باحدى بنات الجنس الآخر أبدا ، وأن حدث الارتباط فكنت أهرب اذا أحسست بأنه قد بدأ يتوطد . لم تكن هذه هى القاعدة . فالمعروف ان القاعدة فى هذه العلاقات لها عادة استثناءات .

ومن الفروق التى يجب أن تذكر بين الحارة وسكانها وسكان الاحياء المجاورة والأولاد الذين كنت اقضى فراغى معهم وبين

سكان الأحياء التى كانت تجاور " الوكالة " أن ظاهرة وجود " الفتوات " من الرجال ومن النساء كانت موجودة فى الاحياء الاخيرة . كان هؤلاء الفتوات يخوضون المعارك مع فتوات " الخارطة القديمة " و" الخارطة الجديدة " و" عرب اليسار " و" المنشية " . وكنا ننتصر لفتوات حتتنا ونسير وراءهم عندما يقول القائل . الفتوة الأكبر عادة " اللى يعادينا مين ؟ " ونحن اى شبان الحى وشاباته واطفاله نردد من ورائه " نضـرب بالسكاكين " .

وقد حفرت ذاكرتي معركة وقعت امام باب القرافة " المعروف بباب السيدة عائشة " ، عندما وقع ضحيتها الشاب المشهور بانه لم يمرض فى حياته أبدا ، قتيلا كان اسمه " الاضعش " وكان شابا وسيما اسمر حسن التقاطيع تبدو عليه . على الرغم من شهرته كفتوة ، الطيبة . وسار أبوه فى الشوارع بعد ذلك يعدد صفاته وحسناته وكان يتعاطى مهنة " السقا " فيقول " داعمره ماعيى " ، " ده عمره ماشكا " .. يموت كده فطيس " وقد ثار فى نفس المعركة للاضعش " " عبد الشافى " احد فتوات الحى فقتل من قتله بالسكين وواحدة بواحدة والبادى أظلم . ولكن عبد الشافى قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة ، ومات فى السجن قبل أن يتم العقوبة . وكان يوما مشهودا عندما خرج من السجن جثة هامدة وشيعت جنازته ، وقد شيعها كل سكان الحى من رجال وشبان وأطفال ونساء وفتيات وشابات ودفن فى المساء فى ضوء نور " الكلبات " . وكان القتل فى الحالتين بالسكين الذى كان يحمله الفتوة أو من يدعى " الفتوة " فى العادة فى جراب خاص يربطه فى أحد ساقيه . كان الحشد الهائل من أهل الحتة وهم يشيعون جنازة عبد الشافى لايسيرون وهم صامتون بل كانوا يترنحون بصوت عال قائلين :

" يادايم هو الدايم ولادايم غير الله "

لم يكونوا يقولون جميعا ذلك بل كان قسم كبير منهم يترنم

اعضائه بذلك ، فاذا ماأكملوا العبارة بدأ أعضاء القسم الاخر يترنمون بنفس العبارة وهكذا حتى المقبرة التى دفنت فيها جثة عبد الشافى .

وفى شهر اكتوبر عام ١٩٢٥ هل العام الدراسى الاخير فى المدرسة الابتدائية . وفى خلاله أحسست بالضرورة القصوى لاجتياز الامتحان آخر العام حتى أحصل على الشهادة الابتدائية التى لم يحصل عليها حتى الآن أحد فى أسرتنا وربما فى " الحتة " كلها التى أعيش فى مجالها . وقد ساعدنى كما ساعد تلاميذ المدرسة الاهتمام الزائد من ناظر المدرسة ومدرسيها وبخاصة الذين يدرسون علوم اللغة العربية واللغة الانجليزية والحساب . كنا نذهب فى الصباح المبكر قبل بدء الدراسة اليومية بساعة لنحضر الدرس الخصوصى فى الصباح ، وكنا نمكث بعد انتهاء الدراسة اليومية لنحضر الدرس الخصوصى بعد الظهر . ولم يكن المدرسون يطلبون منا شيئا الا أن نحضر فى الموعد . وكان الاهتمام منهم أكثر أو يوازى الاهتمام من التلاميذ . اما الاحساس بالمسئولية الاكبر فقد كان من نصيب حسن على ناظر المدرسة . كان يحضر أحيانا بديلا لاحد المدرسين لكى يؤكد لنا أهمية الامتحان وضرورة النجاح فيه . وكان فى ضوء ثقافته يدرس لنا أحد العلوم السابق ذكرها . وقد كان فى اللغة العربية مبرزا وكان كذلك فى اللغة الانجليزية ، وكان كما كان يبدو لنا متخصصا فى علم الحساب . والاهتمام بهذا الامتحان كان مصدره البيت أيضا وبخاصة ابى الذى كان يشجعنى ويعدنى بأننى اذا مانجحت سيشترى لى "بسكليت" . وكان هذا الوعد يغرينى فاننى بدأت اركب البسكليت دون أن يعلم ، وأحببت فى ذلك الحين مغامرة هذا الركوب . وفى الشارع لم يخل احد الا أن يدعوا لى بالنجاح . من النساء أذكر "أم حبيبة" التى كان زوجها يربى "العجول" ويبيعها ومنهن كل قريباتى وكذلك "أم على نبيهة" التى كانت تفتح لى "الكوتشينة" أو تقرأ لى الفنجان "القهوة" السادة وتزف الى

البشرى فى كل مرة . وكانت أمى على رأس هؤلاء النساء . كانت تدعو لى بالنجاح وكانت تردف قائلة "شعر بدنى راضى عليك ياسيد يابن زنوبة إن شاء الله ناجح ناجح .. ." وكنت أقيم الصلاة فى تلك الأيام تقربا الى الله لكى ييسر لى النجاح وكنت أدعوه جل شأنه وأنا فى السجود فاقرب مايكون المرء من ربه وهو ساجد . ولن انسى أبدا الشيخ محمد بركات "بياع العيش" عندما نادانى واخذ بيدى ثم وضع يده على كتفى قائلا لى ناصحا :

"ياسيد اذهب وزور أولياء الله وعندما تزور ضريح الامام الشافعى اكتب له أن ييسر لك النجاح فى الشهادة"

وذهبت الى أضرحة أولياء الله فى الحى بدءا بضريح "السيدة عائشة" ومرورا بضريح "السيدة سكينة" وضريح "السيد رقية" وضريح "السيدة نفيسة" وقرأت لهن الفاتحة ودعوت الله بالنجاح . ولم أنس أن أقرأ الفاتحة لسيدى "أحمد البقلى" ولسيدى "الأربعين" فى شارع البقلى وادعو . وانتهى بى المطاف الى ضريح الامام الشافعى الذى بعد ان قرأت الفاتحة ودعوت وضعت قصاصة ورق كنت قد كتبت فيها :

"ياسيدى ياامام ياشافعى ارجوك ان تساعدنى على اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية بنجاح ولك الشكر

سيــد عويــس

وكان عم حسين "سركس" بائع الكسكسى يرجو لى دائما النجاح . كان هذا الرجل يتحدث معى باللغة الانجليزية فيقول مثلا " How are you Saied " وارد عليه بنفس اللغة . وقد روى لى من سيرة حياته انه كان فى "السلطة" . وكان يؤكد ذلك لى عندما كان يغنى الاغنية الانجليزية المشهورة فى أثناء الحرب العالمية الأولى :

It's a Long way to Tipperary .
It's a long way to go .

It's a long way to Tipperary ,
To the sweetest girl I know .
Good — bye piccadilly ,
Farewell leicester Square ,
It's a long , long , way to Tipperary ,
But my heart lies there .

ويعتبر هذا الرجل المستنير الوحيد بين الناس الذين يعيشون معه ويعيش معهم من أهل الحتة . ولكن بصره كان كليلا . فهو لايقرأ الا فى النادر . لم يكن مصريا مائة فى المائة بل كان من أصل شركسى . وكان يقول لى ضمن ماقال انه كان موظفا فى "البوستة" ولكنه استقال ليحصل على المكافاة . وهاهو ذا يبيع المأكولات لصبيان الحى وأطفاله . وهو راض بنصيبه . وكانت أمه تحضر اليه فيتحدثان باللغة التركية . أما زوجته فقد كانت مصرية مائة فى المائة . وكانت هى واولادها يعيشون معه على الطيب الطاهر وكل شىء نصيب . واننى أذكر عندما اخذته العزة يوما ما وذهب الى القسم ليشكو "محمد الضماتى" المبيض لانه شمته . وكيف يشتمه الضماتى وهو جاهل لايعرف الألف من كوز الدرة . فى حين أن عم حسين يعرف من اللغات ثلاث : العربية والتركية والانجليزية . وعندما أعتذر الضماتى لعم حسين وقبل رأسه سامحه فى الحال .

وقد لعبت "السلطة" فى حياة سكان حى الخليفة دورا بل أدوارا حاسمة ، كان الرجال والشبان وبعض الصبيان يجندون للذهاب كعمال فى الجيش الانجليزى فى أثناء الحرب العالمية الأولى . وقد كان "أسماعيل عمران" مندوب الانجليز لاداء هذه المهمة . وكان يرسلهم زرافات ووحدانا الى الميدان فى فلسطين وفى سوريا وفى لبنان (الشام سابقا) وفى بلاد آخرى منها فرنسا فى بعض الأحيان . كان هؤلاء المجندون لايعرفون من الحياة الا

أن يكدحوا من أجل لقمة العيش . وكانت أمهاتهم وزوجات بعضهم وأولادهم من ورائهم يتوقعون أن يرسلوا اليهم بعض مايكسبون . وكانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية من الصعوبة بمكان قد دفعتهم دفعا الى مواجهة المجهول فى بلاد الغربة . والواقع أنهم كانوا ومن يعولون دائما يواجهون هذا المجهول ولكن كان ذلك فى محيط من شبوا فى محيطهم . وكان الاغراء شديدا . فانتشرت الاغنيات التى تحبذ الخوض فى سلك عمال السلطة ، كما انتشرت الاغنيات التى تنعى الخوض فى سلك العمالة فى السلطة . كنا ونحن صغار نردد مثلا :

ياللى رماك الهوى حود على السلطة
يقلعـوك الهـلاهيل ويلبسوك ستـــرة

وكنا نردد أيضا :

ياعزيز عينى دانا بدى أروح بلدى
بلدى يابلدى وانا بدى أروح بلدى

وكنت أحس فى أثناء العام الدراسى الأخير اذا كنت فى البيت أو كنت فى الشارع بجوار البيت أو فى الشارع الذى عن طريقه أصل الى الوكالة ان الناس يحيطوننى بالحب والحنان ، وأن نظراتهم تتبعنى حيثما أكون وعندما أكون . وانتهى العام ، وذاكرت دروسى المذاكرة التى كنت اودها أن تكون . وذهبت الى الامتحان مبكرا . وكانت لجنة الامتحان بالقرب من ميدان السيدة زينب فى مدرسة "محمد على الابتدائية" ، فذهبت لزيارة ضريح "أم هاشم" لأقرأ الفاتحة وأدعو . ثم ذهبت الى اللجنة وعرفت مكانى وجلست لأجيب عن أسئلة الامتحان أياما معدودات . وانتهى الامتحان وعدت الى منزلى ومنه الى وكالة أبى أنتظر النتيجة . وكان الانتظار طويلا فاننى لم أكن أنتظر وحدى بل كان جمع غفير من الناس ينتظرون معى . ولست أدرى الآن هل كان انتظارهم من أجل شخصى الضعيف أو من أجل "خاطر" أبى أو كان هذا الانتظار من أجل أبى ومن أجلى . اننى لم أدخل قلوب الناس ولم

أكن أدرى كيف أعلم مايبطنون . وكان لى الظاهر من سلوكهم .

وجاءت النتيجة بالنجاح فقد نشرت فى الجرائد "نمر التلامذة" وكان رقم جلوسى من بين أرقام جلوس الناجحين . وعم الفرح قلبى وقلب أبى وقلب أمى وقلب المخلصين من الرجال والنساء الذين يحيطون بنا أو يعرفون عن أمر الامتحان شيئا . وقد نشر "الشيخ ابراهيم يوسف" خبر نجاحى فى جريدة "الاهرام" ومنحنى لقب "الأفندى" فى هذا الخبر . وأسعدنى جدا أن بارك جدى لأبى هذا النجاح . وكان جدى لامى سعيدا أعظم السعادة وقد عبر عن ذلك مرارا قائلا "ياسيد انت حتبقى وزير" . وأعفانى أبى من الذهاب الى كتاب الشيخ طه . وابتدأ يستعد لتفصيل البدلة الجديدة والحذاء الجديد وتحضير اللوازم الاخرى من ملابس داخلية وقمصان وشنطة من الجلد لكى أحمل فيها كتب المدرسة الثانوية . ولم تتغير علاقاتى بأصدقائى فى اللعب : خليل الشامى صبى البنا ، وعبد المنعم جبر الجزار . وهنومة الذى كان يساعد أباه فى بيع الفاكهة ، وعزت أخيه . وسيد بياع الجرائد ، وعبد الشافى الصغير الذى لامهنة له وغيرهم من أهل الحتة التى تقع فيها الوكالة . ولم تتغير علاقتى بأصدقائى فى اللعب فى الحارة وماجاورها التى يقع فيها بين الأسرة : رمضان صبى الميكانيكى ، وعلى شعبان الحداد . وعبد العال الحداد . وحامد التلميذ ، وأحمد المحدد التلميذ . والعربى التلميذ . وابن عم سيد الفران وغيرهم وغيرهم . ولم أشعر بشىء حدث لى الا اننى كنت فى قرارة نفسى سعيدا فقد تكلل مسعاى بالنجاح وتحقق لى أنه من سار على الدرب وصل . وجاءت لحظة اختيار المدرسة الثانوية . لم أكن أعلم ان حسن على ناظر مدرسة والدة عباس باشا الأول الابتدائية قد انتقل ناظرا لمدرسة "الالهامية الثانوية" وهى تابعة لنفس الاوقاف التى كانت ترعى المدرسة الأولى . والمدرسة الالهامية الثانوية أصبحت فيما بعد تعرف بمدرسة "بنباقادن الثانوية" . ولو كنت عرفت هذا الخبر لاصررت على أن ألتحق بالمدرسة الالهامية حيث نقل اليها

ليس فقط حسن على بل بعض المدرسين الاخرين ومنهم كما علمت متأخرا "احمد افندى على" مدرس اللغة الانجليزية الموهوب . ان المدرسة الابتدائية تركت تلاميذها الناجحين ليختاروا المدرسة الثانوية التى يرغبون فى الالتحاق بها . لم يحدثنا احد بضرورة الالتزام بالالتحاق بالمدرسة الالهامية ولاء منا لولاة الأمر الذين يرعونها كما يرعون المدرسة الابتدائية ، ولكنهم تركوا للتلاميذ الناجحين ولأولياء أمورهم الخيار . صحيح اننا ونحن فى المدرسة الابتدائية كنا نضطر للذهاب الى سراى "الوالدة" عندما تسافر الى تركيا وعندما تعود الى مصر نحييها بها ونشرب شراب الليمون ونهتف وهى تمر من أمامنا باللغة التركية :

" افندى ميز شوك يشا "

ولكن موضوع اختيار المدرسة الثانوية كان قد ترك للتلاميذ الناجحين ولأولياء أمورهم دون ما التزام أو اضطرار . وطلبت من أبى أن يوافق على التحاقى بمدرسة الخديوية الثانوية التى تقع فى درب الجماميز ، فوافق . وقد كانت هذه الموافقة بردا وسلاما على قلبى المثقل بالحيرة التى كنت أواجهها كلما أضطر الى الوقوف الموقف الهامشى الذى كنت أقفه كلما زرت مع تلاميذ المدرسة سراى الوالدة ونضطر جميعا الى أن نهتف ذلك الهتاف الأجنبى لحما ودما ولانستطيع المقاومة . ولن أذيع سرا اذا ذكرت أن السبب فى كل هذا هو التاريخ الذى كان علينا ان نستذكره وبخاصة ماتعلق بحقبة حكم الأتراك إبتداء من "سليم" ومرورا بالمماليك ثم أسرة محمد على لا رضى الله عنها . كنت كلما أتذكر مافعله سليم من تجريد مصر من علمائها وفنانيها وعمالها المهرة فضلا عن الكتب التى نهبها وغيرها من التراث المادى والمعنوى وأرسل كل شىء الى عاصمة ملكه أشعر بالغثيان . ومنذ تلك اللحظة وأنا أتقزز وأثور على كل ماهو انجليزى . ان سليم ومن جاء من بعده فى معظم الأحيان نهبوا مصر حضاريا أما الانجليز فقد وجدوا الأرض ممهدة فاغتصبوا مصر لقمة صائغة ولكن هل حسب

الناهبون والغاصبون حساب أصالة مصر وعظمة ثقافتها القديمة المستمرة المتجددة ؟ انهم مع الأسف لم يحسبوا لكل ذلك حسابا ، وبقيت مصر وأصبحوا هم ذكرى يذكرها التاريخ حياء وخجلا .

٤ ـ مسيرتي التعليمية : المرحلة الدراسية الثانوية

وكان من نصيبى أن التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية . أن القرار كان قرار ابى وكان قرارى أيضا هذا صحيح ، فقد كانت مدرسة الخديوية الثانوية مدرسة حكومية وكانت مصاريفها أقل وكانت سمعتها بين المدارس سمعة طيبة . وكان أول يوم ذهبت الى المدرسة فى أول يوم سبت من شهر أكتوبر عام ١٩٢٦ . كان يوما مشهودا فى حياتى ، فما أن دخلت من البوابة حتى رأيتنى فى دنيا غير الدنيا . مبانى ضخمة فخمة ، أحواش عديدة وكبيرة ، حدائق غناء ، ملاعب للجمباز ولكرة القدم . وأصبحنا طلابا بعد ان كنا تلاميذ . وفوجئت بأنه كان بيننا طلبة كبار يعتنون باطلاق شواربهم . وكنت والطلبة الذين التحقوا فى نفس العام بالنسبة لهؤلاء الطلبة كالأقزام . وذهبت الى الفصل فى السنة الدراسية الأولى . وكان أمامى خمس سنوات دراسية حتى أحصل على شهادة "البكالوريا" ، وكان علىّ وكل من كانوا فى السنة الثالثة أن يجلسوا امتحان "شهادة الكفاءة" آخر العام ، وبعد ذلك يتقرر فى ضوء ميول كل واحد أى من القسمين العلمى والأدبى يلتحق الطالب به .

وكان الطلاب الذين معى غرباء . لم يكن واحد منهم زميلا لى فى الدراسة الابتدائية وكانوا من فئات أو طبقات اجتماعية شتى . كان منهم الريفيون ، وكان منهم من المحافظات الاخرى ، وكان منهم المسيحيون ، وان كانت اغلبيتهم من القاهريين ومن المسلمين . لأول مرة أتعايش مع هذه الانواع من الطلبة . وأحسست أن المناخ الثقافى للمدرسة الخديوية يختلف عنه فى المدرسة الابتدائية . كان مناخا تتعايش فيه القيم المختلفة كما تتعايش فيه المبادىء

والعقائد وحتى المثل العليا المتباينة . ولم يكن الاختلاف فى القيم ولا التباين فى المبادىء والعقائد والمثل العليا اختلافا أو تباينا فاقعا . ولم يكن فى معظم الأحيان متناقضا ، ولكن كان اختلافا وتباينا من نوع ما . أحسست فى أول يوم فى حياتى فى المدرسة الخديوية اننى أكثر تحررا عن ذى قبل . وقد ظهر لى ان الطالب فى هذه المدرسة قد يدخن وان كان يفعل ذلك فى دورة المياه ، وهذا أمر كانت تأباه قوانين المدرسة الابتدائية وتحرمه تحريما قاطعا . وربما نال من يفعل ذلك الجزاء الصارم فيرفت أسبوعا على الأقل من أجل هذه الفعلة الشنعاء . لم أر فى محيط مدرسى المدرسة الابتدائية من يدخن أبدا . وان كنت ألاحظ كما كان يلاحظ غيرى أن مدرس اللغة العربية وكذلك مدرس الدين كانا يتعاطيان "النشوق" . أما مدرسوا مدرسة الخديوية فقد كانوا يتعاطون فضلا عن التدخين جواهر مخدرة أخرى وكان أبرزهم مدرس الرسم "حسين زكى" . وقد نال أعجابى أن يكون مدرس اللغة الانجليزية انجليزيا ، وأن يكون مدرس اللغة الفرنسية فرنسيا . وكنا نفهم القليل فى أول الأمر وازداد هذا القليل يوما بعد يوم وأصبحنا نفهم معظم ماكان كل من المدرسين يدرسانه لنا . وكان من الطلبة الذين زاملونى من أهل محافظة دمياط ذلك لان ناظر المدرسة "لبيب الكردانى" كان دمياطيا . كان معنا "طاهر الخشاب" و "عزو" و "على العزبى" . وكانوا يمثلون ثالوثا وان كان متباينا ولكنه ثالوث يظهر الكثير من السمات الدمياطية . كان أكثرهم جدية طاهر الخشاب ويليه عزو ثم على العزبى . وكان الأخير يتباهى بأبيه الشاعر الدمياطى المعروف . ولايمكن الا ان أذكر مافعله العزبى ذات مرة . كنا فى حصة اللغة الانجليزية وامتد الخلاف الذى كان بين المصريين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم ضد الانجليز الى الفصل فى حصة اللغة الانجليزية . كان المصريون يكنون كل بغض وكراهية للانجليز المستعمرين ولكل من يمت لهم بصلة . فظل الخلاف ينشأ من لاشىء أحيانا أو من أشياء لاوزن لها أحيانا أخرى . وحدث خلاف بين طلاب الفصل مع المدرس الانجليزى ،

وكانت الحصة آخر حصة فى اليوم الدراسى ، فما كان من المدرس الا أن أصدر "فرمان" لابد من تنفيذه وهو أن يكتب كل طالب جملة مائة مرة قبل ان يبرح الفصل فى سبيله الى الخروج للعودة الى منزله . ورضخ بعض الطلاب للفرمان وأبى اخرون أن يفعلوا ذلك وتركوا الفصل بعد انتهاء الحصة مباشرة . وجاء اليوم التالى فوجدنا أن الذين لم ينفذوا الفرمان قد مثلوا أمام الناظر لبيب الكردانى وكان ضخم الجثة ويبدو عملاقا . وانتهى الأمر معهم بتوبيخهم وانذارهم بالعقوبة الشديدة اذا فعلوا مافعلوا مرة أخرى . وفى التو واللحظة أمسك على العزبى قطعة من الطباشير وكتب على السبورة بيتا من الشعر كان :
" كفى بالأمس من شاهد ومبين قد أبعد البنات من صف البنين "

وترك لكل طالب أن يقرأ ماكتب وأن يستوعبه ثم يتأمله . وهنا كما فى كل مكان فى البيت وفى الحارة وفى الحتة وعلى صفحات الجرائد والمجلات توضع مكانة الأنثى المصرية فى الميزان وترجح كفة مكانة الذكر المصرى دائما .

واننى اذكر من زملائى فى المدرسة الخديوية أيضا "أحمد على فرج" فقد كانت المنافسة بينى وبينه حامية الوطيس . كان فى امتحان نصف العام قد يكون ترتيبه الأول ويكون ترتيبى الثانى ، وكان العكس يحدث تماما فى عام آخر . ولايمكن الا أن اذكر أننا فى امتحان الكفاءة فى آخر عام السنة الثالثة الثانوية عام ١٩٢٩ رسب احمد على فرج بين دهشة الجميع ثم نجح فى الملحق فى حين أن كثير من الطلبة الذين كان مستواهم العلمى فى العادة أقل نجحوا . وكان "فتحى الزاملى" أحد الزملاء الذين كانوا يتبادلون معى الرسائل فى أثناء العطلة الصيفية . كان طالبا رزينا ولعله كان أول من عزانى بعد وفاة والدى وانقطاعى عن الدراسة ، وكان من كرمه أن عرف عنوان "الوكالة" التى قمت بإدارتها بعد أبى وأخذ يشجعنى قائلا "الآن قد التحقت بمدرسة الحياة وهى

خير معلم" وقد قبلت هذا التشجيع وقتئذ على مضض وشكرته ثم انصرف ولم أره بعد ذلك ابدا .

وفى أثناء "الفسحة الكبيرة" كنا ننتظر طعام الغداء ونشغل الوقت إما بالحديث فى السياسة ، وكان "سعد زغلول" قد مات فى أغسطس عام ١٩٢٧ ، وحدث بعد وفاته ماحدث من أحداث بين الساسة المصريين وبينهم وبين الانجليز أو بين السراى . وسعد زغلول عندما مات كنت فى الأجازة الصيفية وقد دفن فى قرافة الامام الشافعى "بجوار الحى الذى تقع فيه "وكالة أبى" كانت الجنازة مهيبة رهيبة فى آن واحد ، أحتشد وراءها أناس وكأنهم بحر من الطرابيش فيه حيتان من العمم . كانوا شبانا ورجالا ونساء . كان فيهم الابيض والاسمر . وكنت اتفرج على الجنازة من عل . فانا ابن الحتة اعرف الاماكن المناسبة للتفرج فاخترت ماييسر لى هذا وأنا بعيد عن الزحام الشديد والسيل من الناس المشيعين الذى لاينقطع . كنت مسلحا ثقافيا وعاطفيًا بسياج مبادىء الحزب الوطنى فلم تكن وفاة سعد زغلول قبل ان اراها وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ذات أهمية كبيرة ، ذاكرا فى نفسى جنازة "جثة محمد فريد" التى لم يشيعها الا الوطنيون الحقيقيون وكانوا قليلون بعد ان تبرع من أجل احضارها من برلين أحد المواطنين الأحرار الكرام . ولكنى ماكدت ارى مارآيت فاذا بدموعى تنهمر مدرارا آسفا وحزنا على وفاة سعد زغلول . كان زعيما ما فى ذلك من شك . وكان انسانا من حقه ان يخطىء أحيانا وأن يصيب احيانا اخرى . وكان قبل ذلك وليس بعده من مريدى "الشيخ محمد عبده" .

والمدرسة الخديوية كانت مملوءة بالنشاطات العديدة منها النشاط الرياضى بألوانه . ومنها النشاط المسرحى ومنها النشاط الموسيقى ونشاط الكشافة وغيرها . وكان يستهوى الكثير من الطلبة فى أثناء الفسحة الكبيرة أن يتفرجوا على نشاط الجمباز الذى كان من عمده أحمد مرزوق وأخوه الأصغر فرحات مرزوق . كنا

نشاهد العابهم على الحصان وعلى العقلة وعلى المتوازيين . وكنا نعجب ونسعد فى آن واحد . وقد تستغرق المشاهدة فترة الفسحة كلها فى الكثير من الاحيان . وقد شجعنى أبى على الالتحاق بقسم الموسيقى الذى كنا ننخرط فيه نظير مبلغ رمزى ، ولم تكن الثقافة التى تعيش فى ظلها أعضاء الأسرة تسمح باقتناء بيانو . ولكننى أكتسبت حاسة التذوق الموسيقى الذى هو والقراءة أصبحا عزائى الأول فى حياتى بعد ذلك . ولم أشأ أن أقف موقف المتمرد أمام الأسرة فى ذلك الحين فقد جربت ذلك يوما ما وأنا فى المدرسة الابتدائية عندما علمت بأن "فحم المنقد" بعد اشعاله يخرج غاز ثانى أكسيد الكربون وهو غاز سام . وكان أهل البيت يستعملون فحم المنقد للتدفئة فى الشتاء ، فلما عدت الى البيت وكانت المناقد مشتعلة والجو مملوء بالغاز السام ، سارعت الى فتح "الشبابيك" ليخرج هذا الغاز فما الذى حدث ؟ أو ما كان الذى يحدث ؟ كان الصراخ فى وجهى احتجاجا من الجميع وكانت أمى بينهم ، وكادت زوجة عمى محمود ان تتطاول علىّ بالضرب . كنت فى الثانية عشرة من عمرى فى ذلك الحين . وأنا الآن كدت ان ابلغ الخامسة عشرة من عمرى . ولكنى آثرت أن أهادن فلا أطلب شراء بيانو لاتدرب عليه . وأنا الآن أقول لو أن موهبة الموسيقى كانت تسيطر علىّ لكنت فعلت المستحيل من أجل ذلك . وأنى تكون لدى هذه الموهبة وأنا أسمع الصراخ ليل نهار صراخ العراك بين نساء البيت أحيانا وصراع العراك بين نساء الحارة ، وأخيرا وليس آخرا نهيق الحمار الذى كان يقتنيه جدى لأبى لكى يركبه مارا على زبائنه فى طول القاهرة وعرضها ليحصل منهم نقود ماشتروه من غاز البترول باسمه من شركة "شل" الانجليزية .

وأنا لاأذكر من مدرسى مدرسة الخديوية الثانوية الا مدرسا واحدا هو "امبابى الكفافى" مدرس الرياضة الذى كان يحبنى وكنت أحبه والذى كان معروفا لدى الطلاب بأنه المدرس الذى لايبتسم الا مرتين فى أول العام الدراسى ومرة أخرى فى آخر العام الدراسى . أما المدرسون الآخرون فمع الأسف الشديد فاننى

لااذكر واحدا منهم ، حتى مدرس اللغة العربية فلا أذكره ، ومدرس الكيمياء العلم الذى كنت فيه مبرزا لاتسعفنى الذاكرة فأذكره . ولبيب الكردانى الناظر ضخم الجثة العملاق أذكره جيدا فقد كان فى أحد أيام الشتاء القاسية وكنت أسير فى الطابور الى الفصل واضعا احدى يدى فى جيب الجاكتة دون ماوعى ، فاذا به يصرخ صرخة مزعجة محتجا كان بسببها أن انتفض جسمى الغض وأحسست اننى ارتفعت من على الأرض هلعا ثم نزلت مرتجفا . لايمكن ان انسى لبيب الكردانى وقد حدث ماحدث فى ذلك اليوم البعيد فى الشتاء عام ١٩٢٨ أى عندما كنت أبلغ الخامسة عشرة من عمرى .

امتحنت فى صيف عام ١٩٢٩ امتحان شهادة الكفاءة وحصلت على هذه الشهادة . واخترت القسم العلمي لكى ألتحق بعد حصولى على شهادة "البكالوريا" بكلية الهندسة أو كلية الطب . وعم الفرح بالنجاح قلوب أبى وأمى وكل من فى الاسرة . وأصبح لى مكانا مرموقا فى محيط الأسرة . وقد فضلت القسم العلمى على مضض فأنا أحب الرياضة والكيمياء والطبيعة نعم ، ولكنى أحب أيضا التاريخ والفلسفة واللغة العربية وآدابها .. الخ وكنت مترددا وارى أن التقسيم تعسفيا . ان المعرفة كل لايتجزأ أو يجب أن تكون كذلك . ورغبتى فى الشمول كانت غالبة ، ولكن ماباليد حيلة . فقد كان علىّ أن اختار وترك أبى لى هذا الاختيار ، فهو فى ضوء ثقافته لم يكن ليرى أن يدخل فيما لايعنيه . وكان يعتبرنى وأنا فى هذه السن رجلا صغيرا . وكان فى ضوء ظروف صحته المتدهورة لايقوى على أن يبت فى أمر كهذا ولم يكن من أصدقائه أحد يستنصحه ولا من أعضاء الأسرة من يصلح لذلك . كان القرار قرارى وكنت أرنو الى المستقبل البعيد وأدعو الله بالتوفيق والسداد .

ومرت الأيام فى سرعة مزهلة وهانذا فى يوم السبت الاول من شهر أكتوبر عام ١٩٢٩ أدخل فصل السنة الرابعة الثانوية قسم علمى بمدرسة الخديوية الثانوية . كان الطلبة غير الطلبة الا

القليلين . وكان المدرسون غير المدرسين . وبدأ المناخ الجاد يخيم على نشاطات الفصل . يدخل المدرس الفصل فى الموعد المحدد ويخرج فى الموعد المحدد . وبدأت أحترم الجميع وأقدرهم الا واحدا . كان هذا الواحد مدرس الرياضة الذى لم اره من قبل . كان رجلا كبير السن . وكان درسه حكايات عن ماضيه وعن تلاميذه الذين أصبحوا منهم الوزير وأستاذ الجامعة فيما بعد . وكنت ارى أن هذا الكلام غير ذى موضوع وبخاصة فقد كان الدرس الذى يدرسه لنا درسا جديدا هو "حساب المثلثات" الذى لم نكن نعرف عنه شيئا من قبل . وكان يجارى هذا المدرس الكثيرون من الطلبة ، وكنت اتقزز عندما ارى أحدهم يقبل يده دون مادا عى الا ان يتقرب اليه . وكنت اتقزز اكثر عندما يمد مدرسنا يده عامدا متعمدا لكى يقبلها من يقبلها . وأنا لاأعرف سبيل التقرب لأحد الا الجد والاجتهاد فى تحصيل العلم والمعرفة والا فى تأدية واجباتى على خير وجه . هكذا وحتى الآن كان هذا سبيلى . وقد نجح . فأسمى يعرفه الكثيرون فى محيط الطلبة والمدرسين وغيرهم . وأبى هو أبى وأمى هى أمى . ولقد أمنت منذ ذلك الحين وحتى الآن بأن "الباسبورت" الى احترام الآخرين (حتى الأعداء) وتقديرهم ، مهما خانت الظروف ذلك ، هو العمل الجاد الخالص المخلص . وقد خانتنى الظروف كثيرا من أجل تمسكى بهذا الشعار ولكنى لم أحد عن سبيلى . وأنا لا أفعل ذلك كما يفعل المجرم المعتاد الذى يستعمل اسلوب ارتكاب جرائمه باستمرار لأنه اسلوب ينجح معه فى اغلب الاحيان ، ومن ثم تراه يقع فى ايدى رجال الشرطة . ثم يعود الى استعمال ذلك الأسلوب . فالقياس هنا مع الفارق . ذلك لأننى استعمل الاسلوب الذى ييسر التغيير الى الأفضل . تغييرى وتغيير ما حولى من أوضاع وتغيير من حولى من الناس الى الأفضل . فأنا أرى أن الزبد يذهب جفاء وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض . وقد اتخذت هذا الشعار وكان صديقى المغفور له ابراهيم المنوفى يشركنى فى ذلك . كان يعمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية الريفية فى قرية "شطانوف" فى جد واخلاص نادرين .

وكان يعمل لا يأبه نقد الناقدين أو حسد الحاسدين . فقد كان رائدا فى هذا الميدان وكان النقاد لأعماله والحساد له كثيرين . فكنا هو وأنا اذا ما تقابلنا نختم حديثنا الطويل بالعبارة التى اقتبسناها من القرآن الكريم وجعلناها شعارا لنا قائلين والرضاء يملؤ قلبينا وعقلينا :

"واما الزبد فيذهب جفاء" .

وكنا نؤكد على كلمة "جفاء" فنكررها مرة ومرات . ومن ثم كانت صلتى بالمدرس المذكور صلة غير وثيقة . فقد ضقت به ولم اتعاطف أبدا مع حكاياته وقصصه عن ماضيه وعن تلاميذه الذين أصبحوا وزراء ومديرين وأساتذة فى الجامعة .

وكانت نشاطاتى خارج المدرسة وبخاصة فى العام الدراسى ٢٩ / ١٩٣٠ فى أثناء العطلات الأسبوعية بخاصة وفى أثناء العطلات الرسمية مثل عطلة العيد نشاطات عديدة . كنت مع غيرى من الطلبة نذهب أسبوعيا الى السينما بعد ظهر يوم الخميس . فقد كانت "سينما أولومبيا" و "سينما ايديال" تحييان حفلات خاصة بالطلبة فى هذه الفترة . كنا نذهب متسابقين لكى نحظى بمشاهدة الافلام المعروضة لتكون مادة عندنا نتحدث عنها ونعلق عليها ونظهر مدى ثقافتنا السينمائية . وكان المسرح أيضا هدفا للذهاب اليه وبخاصة مسرح "فاطمة رشدى" صديقة الطلبة ، ومسرح "رمسيس" لنرى "يوسف وهبى" وأعضاء فرقته . وبدأ اقتناء الكتب المدرسية وشراؤها هواية لنا . وكنا نقرأ ونحاول أن نستوعب مانقرأ فى فهم شديد . برز اسم "المنفلوطى" وكتبه "العبرات" و "النظرات" . وعن المجلات بدأنا نقرأ "اللطائف المصورة" بعد ان كنا نقرأ "مجلة الأولاد" وكل ذلك فضلا عن الجرائد اليومية . فنحن الآن فى المدرسة الثانوية أى أننا فى البوتقة التى تهيئنا للدراسة العليا فى الجامعة . ومن حقنا ان نشب مواطنين وطنيين صالحين فالعدو مازال رابضا على أرضنا . بل هو بثقله رابض على القلوب والنفوس . وأصبحنا ونحن فى حمية الشباب نضيق ذرعا

بهذا الحمل الثقيل . ولاأنسى أننى فى فترة من فترات الحماس التى كانت تنتابنى حينا بعد حين أن أرحب بزيارة البرلمان المصرى ، وزرت أحد جلسات مجلس النواب . ورأيت الزعماء السياسيين وجها لوجه . وقد اغتبطت لرؤية "مصطفى النحاس" و "مكرم عبيد" و "النقراشى" و "أحمد ماهر" و "عبد الحميد سعيد" و "فكرى أباظة" وغيرهم . أسماء كنا نرى صورها فى الجرائد . وأشخاصها الآن ماثلة أمامى . أراها تتحرك وتتكلم أحيانا وأراها وهى صامتة أحيانا أخرى . ورأيت "مكرم عبيد" وهو ينزل من على درج فى المجلس فرأيت فى حركاته خيلاء لم يستسيغها قلبى ولاعقلى . وانه فى ذلك الحين كان فى قمته وكنت أود لو انه فى سيره أو فى نزوله من على سلالم الدرج اكثر تواضعا . ويبدو ان هذه سمة لكل من يرقى الى قمة القمم وبخاصة اذا كانت هذه القمة الوزارة . فقد رأيت الكثيرين بعد ذلك ممن تبوؤا كرسى الوزارة يفعلون ماكان يفعله مكرم عبيد . واستثنى من ذلك "الدكتور محمد صلاح الدين" الذى تبوأ كرسى وزارة الخارجية فى أوائل الخمسينات . كان هذا الرجل ناضجا الى درجة أنه لم يسعه الا أن يكون متواضعا .

وكشخص ولد فى أحد حوارى المدينة وعاش فى المدينة فقد كانت الدعوة الى قضاء أحد أيام عيد الأضحى فى قرية بالقرب من بلدة "الخطاطبة" مفاجأة سارة لى . فقد كان معظم العمال الذين يعملون فى وكالة أبى أو فى نشاطات التجارة عند جدى لأبى من الريف القريب . وقد دعانا بعضهم ممن ينتمون الى هذه القرية . كان من المدعوين زكى ابن عمى محمود شقيق أبى ومحمود ابن خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى وحامد (وكان أخرسا) زوج بنت عمتى أم بطة شقيقة ابى ، وكانت قد تزوجت منه قبل ذلك بعام ، وبقيت أختها رتيبه فى منزل الأسرة حتى تزوجت فيما بعد ، وكان معنا كذلك الطوخى وهو زوج الست "سنية" احدى قريبات زوجة عمى محمود أم على زينب . كنا خمسة ممن نشأوا فى حوارى

مدينة القاهرة وعاشوا فى هذه الحوارى وماجاورها من شوارع . انتقلنا ونحن نحمل ثقافتنا كل واحد على حدة الى ثقافة الريف المصرى لأول مرة فى حياتنا . ركبنا القطار ، ثم المعدية ، ثم الحمار ، الى أن وصلنا الى الدار . وفى أثناء الرحلة ونحن فى المعدية ينطلق الطوخى ويرفع عقيرته بالغناء :

"يابدر ياللى بنات خلفاك حلولك"
ماضقت فى كرب الا لما الله يحلولك"
"الشمس والقمر لاثنين سجدولك"
"يابدر"

وكان الطوخى يعيد ويبدى فى لفظ الاثنين مرات ومرات . وكان صوته مقبولا وكان يحلو لنا أن نردد معه بعض مايقول .. ثم يتناول الغناء موالا آخر :

"عينى رأت بنت بيضة والندا نازل"
"والشعر الأصفر على الخد الجميل نازل"
"طلبت منها الوصال قالت لى ياجدع"
"ارجع لتموت قتيل المحبة والندا نازل"

وأخيرا وصلنا الى الدار فوجدنا الطعام ينتظرنا . وجدنا ألوانا عديدة من طعام الريف الأصيل . الفطير المشلتت بالمسلى البلدى الساخن والعسل النحل الذى مازال بكرا لم تمسسه يد غشاش ، والجبن بأنواعها الحلوم والقديمة ، واللبن الطازج والقشطة الطازجة فوق كل ذلك . وكانت الكميات "وافرة" فأكلنا وأكلنا صوابعنا وراء ماأكلنا . ثم حان وقت النزهة فى حقول القرية ، وركبنا الحمير وكان نصيب كل واحد منا حمارا ، وكان يرافق كل واحد منا أحد شبان القرية وذلك لان ركوب الحمير لم يكن أحد عوائدنا . وجبنا الحقول وسمعنا صوت "الساقية" قبل ان نراها ورأينا "الطنبور" وهو يعمل . وشاهدنا الفلاحين المصريين الكادحين وهم مكبون على العمل والعرق يسيل من على الجباة تماما كما يسيل عرق عم عبد الفتاح عم أبى الذى يعمل فى الوكالة وهو

يطحن البن بقواه البشرية . ورأيت ذلك وعرفت أن الكادح فى المدينة مثل الكادح فى القرية الكل يعرق والكل عرقه يسيل من على الجباه وحول الرقاب مرورا بما وراء الآذان . ومن العجيب اننى رأيت هذا الكدح وهذا العرق ونحن فى أجازة العيد . فبدا لى أن العمل فى الحقل لايعرف الاجازات . وكنت اتوق لارى الجاموس والبقر فى الواقع الحى ، وأرى كيف تحلب الجاموسة أو البقرة وكيف يسيل اللبن من ضرعها كما تسيل المياه العذبة من الصنبور فى بيتنا . وكانت المرأة الفلاحة والفتاة الفلاحة تشاركان الرجال والشبان العمل . فى البيت تراها كادحة تماما كما تفعل أمى وكما فعلت منذ ان شبت عن الطوق وحتى الآن ، ويبدو ان سن السادسة عشرة قد فعلت فى جسمى ماتفعله عادة هذه السن فى جسم سليم . وكانت يد اية فتاة ريفية ترتعش كلما مست يدى . وكانت الفتيات ينظرن الىّ نظرة فيها معان معينة لاتغيب عن مشاعرى وحواسى ، فقد كنت اصغر الزوار سنا . وكان من بيننا ثلاثة متزوجين . أما الرابع فقد كان يشكو مرضا فى احدى عينيه . وكنت بينهم الفتى اليافع السليم ذو القسمات المتناسقة الصالح لاشباع شهوات العيون النهمة .

وكان يوما سعيدا سعيدا . كان من الضرورى أن تناول الطعام فيه مرة ثانية ، فقد ذبحت الفراخ : وجاء الثريد وفوقه كتلات من لحم الضأن لحم الضحية ، والفطير المشلتت ايضا ، ثم البطيخ بعد كل ذلك . واستعد كل واحد منا للعودة فقد أن الآوان وكادت الشمس الساطعة أن تغيب . وعدنا الى ركوب الحمير ثم المعدية ثم القطار ومنه الى بيوتنا . ورجعت وكان ابى فى المنزل نائما وكانت أمى فى انتظارى وفى قلبها الهواجس تروح وتجىء ورأتنى فهدأ روعها ، وذهبت بعد فترة الى سريرى لأنام فى الغرفة التى تضمنى مع أبى وأمى . ولم يحدثنى أبى فى أمر الرحلة الى الريف بشىء . فانا فى نظره قد اصبحت رجلا صغيرا وأنا فى كنت رفقة من يأمن لهم ويأنس .. ولعل السبب الحقيقى انه صار رجلا أخر غيره منذ

سنوات . فقد كان يعانى من المرض وكان لايقدر على مسألة أحد كما كان يفعل من قبل . وكانت الأيام أيام عيد "أيام مفترجة" فلاداعى لأن يكدر صفوى أو صفو أحد غيرى ونقشت زيارتى للخطاطبة حتى زرت بعد سنوات عشر قريتى "شطانوف" ثم "المنايل" واستعدت الذكريات وعانيت مما رأيت فى كل مرة أزور الريف فى هذه الزيارات وحتـى بعد هذه الزيـارات وحتى الآن .

وفى علاقات الأسرة تغيرت بعض الظروف منها زواج نفيسة بنت عمتى أم بطة ، ومنها سوء حال عمى محمود شقيق أبى واعتماد اسرته على دخل جدى ، ومنها اعتماد زوجة عم أبى مصطفى وبنتيها على دخل أبى ، ومنها ان عبد المنعم ابن عمى محمود انقطع عن الأزهر وذهب يعمل فى مجلة "اللطائف المصورة" فى وظيفة مصحح ، ومنها ان محمود شقيق نفيسة ورتيبة أبناء عمتى أم بطة بدأ يعمل تحت رعاية أبى فى الوكالة . وماتت خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى ، وبعد أن تزوجت خالتى حميدة غير شقيقة أمى مات جدى لأمى ، وفى يوم الخميس عند انتهاء امتحان نصف العام للسنة الرابعة الثانوية بالمدرسة الخديوية زفت خالتى عزيزة غير شقيقة أمى ، وكان أبى هو الرجل الكبير الذى يباشر المسئولية من أولها لآخرها . وبقيت خالتى زهرة تنتظر "العريس" وتخشى أمى قبل كل انسان أن يتأخر هذا العريس . كانت أمى هى الأخت وهى الأم لهؤلاء الآخوات غير الشقيقات . وأصبحت أمى بعد وفاة الأخت الشقيقة أم محمد نبوية الأم لابنائها محمد وعيسى ومحمود ويوسف . تعمل من أجلهم كل مافى وسعها فى حب شديد عميق لانجد له مثيلا الا نادرا . فقد عز على أمى وفاة هذه الشقيقة موضع سرها وحبيبتها التى لم تعوضها الا بعد ان رزقت بابنتى الكبرى "آمال" بعد ذلك بسنوات . فقد كانت الأخيرة على صغرها محط الآمال عند أمى وكان إنجابها تحقيقا لرغبة دفينة فى صدرها . وكانت آمال الصغيرة حلم أمى الذى تحقق ، ولكنها صغيرة وتركتها وهى يافعة .

ومرت الأيام مرور السحاب وجاء يوم امتحان نصف السنة فى شهر يناير عام ١٩٣٠ . وانتهيت من هذا الامتحان فى يوم الخميس ١٦ من شهر يناير عام ١٩٣٠ ، وحضرت مع أبى زفاف خالتى عزيزة التى تزوجت من مدرس لغة عربية يعمل فى احدى المدارس الابتدائية ، وقد تخرج فى دار العلوم ، وكانت عزيزة زوجته الثانية ، أما الأولى فقد طلقها لعدم التوافق . وذلك لأن اباه كان يعمل "حجارا" ولما نال "سيد محمود" وهذا اسمه الشهادة رأى أن يزوجه احدى بنات آحد المقاولين المرموقين فى حى الخليفة الذى كان يملك "قمينة" تعد جير البناء . فرحب به المقاول وزوجه احدى بنات أسرته . وعاشت الزوجة مع أسرة الزوجة مع أسرة الزوج ومن أعضائها اخت مطلقة أنجبت ابنة . وسكنت هذه الأسرة شقة فى احد البيوت التى بنيت حديثا فى حارتنا . شقة حديثة تليق بالمقام . وعاشت الزوجة حياة ضنك وعراك . وقد سمعتها تقول لاحدى قريباتى التى كانت تحادثها وهى مطلة من الشباك وكانت وحيدة فى تلك اللحظة ، سمعتها وكنت اراها وهى لاترانى تصف زوجها "سيد افندى محمود" بأنه "وردة حواليها شوك " وانتهى الامر بطلاقها اذعانا لرغبة الاخت المطلقة . وتزوجت عزيزة من هذا الرجل وكانت نصيحة أمى لها أن تصبر صبر المجاهدين فزواجها منه هى فرصة العمر ، فهو مدرس " قد الدنيا » وسنها يزداد عاما بعد عام . وفى اسرتها لايوجد مدرسون وان وجد حرفيون او تجار شرفاء . زفت خالتى عزيزة يوم الخميس بين سعادة الجميع وفرحهم . وجاء يوم الجمعة فأدى أعضاء أسرتها الواجبات التى تؤدى عادة يوم

الصباحية ، فهى أولا وقبل كل شىء يتيمة مات ابوها (جدى لامى) منذ عام ، وماتت أمها وهى صبية . وكان لأبى السهم الوافر فى أداء هذه الواجبات عن طريق أمى . وجاء يوم السبت ١٨ من يناير عام ١٩٣٠ . وخرج أبى فى الصباح كعادته قابل من قابل وتعامل مع عملائه ماتعامل ، وكان راضيا عن نفسه فقد ذهب الى "أمين الزينى" التاجر بحى بولاق ، وتيسر له أن يدفع قسطا كبيرا

من ديونه . فقد أصبح الزينى التاجر الوحيد أو كاد الذى كان ابى يتعامل معه ويأخذ منه البضاعة التى يحتاج اليها ويدفع له بعض ثمنها ، ثم يدفع الباقى كل أسبوع ، ويطلب غيرها ، وهكذا . كان مادفعه ابى للزينى ماجعله هادىء النفس غير قلق . ولهذا فقد كان يوم السبت رضى النفس . وكنت بدورى أرنو الى اجازة نصف السنة أرتع فيها وألعب وأجد وأمزج ، وربما أديت واجبى نحو أبى فأذهب الى الوكالة اذا رأى أنه فى حاجة الىّ .

وفى يوم السبت مساء عاد أبى كعادته . وكنت نائما . ولم استيقظ على أحاديثه مع أمى قبل أن أنام كما تعود على أن يفعل ذلك فى السنوات الأخيرة . كان يحدثها فى كل شىء وهى صامتة أحيانا أو وهى تتمتم بالدعاء له بالصحة والعافية أحيانا أخرى . وكان حديثه حديث المحب المخلص الذى رأى فى ضوء تجاربه المتباينة تجارب "السوق" أن الشخص الوحيد الوفى له هو أمى . فكان يريح اعصابه بالحديث معها عن الماضى البعيد وعن الماضى القريب ، وعما حدث له اليوم ، وعما يزمع ان يفعله غدا . وكان يحدثها شاكيا لها جدى ومافعله معه أو ماقاله له من قول تعبر عنه أمى بأنه قول "تقيل" . وكنت حين أستيقظ على هذه الأحاديث أسعد ولا اتململ ، وكنت أنصت الى مايقولانه احيانا وكان النوم يغلبنى فى معظم الأحيان .

أما ليلة السبت مساء فاننى استيقظت لا على أحاديث أبى مع أمى ، ولكن استيقاظى على صراخ وعلى أنات مكتومة ، صراخ أبى ، وانات أمى . وسمعت هرجا ومرجا فى الحجرة الضيقة التى ملئت بمن فى البيت من النساء وبعض الرجال والشبان . قمت فى فزع شديد . ووجدتنى ادفع دفعا خارج الحجرة التى كان يصرخ أبى من الألم فيها . ومالبثت ان سمعت صوته عاليا وهو يقول "يابنى" وكنت فى ذلك الوقت فى طريقى الى الدور الأعلى حيث يسكن جدى وجدتى لأبى . وقد فزعا فزعا شديدا . وجاء الطبيب

المعالج ولم يعالج بل ترك الحشد الذى أمامه هاربا . وأيقن الجميع ان القضاء قد حم ، وأن أبى قد اصبح ذكرى . ولكن أبى لم يصبح ذكرى عندى فهو معى فى كيانى أذكره فى كل لحظة تقريبا ، اذكر شهامته واسلوب حديثه ، كما اذكر تعاطفه مع المستضعفين من الأقارب ، فالاقربون كما كان يقول اولى بالمعروف ، وتعاطفه مع المستضعفين من الغرباء من أهل الحى من النساء ومن الرجال جميعا . وكانت "عيوشة" من عائلة "زردق" وهى عائلة نساؤها قبل رجالها من الفتوات ، فى أواخر أيامها مريضة بمرض "الاستسقاء" . وكان على الرغم من طول لسانها وقبح سريرتها يبادر أبى فيرسلها الى الطبيب ويدفع ثمن الدواء فاذا خفت وطأة المرض عنها بادرت بشتم أبى دون مادا ع . فهو عندها أى أبى اولا وقبل أى شىء "شبعة بعد جوعة" . ولم يكن أبى يأبه لما تقوله . واذا ماعاودها المرض يؤدى واجبه كأى رجل شهم فلا يلتفت الى الوراء ولاينظر الى ماضى وينسى كل مامسه منها من أذى . وكان أبى يردد دائما القول الذى كان يعتقد بصحته "دارى السفيه ولو بنصف مالك" . كنت أذكر هذه المواقف واكثر منها . فقد كان أول من دفع لمحمد ابن خالتى نبوية شقيقة أمى المبلغ الذى كان رأس ماله الأول عندما اعتزم بيع ادوات "المنى فاتورة" كالفانلات والجوارب والمناديل المحلاوى وغيرها . ليأكل من وراء ذلك قوت يومه ويسد بعض المصاريف التى كانت خالتى فى حاجة اليها . وأصبح محمد بعد ذلك "الشيخ محمد" فقد انخرط فى سلك دعوة "الشيخ محمود خطاب" ومن بعده "الشيخ أمين خطاب" ثم "الشيخ يوسف خطاب" اصحاب الدعوة الى العمل بالسنة المحمدية . كما أصبح الشيخ محمد يتاجر فيما بعد فى ضوء استقامته وجده وكفاحه فى عشرات الألوف بل مئات الألوف من الجنيهات . وكما فعل أبى ذلك مع "الشيخ محمد" فعله مع زوج خالتى "حميدة" الذى كان يمتهن مهنة "التنجيد" وكان يعمل أحيانا ولايجد مايعمله أحيانا أخرى . يسر أبى له ولزوجته شقة فى

أحد بيوت جدى لأبى بأجر شهرى بسيط يدفع أحيانا ولايدفع احيانا أخرى ، وكان يمد هذه الأسرة بحاجياتها الضرورية وبخاصة بعد ان أنجبت طفلة ثم طفلا . وكان عم "عبده عليوة" النقاش الذى كان انيس أبى فى وحدته ، وزميله فى الحزب الوطنى العتيد . كان ككل عامل فى أواخر العشرينات عاطلا معظم الوقت فكان أبى يضعه بكل رفق وحنان فى ظل جناحه ، فلا يجعله يحتاج شيئا . وكان من حسن تصرف هذا الأب انه كان يخلق لعم عبده العمل فى أحد بيوت جدى لكى يعمل فلا يشعر أنه يأخذ شيئا بدون مقابل . وبيوت جدى لأبى عديدة تبلغ العشرة بيوت . وفيها متسع لأعمال عم عبده عليوة ، وفيها أيضا متسع لأعمال "عم صالح" النجار أحد أصدقاء أبى الذى ترك مهنة النجارة الى ميدان آخر كان يلفت أنظار الناس وانا من بينهم . فقد كان يتاجر بعقول الناس فهو يستطيع ان يقوم بأعمال السحر العديدة ، وكان يحفظ العديد من الصيغ السحرية التى تلفت الانظار وتجعل الانسان أيا كان فى حيرة بين مصدق ومكذب . ومع ذلك فإن "عم صالح" هذا كان يقسم بأغلظ الايمان بأن كل مايقوم به هو فى سبيل تحقيق السلام والوئام بين الناس والأزواج والزوجات والآباء والابناء وبين الأصدقاء ، وأنه لم يفعل مافيه ضرر لاحد . فالله الذى وجهه الى مايقوم به جميل يحب الجمال . والفعل الجميل لاينتج شرا أبدا .

كان أبى فى كيانى وفى دمى ولم يكن عندى مجرد ذكرى فكثيرا ماكنت اضبط نفسى وأنا أقول ماكان يقول وأنا افعل ماكان يفعل وأحيانا كنت اضبط نفسى وأنا افكر كما كان يفكر . ومنذ اللحظة الأولى وبعد وفاته أيقنت هول ماسيحدث للاسرة . انها حتما ستتمزق أوصالها وقد حدث ذلك . انها حتما سيتفرق أعضاؤها شيعا وقد حدث ذلك . فى البيت احست زوجة عم أبى أم حسين سكينة أن السند الوحيد الذى كان لها فى البيت قد انهار . فما كان منها الا أن هيأت نفسها لما قد يحدث فقد كانت أكثر نساء أبناء الأسرة الكبار تعليما ، وكان مستوى ذكائها عاليا ، وكان سلوكها

متزنا واعيا . ومن هول الصدمة ماتت جدتى لأبى بعد وفاة أبى بأربعين يوما . وبقى جدى لأبى وحيدا تخدمه رتيبة ابنة عمتى أم بطه . وأصبحت رتيبة هى الكل فى الكل . تتحكم فى أسرة عمى محمود ، وكانت زوجة عمى محمود أم على زينب تشكو من تصرفاتها مر الشكو . فهى وزوجها وأبناؤها مازالوا يعيشون فى كنف جدى لأبى ، ورتيبة أصبحت بعد جدتى لابى هى المهيمنة على المصروف الذى يتركه جدى الذى بدأ صرحه يتهدم ان لم يكن قد تهدم فعلا . ألم يكن أبى الذى مات هو ابنه البكر وساعده الايمن والعقل الرشيد الذى كان يهدى سفينة الأسرة دائما الى البر السالم ؟ انه فقده فأحس بأنه فقد كل شىء . ومع ذلك فهو من أبناء البشر مازال يعيش للدنيا ويتمسك بها تمسك الغريق بكل ماتمسه يداه . انه يعلم العلم اليقين ان عمى محمود لايصلح لشىء الا أن يبعثر كل مايحصل عليه . فهو من الغباء الى الدرجة التى لايعرف من يفيده ومن يضره . كان لايعيش الا لكل ماهو محسوس ، للاكل ، لممارسة حقوقه الزوجية ، لتعاطى بعض العقاقير . ومابعد ذلك فلا يأبه له . مات سنده الوحيد هكذا أحس جدى بعمق وان ادعى غير ذلك فى ظاهر الامر . وهو يفعل ذلك لان زكى ابن عمى محمود يعمل معه وأصبح الآن ذا الحول والطول ، لايستطيع ان يعمل بدونه مهما كان يقترف من مخالفات . وعبد المنعم أخ زكى الاكبر اين هو ؟ انه ترك الأزهر وهو يعمل فى دار احدى المجلات الاسبوعية . انه دائما يطلب نقودا ولايذكر جدى أنه اعطى شيئا . واننى لاأنسى أنه عندما بشر ابن عمى عبد المنعم بالعمل فى هذه المجلة رأى أن يحصل على نقود ليشترى "بدلة أفرنجى" بدلا من العمامة والجبة والقفطان التى كان يلبسها عندما كان طالبا ازهريا . وقد تطوعت للقيام بمهمة اقناع جدى لابى لاحصل له على النقود المطلوبة . وقد اقتنع الجد ولكنه طالب بأن يأتى عبد المنعم ليأخذها بنفسه ، وقد ذهب فعلا وأخذ من جدى عشرة جنيهات ذهبية اشترى بها مايحتاجه من ملابس للوظيفة الجديدة . وجاء

دورى لكى أساعده على لبسها ولكى اربط له رباط العنق ، وماكان له ان يعرف عن ذلك شيئا ، تماما كما كنت افعل عندما لبست الملابس الافرنجية عند أول ذهابى الى المدرسة الابتدائية . وكما يدين الفتى يدان .

وبعد شهور من وفاة جدتى لابى ماتت عمتى أم زكية ، وأصبح عمى محمود مرشحا ليكون الوريث الوحيد لجدى اذا مات جدى قبل أن يموت هو . وفى لحظات انخفضت اسهم مكانة "رتيبة" ، وصارت زوجة عمى أم على زينب هى الملكة . ملكة الأسرة . ونبذت رتيبة نبذ النواة التى سارعت وقبلت الزواج بعد ان كانت رافضة ، من ابن خالتها "محمد البودى" ابن عمتى أم زكية . وكان زواجها صامتا حزينا . لم يفرح له أحد الا الذين يرون أن "ستر العرض" هدف نبيل شريف وبخاصة اذا كان هذا العرض هو عرض "ولية" مثل "رتيبة" يتيمة الأم والأب معا . صارت أصوات زوجة عمى محمود وزكى ابن عمى تجلجل فى أبهاء بيت الأسرة . وكانت لاتخلو من أوامر . وكنا أمى وأنا لانأبه لشىء مما يحدث أبدا . فنحن فى غنى عن كل عرض زائف . وأمى وأنا لن يضيعنا الله . وبقينا صابرين على بلوانا . لم نطمع أو نطمح فى ميراث فالقانون كان حتى ذلك الحين يمنع الحفيد من ان يرث حق ابيه الذى يتوفى قبل الجد . لم يبرز هذا القانون الى حيز الوجود الا بعد ذلك بسنوات . فحرمت من ميراث جدى لأبى . واصبح عمى محمود هو الوريث الوحيد لجدى لأبى عندما مات بعد وفاة أبى بعام أى فى غضون عام ١٩٢١ . ولعل هذا الموقف قد حز فى نفس أمى وبعض أهلها من المقربين وبخاصة أبناء خالتى أم محمد نبوية ، ولكنى كنت واثقا بأن البذور التى وضعها أبى فى قلبى ستثمر حتما ولن تموت .

وبعد وفاة أبى عاشت أمى ، وكانت فى الخمسين من عمرها ، فى معزل من الآخرين ، كانت فى وحدتها تبكى دائما واذا لم تبكى عيناها فان قلبها كان يبكى . كنت أحس بذلك أحساسا . فانا أقرب الناس اليها . وكانت تنظر الىّ وتقول دون ان تنطق بحرف كل

ماكانت تبغى ان تقول . وأنا أفهم ماتقول . فقد كان الأسى يملأ عليها كيانها . ولكن ماباليد حيلة . واستمرت أياما بل شهورا وهى تنفر من مقابلة جدى لأبى . فلم يرها بعد وفاة ابنه الا مرات قلائل ، كانت فى اثنائها لاتقف مع الواقفين أو الواقفات احتراما له . فكان يضطر الى الدخول عليها فى حجرتها فيجدها نائمة أو شبه نائمة أو تدعى النوم . وكان الرجل وقد هزته نكبته فى ابنه لايغضب قليلا أو كثيرا . ولكنه كان يواجه الواقع ساكتا صامتا . وكان موقفى من جدى لأبى موقفا مخالفا ، فقد اردت وانا ابن السابعة عشرة من عمرى أن اتعامل معه فى أدب كاذب . وكنت كلما انفردت به احاول اقناعه بأنه لم يكن جدى لأبى فحسب بل أصبح الآن أبى أيضا . وكان غرضى شخصيا بحتا . فقد قدرت أننى اظلم اذا لم أرث شيئا من نصيب ابى فى تركة جدى لو انه مات قبل أبى . فكنت أذكره بهذا الظلم اذا ماحدث . وكان الرجل صامدا كالجلمود لايعير لكلامى وزنا ، ورفض كل اقتراح من هذا القبيل رفضا قاطعا . وقد بدا لى أننى كنت الوحيد الذى حدثته عن هذا الموضوع ، ولكن الكثير من الأهل ومن الغرباء تحدثوا معه فى شأنه ، فكان يعد وفى نيته عدم تحقيق مايعد به . وكانت زوجة عمى محمود أم على زينب تلعب دورا كبيرا فى سبيل عدم تحقيق اى وعد من هذا القبيل . وكانت تحدثنى فى هذا الأمر بوجه مكشوف وتؤكد لى أننى احد ابنائها وأننى لايجب ان ألح على جدى ليكتب لى بيتا أو بيتين أو أقل من ذلك أو أكثر . فالرجل قد كبر وهو يعانى الشيخوخة وامراضها . وازعاجه لايفيد احد . وتأكدت من مماطلة جدى لأبى عندما طلب منى أن أصحبه الى "شركة شل" وذهبت معه ، وكنا وحدنا ، واذكر عندما قابل احد مسئولى الشركة قال له كاذبا اننى احد ابناء أبى التسعة وانه يكفلنا مع أمنا جميعا ، وأن مبلغ التأمين الذى وضعه أبى باسمه فى الشركة نظير مايطلب له ولعملائه من طلبات غاز البترول على الحساب ، وكان قدره خمسمائة جنيه مصرى فقط ، وهو الذى دفعه وليس أبى . وأنه نظرا للعبء الثقيل

الذى على كاهله بعد وفاة أبى يرغب فى سحب هذا المبلغ ويستلمه حلالا زلالا لنفسه . واذكر ان المسئول تحدث الى شخص امامى باللغة الانجليزية التى كنت اعرفها متسائلا عن حق جدى فى هذا الطلب . فقال الشخص المشار اليه ويبدو انه كان محامى الشركة ان هذا مستحيل ، لانه عندما سألنى عن عمرى باللغة العربية (المكسرة) قلت له سبعة عشر عاما ، وذلك لأن المبلغ الموضوع باسم أبى لايمس حتى أبلغ سن الواحد والعشرين . عندئذ يستحق ورثة أبى وهم أمى وأنا وجدى وجدتى أن يأخذ كل واحد منهم نصيبه . عرفت ذلك باللغة الانجليزية عند سماعى الحديث الذى دار بين مسئول الشركة ومن كان يبدو فى عينى انه محامى الشركة . وتأكد ذلك عندما وجه مسئول الشركة الحديث الى جدى قائلا له مضمون ماأفتى به الشخص الذى كان يبدو لى أنه محامى . قال لجدى ماقاله بلغة عربية "مكسرة" ، وكرر ماقاله أمامى أكثر من مرة لكى أكون على وعى من موقف الشركة من هذا الموضوع . وخرج جدى لأبى كسير الفؤاد ثم تبعته وسرنا على الأقدام فى شوارع القاهرة من مبنى شركة شل الذى كان يقع فى شارع الشريفين الى الحانوت الذى كان جدى يديره فى العتبة الخضراء . وفى خلال السير على الأقدام كنت أحاول أن أقنع جدى بترك هذا المبلغ لى ولاداعى لاقحام نفسه فى محاولة سلبه منى ومن أمى . فهو ليس فى حاجة اليه ، فى الوقت الذى نحن وأمى فى مسيس الحاجة اليه . فقال لى غاضبا وهو يترنح بسبب عوامل الشيخوخة التى يبدو انها برزت فجأة بعد وفاة أبى بعد ان كانت كامنة ، ماذا تقول ياسيد "دول خمسمائة جنيه مش خمسمائة فولة .. . هم خمسمائة فولة ... هم خمسمائة فولة" ، واخذ يكرر عبارة "خمسمائة فولة" وهو يهتز غضبا أو مرضا أو هما معا . عندئذ عرفت بأنه لافائدة من هذا الرجل . لن يلين قلبه ابدا . فهو قد عاش حياته من أجل النقود ومايمثل النقود فلن يتخلى فى أواخر عمره عنها . ولن يجبره أحد على فعل ذلك . وهنا رأيت العزيمة

تقوى فى كيانى وارادتى من أجل حياة أفضل اصبحت ارادة صلبة لاتلين . وتركت من ورائى القيام بدور المهادن أو المستكين . وعرفت قدر نفسى .. واكدت لها ان اعتمد عليها ولن يقف امامى عائق الا وقد حطمته . المهم فى الموضوع اننى منذ هذه السن الغضة لم يصدر قرار يتعلق بأمى أو يتعلق بى الا من ذاتى وكيانى . ورب ضارة نافعة .

وكذلك كان الحال بأمى فى علاقتها بزوجة عمى مخمود (سلفتها) التى كانت على وشك التربع على عرش الاسرة مع زوجها وأولادها . لم تكن علاقتها بهم العلاقة السابقة . نسى الجميع عطاءها الذى لم يكن ينقطع أبدا . وعاش الجميع قبل وفاة جدى منتظرين هذه الوفاة ، وبعدها عاشوا حياة الانانية التى لاتعرف الخير للآخرين . ولم تخل أمى من حسد الآخرين لها وعلى رأسهم هذه الفئة التى بدأت تمسك الصولجان . فأمى لها ابن . وهو كفيل بأن يحميها من غوائل الدهر ونكباته . وماذا تحتاج اليه "أم كامل" ؟ انها فى بسطة من العيش ، ومن يدرى ماذا ترك أبى لها من نقود "سائلة" أو من أشياء أخرى ثمينة ؟ ألم يكن أبى قد اشترى لها زوج من "الاساور" من الذهب الخالص ؟ صحيح انها أعطته لابيها لكى يساعد بثمنه فى تجهيز حميدة أختها غير الشقيقة عندما تزوجت وقد كتب لها أبوها نظير ذلك قيراطين فى بيته لم يسجلهما قبل وفاته . ومهما يكن من الأمر فهى "بزورها" وابنها الله يحميه سيقوم بإدارة الوكالة التى تركها له أبوه دون أن يطمع أحد فى شىء فيها . تركت الوكالة لسيد بالكامل ، ولم يرث منها جد أو جدة دانقا . وفضلا عن ذلك فام كامل ، أمى ، تعلق فى "برقعها" عروس من الذهب البندقى الخالص . وأليست هذه ثروة فى حد ذاتها . وماخفى كان أعظم .

وبقدر مابعدت الشقة بين أمى وزوجة عمى محمود أم على زينب ، كانت العلاقة بينها وبين زوجة عم أبى أم حسين سكينة تتوطد يوما بعد يوم . فهما فى الهم سوى . ولكن أمى لها ابن

"صبى" وأم حسين سكينة لها بنتان سنية وفاطمة . أى أنهما وأمهما "تلات ولايا" . فلهم الله . ولهم عقل الأم المدبر الذكى الذى يهدى الجميع الى الرشاد . وكانت تطمع أم حسين سكينة . أو هكذا كانت الأشاعات فى محيط الأسرة تقول ، فى أن أتزوج سنية ابنتها . فهى من حيث السن تليق بى وأنا أليق بها . وهى الآن تدرس لكى تتخرج مدرسة فى احدى المدارس الأولية . وأنا قد درست حتى السنة الرابعة الثانوية . وامها الآن سمن على عسل مع أمى . وقد نكبت قبلها فى زوجها وأمى الآن منكوبة فى زوجها . أى أن يتيما يتزوج من يتيمة . ولكن ماكانت تقوله الاشاعات شىء وماحدث فى الواقع كان شيئا أخر . فأنا لم أتزوج من سنية لاننى لم افكر قط فى ذلك ، لاقبل وفاة أبيها ، ولاقبل وفاة أبى ، ولابعد ذلك .

استمرت العلاقة بينى وبين أمى علاقة صامتة تتضمن الحب والاسى والأسف والشعور بالذنب والامل فيما هو أحسن وأفضل جميعا . ومات جدى وبان كل ماهو مستور . تركت زوجة عمى مصطفى البيت وخرجت لتسكن مع ابنتيها شقة فى بيت غريب . لم تذهب الى منزل أبيها الذى تعيش فى كنفه زوجة ليست امها مع أولادها ، ولم تذهب إلى منزل أمها التى كانت تعيش مع ابنتها عطيات مع أخيها ، وزوجته التى لم تنجب وكانت معهم أيضا شقيقة لها تدعى "أم حسن" وهى أرملة كما أذكر ولم ير أحد ابنا لها اسمه حسن ابدا . ولكنها أى زوجة عم أبى أم حسين سكينة قررت ان تعيش وحدها مع ابنتيها . فقد أنهت سنية دراستها بالنجاح وأمكن "لاولاد الحلال" ان يلحقوها فى وظيفة مدرسة باحدى المدارس الأولية أثرت ان أبقى مع أمى فى منزل الأسرة فترة من الوقت حتى أبت فى أمر كان يشغل بالى كثيرا هو أن أستأنف الدراسة مرة أخرى حتى احصل على الشهادة الجامعية المرموقة . وماكنت لاذكر لأمى مايشغلنى فى حينه ، وبخاصة وقد بدأت نفسها تهدأ وايمانها بقضاء الله وقدره بدأ أيضا يتأكد . ولعل الفضل فى

ذلك أن يرجع الى ماكان يسربه اليها "الشيخ محمد" ابن اختها أم محمد نبوية . فقد كان يأتى يوميا لزيارتها ويعيش معها فترة يؤكد لها أن الله جل وعلا يمتحن المؤمن ، والمؤمن القوى بالايمان خير من المؤمن الضعيف . والبركة ستحل فى "سيد" اذا ما اتجهت الى الله فذكرت الله كثيرا قبل أن تنام ، وتدعوه جل وعلا ليغفر لأبى ماأمكنها أن تفعل ذلك . فالحياة دار العمل . وينقطع عمل ابن آدم (اذا مات) الا من ثلاث منها الولد الصالح الذى يدعو له . فكان يطلب منها أن تدعو لأبى المتوفى وان تدعو لى لكى أكون ولدا صالحا . وكانت دعواتها لى بعد أن انفرجت الغمة أو كادت لاتنقطع ، وكانت تتعدد وتتباين ، فكنت اسمعها تقول :

"ربنا يجعلك ياسيد يابن زنوبة مقبول عند العبد وعند الرب"

و"راضى عليك قلبى وبزى وحجرى ياابنى ياسيد ياابن بطنى"

و"الهى مايمتنى الا واشوف عيالك يملو علىّ البيت ويكونوا اخواتك لما يكبروا "

وكانت فى بعض الأوقات تقول معتزة مفاخرة بعد كل دعوة تدعوها لى :

"دا أنا طاهرة فاخرة وربنا يتقبل منى " . ثم تدعو قائلة :

"بعدد شعر رأسى وشعر بدنى بادعيلك ياسيد ياابن زنوبة انك تكسب وتربح ويقيم ربنا شانك .. ."

وعندما أضطررت الى ترك المنزل الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته طفولتى السعيدة ، وافقت امى على ذلك . فهى والحق يقال لم ترفض لى طلبا منذ ان مات أبى وحتى ماتت . تركنا بيت الأسرة ولم تكن فى نفسى غضة ، بل على العكس تماما كنت اؤكد ذاتى وأعلن إرادتى وابدأ عهدا جديدا عهد استقلالى التام . ولكن أمى لم تبرح الدار الا وهى مضطرة على الرغم من العوامل المنطقية التى دعتنا الى ترك هذا الدار بما فيها وبمن فيها . كانت تترك الدار وجزءا طويلا طويلا من حياتها وهى فى الثامنة عندما دخلته متزوجة لابى مازال فيه . انها العشرة . ونحن المصريين نقول دائما "ان

العشرة ماتهونش الا على اولاد الحرام" تركت أمى بيت الأسرة الكبيرة التى أصبحت غير كبيرة لتعود اليها فى زيارات متعددة . مرة أو أكثر فى الاسبوع تراها مرة فى بيت عويس البيت الذى كان جدى لابى يصول فيه ويجول ، وتراها مرة أخرى فى بيت ابيها حيث لايوجد فيه الا أخوها وزوجته وابنه وزوجة ابيها الاخيرة واختها غير الشقيقة زهرة ، والشيخ محمد وزوجته وابنة له ومحمود ويوسف شقيقاه ، وأم على نبيهه وأبناؤها الذين يسكنون احدى "المنادر" فيه . وتراها مرة ثالثة عند اختها غير الشقيقة حميدة المتزوجة وتعيش فى مسكن خاص لها ، أو تراها مرة رابعة تزور اختها غير الشقيقة عزيزة فى مسكنها الخاص ، أو تراها تزور زوجة عم أبى أم حسين سكينة وبنتيها سنية وفاطمة فى مسكنهن الخاص . كانت تزور هؤلاء ، وهؤلاء فى المناسبات وغير المناسبات . لانها تركت الجزء الأكبر من تاريخ حياتها عندهم . فهى لاتطيق ان تعيش طويلا فى المسكن الذى اتخذناه مأوى لنا . فالعشرة كما كانت تقول لى وتكرر "ماتهونش الا على ابن الحرام" وكنت اراها عندما تعود يشى وجهها بأمور غير مستحبة تكون قد وقعت لها فأسالها فلا تقول شيئا . إنها لاتكذب أبدا ، ولكنها لاترغب فى أن احزن من اجلها وبخاصة اذا أساء اليها أحد . كانت تخفى عنى ماكان قد حدث لها من أذى فى أثناء زياراتها حتى لاأغضب فاطلب منها أن تكف عن هذه الزيارات . واستمرت تزور وربما لاتزار الا غرارا . وكنت افاجئها والدموع على خديها فأقول لماذا تبكى ياأمى ، فتقول وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة غير عادية وهى تبادر بمسح سيل الدموع من على خديها :

"أبدا يابنى اننى لاأبكى وادينى أهو باضحك شوف"

وكنت أصمت على مضض . فانا أعيش من أجل هنائها وسعادتها فى حدود قدراتى . ولكن هل هذه المرأة منذ أن ولدت وحتى ماتت أحست بالهناءة الحقيقية أو بالسعادة الحقيقية ؟ هكذا كنت اقول لنفسى . انها ولدت وعاشت ثم ماتت ولم يكن لها نصيب

قط من هناءة حقيقية أو من سعادة حقيقية . كانت راضية بالقليل القليل وقد نشئت على هذا الرضى ، وكان هذا الرضى القليل القليل هو كل ماكانت تبغى أو قالت لها ظروف تنشئتها أنه كل ماكانت تبغى . ولن أنسى ماحييت عندما كنت فى الولايات المتحدة فى " جامعة بوستن " أدرس من أجل الحصول على الدكتوراه بعد وفاتها بثلاث سنوات ، أى فى عام ١٩٥٢ ، وجاءنى أحد الزملاء من أبناء الولايات المتحدة ، وكان متزوجا ، يقول لى :

" اليوم حدث أمر خطير لزوجتى ، انها بكت امامى .. ويبدو انها مريضة نفسيا . وأنا فى حاجة الى مساعدتك لكى نذهب بها فى العربة الى أحد الاطباء النفسيين فى مستشفى بوستن السيكوباتى "

كان " هارولدبيرك " وهذا اسمه يتحدث باللغة الانجليزية ، وكنت اسمع له وقد رأيت على صفحة وجهه علامات الحزن والاسى . فما كان منى الا أن اصرخ باللغة العربية قائلا :

" ياعينى عليك يامة "

فانا لم أر امى ، وبخاصة بعد وفاة أبى ، الا وهى باكية أو على وشك البكاء ، ولم أفكر قط فى ارسالها الى طبيب نفسى . ونساء مصر يبكين دائما وبخاصة عندما يواجهن المواقف غير المستحبة فى علاقاتهن مع الازواج أو مع الآباء أو مع الاخوة الكبار ، وعند الموت ، وبعد الموت ، ترى بكاءهن هو المنفذ الوحيد للتنفيس عن توتراتهن التى تأتى بها الاحزان أو الاكدار . لايعرفن وسيلة مثل قراءة الكتب أو الذهاب الى دور السينما أو الى المسرح أو سماع الموسيقى أو غيرها من وسائل تيسر هذا التنفيس بأسلوب حضارى . وأنى لهن أن يفعلن ذلك فى الوقت الذى كانت أمى تعيش وتحيا وحتى بعد ذلك الى وقتنا الحاضر ، وقت كتابة هذه السطور . ان أمى مثلا لم تذهب الى مسرح قط أو الى دار للسينما قط أو تستمع الى موسيقى قط . ولم تكن تستطيع أن تقرأ كتابا أو حتى جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات . انها لم تذهب الى

أحد المصايف لتروح عن نفسها لم يفكر أبى فى أن يفعل ذلك . ولم أفكر أنا أن أحقق لها ذلك . فانا نفسى لم أذهب الى المصيف الا وأنا فى سن الثلاثين ومابعدها . لم تطرأ فكرة الذهاب الى المصيف على لان امكاناتى لم تكن كافية لهذا الغرض وفى مجتمع الولايات المتحدة على علاته عندما تبكى المرأة يرى زوجها ان يرسلها الى الطبيب النفسانى . ان المستوى الحضارى يختلف ويتباين بين هذا المجتمع وبين المجتمع المصرى منذ أن كانت أمى تعيش وتحيا حياتها وحتى قبل ذلك وبعد ذلك بالطبع . فالبكاء ظاهرة فى محيط المرأة المصرية ويكاد أن يكون جزءا من الثقافة السائدة . أى هو أمر عادى تقرره الثقافة المصرية ولايعتبر مرضا أو ظاهرة على مرض نفسانى أو غير نفسانى . إنه جزء من هذه الثقافة على عكس ماتقف الثقافة الامريكية منه التى تعتبره مرضا يتطلب العلاج .

ومن أجل ذلك فان ماكانت تفعله أمى كان شيئا عاديا . ففى ضوء " العشرة " يهون كل شىء . ولكونها امرأة معطاءة وان أخذت فانها تأخذ القليل القليل ولاتلح من أجل ذلك أبدا ، فهى مسامحة أيضا . تسامح كل من يمسها بأذى سواء كان هذا الأذى بالقول أو الفعل . فهى تعطى وتسامح وأن أخذت فأنما تأخذ القليل القليل دون ما ألحاح .

٥ ـ بداية المسيرة فى مدرسة الحياة

قبل أن يموت أبى كنت ككل البشر فى المجتمعات الانسانية ومنها المجتمع المصرى أؤدى أدوارا اجتماعيا فرضها على " هذا المجتمع " فأنا ولدت فيه ووجدتها تنتظرنى . كنت أؤدى دور الذكر ودور الابن ودور الحفيد ودور ابن الأخ ودور ابن الأخت ودور ابن الخال ودور ابن الخالة ودور الأخ (أحيانا) ثم دور الطالب . وبعد أن مات أبى أصبحت فجأة أؤدى أدوارا أخرى .. ورأيتنى بعد أن

أرغمت على ترك المدرسة الخديوية الثانوية وأنا فى السنة الرابعة ان اتخلى عن دور الطالب ، ولكنى أصبحت أؤدى دور رب الأسرة ودور صاحب العمل ودور التاجر الذى يبيع لزبائنه ودور الزبون الذى يشترى من التجار ودور يتيم الأب . حدث كل ذلك فجأة تماما ، كما حدث ، عند ولادتى ، فقد فوجئت بالعديد من الأدوار السابقة على وفاة أبى ، كما فوجئت أمى وأصبحت تؤدى دور الأم وفوجىء أبى وأصبح يؤدى دور الأب . أى اننى أعطيت أمى وأبى حقوقا لهما قبل أن يعطيا لى حقا لى . فلأمى حقوق الأمومة ، ولأبى كانت حقوق الأبوة . وهكذا لمجرد وفاة أبى فوجئت بهذه الأدوار الثقال التى لم تعطنى حقوقا بل أعطتنى حقوقا وواجبات ومسئوليات . وكنت مازلت غض الاهاب ، لاأدرى من تجارب الحياة الا ما اكتسبته منذ أن كنت طفلا حتى بلغت سن السابعة عشرة أو نحوها .

وفى يوم الأربعاء ٢٢ من يناير عام ١٩٣٠ أخذت مفاتيح " الوكالة " وذهبت يصحبنى خالى سيد وابن خالتى الشيخ محمد ، وفتحت الأبواب وكان ينتظرنا عم عبد الفتاح عم أبى ومحمود ابن عمتى وأحد العمال الذى أتى من واحات صحراء مصر . كان الثلاثة عمال المحل وأصبحت أنا المسئول عنهم وهم المسؤولون أمامى وكنت أصغرهم سنا . وبدا لى أن التعاون سيستمر بيننا وان بهذا التعاون يمكن أن نؤدى عملا جماعيا مفيدا . كنت لاأعرف الكثير عما فى الوكالة ، وكنت لاأعرف شيئا مطلقا عن الادارة ، ماهى واجباتى وماهى مسؤولياتى . ولكنى اعتمدت على الممارسة . ولم يكن الذنب ذنبى فقد كان أبى يأبى اباء شديدا أن أتدخل فى شئون العمل وكان دورى وبخاصة فى أثناء العطلة الصيفية أن أراقب كل مايدور فى الوكالة من نشاطات . وفى هذا اليوم تهافت أهل " الحتة " على باب الوكالة رجالا ونساء وشبانا وشابات يؤدون واجب العزاء لى مرة أخرى أو للمرة الأولى . وكانت نساء الحى الطيبات منهن والشريرات ينظرن

الىّ وعلى وجوههن سمات الأسى والحزن . وكانت ألسنتهن تلهج بالدعاء لى . " أم حبيبة " وهى سيدة عجوز لاابن لها ولابنت تدعو لى دعوات أحس أنها خارجة من قلبها ، كانت تقول مثلا " يارب يطرح البركة فيك ياسيد ياابن حوا وآدم كما طرح البركة فى الزيت فى القنديل " . وكانت " أم على زردقة " وهى أم الفتوات على ومحمود وعيوشة هى الأخرى ترفع يديها الى السماء وهى تدعو . وكانت أم على زردقة هذه تسكن فى دكان أمام الوكالة تماما تبيع فيها مع زوجها وأولادها فاكهة الموسم . وعلى الرغم من أن لسانها كان لايكف عن الشتائم فهى اليوم تدعو بلسانها لى دعوات تتضمن الحب والأمل والبركة . وغير أم حبيبة وأم على زردقة ، كانت " عيوشة " بنتها وكانت " نبيهة " أختها و " أم حسن أمونة " أختها أيضا " وسكينة الخضرية و " عشة " بائعة الحلوى وأم محمد " بائعة العيش " وغيرهن وغيرهن تلهج ألسنتهم بالدعاء لى وأن الله " يطرح البركة فى " وأن أؤدى واجبى " بدل أبوه " . والرجال كان عددهم أكثر . فها هو " الحاج فرج " أب زوجة عم أبى أم حسين سكينة و " حسين " ابنه و" عم جبر " الخضرى (الكفيف) و " الحاج حسن القهوجى " و " محمد الشامى " العلاف ، و" حسن دعبس " القهوجى و" محمد السيد " البقال " و " " عم صيصة الطعمجى " ، كلهم وغيرهم جاءوا يعزون ويشجعون ويقولون قولا طيبا . ومر اليوم الأول ثقيلا ثقيلا .. وبدأت عجلة العمل تدور ولم أكن أدرى الى متى ستدور هذه العجلة . وكان على " أن أذهب الى عملاء الوكالة لأريهم نفسى وأحصل منهم مايمكن أن يدفعوه من الحساب . وذهبت الى تجار البقالة فى حى عرب اليسار وكان عددهم كبيرا . كان هناك " الحاج أحمد " و" الشيخ عبد العزيز " و" الجداوى " و" عم وهبة " و" الشيخ قطب " و" عم اسماعيل " و "الشيخ على أمين " وغيرهم لاأذكرهم الآن . كانوا يرحبون بى ترحيبا طيبا . وأحسست وأنا الصبى الذى كنت ، أصبحت أمامهم الرجل الذى أكون . كانوا

يعاملوننى لاكالند للند بل كما كانوا يعاملون أبى أى أنهم كانوا يعاملوننى كالتاجر الذى ييسر لهم أن يستمروا فى تجارتهم ومن ثم فهو أعلى منهم درجة . كل ذلك حدث فى سرعة مذهلة . وأيقنت فى ذلك الحين معنى " مات الملك يحيا الملك " عندما يموت الملك الأب ويتولى المُلك الملك الابن . واستمع للشيخ على أمين وكان رجلا مستنيرا بالنسبة للآخرين ، فقد كان أزهريا ولم يكمل تعليمه وفضل أن يفتح حانوتا يبيع فيه ويشترى . قال لى هذا الرجل الذى كنت منذ أيام لاتزيد على أيام الأسبوع اعتبره والدا " ياسيد افندى احنا لما نولع صوابعنا العشرة شمع لايمكن أن نؤدى واجبنا نحو المرحوم والدك " . وعندما ذهبت الى تجار حى الخارطة القديمة وخارطة التونسى والابجية ، وجدت نفس المعاملة منهم ، كانوا على مستوى الآداب المرعية فى الظروف الاجتماعية التى كنت اجتازها . ولايمكن ان انسى موقف "الشيخ عبدالعزيز جاويش" الرجل المسن الذى كان كلما رآنى قبل وفاة أبى ينفحنى بالنقود لأصرفها كما أشاء تبرعا منه لى ، والآن يقول لى باكيا "البركة فيك ياسيد افندى" وبدلا من أن يعطينى نقودا خارج حساب البضاعة التى كان يدين بها لأبى فقد أعطانى نقودا لحساب ماعليه من دين . لقد أصبح دوره الآن يختلف عن دوره السابق ، تماما كما أصبح دورى مختلفا عن دورى السابق . و "عم عارف" الذى كان يأتى بالبسكليت الى الوكالة راكبا ، وكنت اطلب منه الاذن لأركبها فترة من الوقت ، وكان يأذن لى ، قد تغير اسلوب معاملته لى فكان يحدثنى وكأنى قد كبرت سنين عددا وأصبحت فى نظره "تاجر" الذى من واجبه أن يبدى له الأحترام وأن يكون سلوكه معه سلوك المتحفظ الرزين .

وكان الموقف من التجار الذين كان أبى يتعامل معهم موقف المجاملة المتحفظة . فهم من أحياء مختلفة ، فمنهم من كان يمارس تجارته فى "بين الصورين" ، ومنهم من كان يمارس تجارته فى

"السكة الجديد" أو بالقرب من "جامع البنات" ، ومنهم من كان يمارس تجارته فى حى بولاق . وكنت اكن لهؤلاء الاحترام والواجب . فهم رجال أكبر منى سنا وأكثر خبرة وأنا فى حاجة اليهم أكثر مما كانوا هم فى حاجة الىّ . وكان احترامى شديد للحاج "أمين الزينى" تاجر بولاق . لم يكن كريما معى ولكن كان مستقيما ولاتشوب امانته شائبة . وكنت كلما اذهب اليه ، كما كان يفعل ابى قبل وفاته ، كل يوم جمعة ، أحس بالمهابة تشع من حوله . فالصمت فى المحل هو القاعدة ، والموظفون فى عمل دائب . وهو يتحدث بالتليفون ويرد على التليفون ، ويساوم ويجادل ويناقش ثم يبت فى كل أمر يتعلق بالعمل . وحتى عندما كنت احدثه بالتليفون من الوكالة كنت أحس وكأننى أمامه فكانت هالة المهابة من حوله تخترق سماعة التليفون وكنت أكاد أن أراها فى صوته وفى مجادلته ومناقشته جميعا .

وبدأت أعايش الحياة فى الوكالة ، وبدأت ملامح شخصيتى تظهر أمام الناس ، فى داخل الوكالة وفى خارجها فى شوارع الحتة من حولى وفى البيت وفى خارج البيت . وأصبحت رجلا وكأننى فى الخمسين وكان عمرى لايزيد على الثامنة عشرة . وكنت انفر نفورا شديدا اذا سمعت أحدهم أو احداهن يقول أو تقول فى اعتذار عما يكون قد صدر عنى من سلوك أراه أنا صحيحا سليما ويراه البعض غير ذلك ، فيقول هذا البعض « سيد دا لسه عيل ياناس ستحملوه » . كان نفورى فى ذلك الحين شديدا جدا وكان غضبى لاحدود له . فأنا لست « عيل » بل أنا « راجل ابن راجل » . وهأنذا لآن أضحك من نفسى على هذا السلوك الذى كان . وأرجو وأنا كتب هذه السطور أن يعود سنى الى الثامنة عشرة أو حتى الى لعشرين ولأكن « عيلا » فأنا موافق . ماأكثر مايضحك الواحد منا لى أنماط سلوكه عندما كان يواجه المواقف الاجتماعية العديدة هو أصغر سنا ، واستمر ضحكى من أنماط سلوكى الماضية كلما ر الزمن واستهلك العمر .

وفى أثناء وجودى فى الوكالة ، فى معمعة الحياة ، وأنا أعيش فى قاع المدينة فى حى السيدة عائشة وفى شارع الزرايب وماحول ذلك من شوارع وحارات ، وكنا فى أعوام الثلاثينات الأولى - أحسست بالأزمة التى كانت تخيم على الأهالى كبارا وصغارا على السواء . أصبح الرجال امامى أشباه رجال . كان العمال لايعملون لأنهم لايجدون العمل . وحتى الذين كانوا يعملون فى « السلطة » وأتاحت الفرصة لهم ان يقبضوا تعويضا بعد الكشف عليهم واثبات وجود مرض عندهم ، أخذوا التعويض وافتتحوا حوانيت للبيع والشراء . ولم يلبثوا ان أغلقوا هذه الحوانيت لأنهم لم يجدوا الزبائن وأن وجدوهم فلم يجدوا معهم النقود لأنهم لايعملون . فكانوا يبيعون بضائعهم « على الحساب » . وكنت ترى الواحد منهم يكتب على واجهة الحانوت عبارة « اذا نطق الديك شكك أديك » ، ومع ذلك فقد كانوا لكى تدور حركة العمل فى الحانوت يبيعون « شككا » . ومن هؤلاء التجار من كان من زبائنى . أذكر منهم « محمد السقا » الذى كان يمتهن بيع المياة بالقربة وعندما قبض التعويض افتتح حانوتا ، وأذكر منهم « أحمد عبدالعال » وهو شخص لم يكن يعمل شيئا معينا ولكنك كنت تراه « سمسارا » تارة ، وكنت تراه « متعطلا » مرة اخرى وكنت تراه يبيع « الحمام » فعنده « غية حمام » يشترى لها ويبيع منها ، فعنده حمام « القطاوى » و « القمرى » و« الشقلباظ » و« الرومى » وفى سوق الحمام بالقلعة وهى سوق معروفة للغواة من « البكوات » و « الأفندية » وغيرهم ترى أحمد عبدالعال بالقلعة يبيع ويشترى او يبيع ولايشترى او يشترى ولا يبيع . ومن هذين الشخصين ومن غيرهما عرفت الكثير عن معاملة الانجليز لهم عندما كانوا عمالا فى السلطة . كان « اسماعيل عمران » أحد أعيان قسم الخليفة المسئول عن تجنيد هؤلاء ، عندما كانوا شبانا . كان الواحد منهم يوقع استمارة التجنيد فى نظير مبلغ معين يأخذه "عمران" الذى كان يأخذ من الجيش الانجليزى أيضا "معلوما" عن كل نفر

مجند . ويذكر محمد السقا أن عمران هذا ذهب اليهم فى "الشام" لابسا ملابس ضابط انجليزى وكان يخطب فيهم بالعربية ويحضهم على السمع والطاعة . فهو يعرفهم واحدا واحدا وهم يعرفونه واحدا واحدا . وكان العمال المصريون يذهبون الى الشام أو أوربا فى فرنسا مثلا . كانوا يلبسون ملابس الجنود الانجليز اذا كانوا فى أوروبا وكانوا اذا مانودى عليهم فى الطابور يصيح المسئول كما يقول محمد السقا باللغة العربية "ايجيبشان لابيكور" وهو يقصد بالطبع العبارة الانجليزية Egyptian Labour Corps ويروى أحدهم أنه عندما كان يحين الوقت فيؤمر الجنود الانجليز أو جنود بريطانيا العظمى بالهجوم ، يذهب الواحد منهم الى ساحة القتال وهو يبكى خوفا وهلعا . وهذا أمر طبيعى . فالروح سواء كانت روح انجليزى أو روح مصرى « حلوة » مافى ذلك من شك . وكانت طائرات الأعداء تحوم حول العمال المصريين ومن معهم فيدفن الواحد منهم نفسه فى الرمال ثم ينطق بالشهادة موقنا انه اذا أحياه الله وعاد وتزوج فانه بسبب « الخضة » لن ينجب . ويروى البعض ان المسلمين من هؤلاء العمال كانوا هم الكثرة وأن المسيحيين كانوا هم القلة . وانه عندما مرض احد المسيحيين وأحس أن مرضه مرض الموت أسرع وأعلن امام حشد كبير من زملائه المسلمين « شهادة الاسلام » فلما مات غسل وكفن ودفن وصلى عليه وكأنه ميت مسلم تمام . وكان العمال المصريون فى أغلب الأوقات ، فى أوقات الفراغ ، لايجدون تسلية الا لعب القمار يلعبون بما معهم من نقود أحيانا ، أو كانوا يقامرون بالتعيينات (السجاير والشاى) أحيانا أخرى ، ومما كان يحز فى نفوس العمال المصريين جميعا ان رؤساءهم لم يكونوا من المصريين المسلمين او المسيحيين ، بل كانوا من يهود فلسطين الذين كانوا يعرفون اللغة العربية . كما يعرفون اللغة الانجليزية . كان هؤلاء الرؤساء يلبسون ملابس الجنود أو الضباط الانجليز ، وكانت معاملتهم للعمال المصريين معاملة قاسية غير انسانية . فقد كان

يحكم على العامل المصرى اذا اخطأ خطأ يسيرا بالجلد مائة جلدة وينفذ الحكم علنا امام الجميع ، وكان الحكم الصادر من الامباشى اليهودى او الضابط اليهودى لامعقب عليه ولانقض له ولا ابرام . وقد يكون الخطأ المنسوب الى العامل المصرى المجند فى السلطة العسكرية الانجليزية انه تأخر عن الطابور برهة من الوقت او انه بدلا من ان يتجه فى الطابور الى اليمين حسب نداء القائد اتجه الى الشمال او العكس ، كان الانخراط فى العمل مع الانجليز فى الحرب العالمية الأولى مهانة للعاملين المصريين ومذلة . ومنهم من كان يحس بذلك . والكثير منهم لايرى مضطرا الا مايحصل عليه من نقود او تعيينات . وكان لهذا العمل على الذين عادوا سالمين او مرضى وهو لايشعرون بصمات . فقد ادمن الأغلبية منهم التدخين ، وأدمن الجميع تعاطى الشاى باللبن ، تماما كما كانوا يفعلون ايام العمل بالسلطة . ومن مات منهم فى أثناء العمل اعتبر عند اخوانه من الشهداء ، وترملت الزوجات ، وتيتم الأبناء ، وثكلت الأمهات . وبعد فترة طويلة او قصيرة لم يذكر الناس عنهم شيئا وكانت المفاجأة الكبرى لبعض الأحياء من الذين عادوا احياء از منحوا اذا كانوا مرضى تعويضات استطاع بعضهم ان يستثمره فى فتح حوانيت للبيع والشراء . وصرفها البعض على تعاطو المخدرات مثل الحشيش ، وأحيانا « شم الكوكايين » وتعاطو المخدر الثانى انتشر فى محيط الشبان المصريين فى اواخ العشرينات وأوائل الثلاثينات انتشارا كبيرا ، وكان مثل تعاطم الحشيش لايفرق بين غنى او فقير او متعلم او جاهل . فكنت ترة « محمود زردق » و « أبو شبيكة » من الطبقة الدنيا مع « عل راشد » وكان من اعيان الحتة . وتراهم يخرجون من السجن وة رجعت اليهم الحياة والصحة والحيوية والصحة تلمسها ف خدودهم الحمراء ، وماان يلبث الواحد منهم بعد فترة من الوقت أ تراه قد ذبل ، ينام وهو جالس ويجلس وهو نائم ، ينفر منه النا الشرفاء ، ولا يقربه الا من كان على شاكلته . وكنت تراه يستجد

لا ليأكل ولكن « ليشم » . ومن ثم راجت أغنية :
شم الكوكايين خلانى مسكين
مناخيرى بتون وقلبى حزين
وعنيا فى راسى رايحين جايين
كما راجت ايضا الشتائم على أفواه الأطفال ومنها كما أذكر الآن :
« أه ياشمام انشالله تموت وتخر الدم »
والمخدرات فى محيط اهل الحتة غير الحشيش وغير الكوكايين كانت رائجة . وقد تجسد عم « لمعى » وهو يبيع « المنزول » علنا على الرغم من تجريم بيعه او شرائه فى ذلك الوقت . فكان يتخذ من صناعة « ترزى بلدى » واجهة لبيع مايعرض من بضاعة « المنزول » وهو مخلوط من الحشيش وجوز الطيب والقرنفل والسكر المطحون وأشياء أخرى . وقد يقبض عليه ويسجن او يحبس او يدفع الغرامة ، ثم يعود الى ماكان عليه فلا ردع ولا مبالاة . ويخرج من السجن او الحبس ويقول للناس صارخا :
« ياناس ده كارى وأكل منين ؟ »
والزبائن تذهب اليه وتروح ، لايبالى احد بما يقال ، ولايبالى هو بما ينتظره من عقاب ومن زبائنه من كان يواظب على الصلاة وعلى صيام شهر رمضان ومنهم من كان لايفعل ذلك . وقد تفاجىء أحدهم يصيح قائلا دون مناسبة :
« ميت ألف جنيه وسرايا وعزبة »
ودستة نسوان . وجبل
حشيش وبحر خمرة
والجوزة دهب والماشة
فضة ، وأجرة الشيال ... »
ولعل هذا القول قد يعكس اقصى مايتمناه اهل الحتة المطحونين ن الذكور ، اهل الحل والعقد ، لأنهم مجرد ذكور . فينتشون حلام اليقظة ، وهم يعلمون علم اليقين بأن مايحلمون به لايمكن

ان يتحقق . ومن ثم فالاكتفاء بالنشوة متعة وهو وان لم يكن خيرا كله فهو ليس بالشر المستطير .

وعلى المقهى قد تجد احدهم يقول هامسا لمن حوله ، أو يقول بصوت مرتفع متسائلا ومجيبا عن تسائله فى نفس الوقت :

« هى ايه اللذة فى الدنيا ، اللذة هى
أكل اللحم ، ولكن لذة اللذة هى ركوب
اللحم اما لذة لذة اللذة فهى
دخول اللحم فى اللحم « ها . ها . ها » .

ويضحك معه الجميع وقد خدرهم ماتخيلوه وودوا لو أنه يتحقق .

ومن بصمات العمل فى معسكرات الانجليز فى أثناء الحرب العالمية الأولى على الذين عملوا فيها وعادوا ان برز منهم الذين يحلو لهم الحديث عما رأوه وعما سمعوه وعما خاضوه من تجارب سواء كانت مرة أو حلوة . ترى الواحد منهم يحكى ويحكى والناس من حوله يستمعون ولاينتهى من حكاية الا ليبدأ حكاية أخرى . وكان منهم « الحاج محمد » وهو من عائلة « الحاج سيد » الذى كان من أبنائه « أحمد السيد » و « عبده السيد » . والحاج سيد كان مقاولا وصاحب « ملك » وله حيثية وعزوة . وكان الناس يخشونه فهو طويل اللسان ، وعلى الرغم من كبر سنه فقد كان لايرعوى عن الشتم بأقبح الشتائم ، كان يشتم النساء كما يشتم الرجال ، وله من أبنائه وماله مايحميه . ومع ذلك فان « الحاج محمد » وهو أخوه لم يسلم من السخرية من أهل الحتة . فكان كلما بدأ يحكى حكاياته ويروى رواياته فاجأه بعضهم بأن مايقوله هو مجرد « معر » ومن ثم أصبح اسمه بين الناس الرجال والشبان والنساء والشابات والأطفال « المعار » فاذا قيل « المعار » فقد كان يعنى أنه « الحاج محمد » أخ « الحاج سيد » . وتراه وقد جن جنونه يجرى من وراء من يقول « المعار » حتى يلهث . او تراه يسب سبا جارحا يؤذى أذن السامع حتى ولو كان من أهل الحتة استمر هكذا حتى مات . واستمر الناس يعاملونه فى سخرية حتى

مات وبعد ان مات . وان كانوا بعد ان مات كنت تسمع منهم بعد ذكر اسمه مشفوعا بلقبه الساخر « الله يرحمه » .

عشت فى الحتة كل يوم افتح الوكالة فى الساعة الثامنة صباحا وأغلقها عند الساعة الحادية عشرة مساء ماعدا يوم الجمعة ، فقد كنت أغلقها بعد صلاة الجمعة كما كان يفعل ابى لأتناول طعام الغداء ثم أنام قليلا وبعد ذلك اخرج الى التجار لأدفع ما علىّ من دين وأطلب ما احتاج اليه من بضاعة . وكنت ارى امامى الناس ومايحدث منهم ولهم وكأننى ارى « بانوراما بشرية » . وتقمصت الأدوار الاجتماعية الجديدة وقمت بأدائها خير قيام . وكانت مظاهر الجدية تبدو على تصرفاتى . فانا لا أداعب الفتيات كما كنت أفعل . كانت تأتى فاطمة أو حميدة او حياة فكانت معاملتى لهن معاملة جادة ، وان كن لايبدين النفور منها ، فكنت اراهن يجئن الى الوكالة لشراء مايطلبون والعمال يؤدون الواجب وانا جالس الى مكتبى وبجوارى التليفون ، وكان التليفون هو الوحيد فى الحى الذى كان يحيط بالوكالة . ومن ثم كنت تجد اهل الحتة يستأذنون فى استعماله فأذن لهم . كان الزبون الأول « الشيخ ابراهيم يوسف » صاحب المكتبة وكان له اتصال وثيق بجريدة الأهرام فقد كانت لافتة المكتبة عليها « مكتبة الأهرام » ، وكان « كامل كيلانى » يستعمل التليفون أيضا ، كنت اسمعه يحدث عن طريقه « أحمد شوقى » الشاعر الكبير . كان يبدأ حديثه عادة ببيت من الشعر يتضمن المديح لأمير الشعراء . وأصحاب المصالح « المعلم سيد » مبلط القيشانى ، والحاج محمود « صاحب المقلة » ، والحاج برعى ، بائع « الدقيق والردة » و « الحاج محمد خودة » صاحب « القمينة » وغيرهم وغيرهم . وقد كانت لى فرص عديدة لأتحدث باسم « العقاد » لمن فى منزله أطلب اليهم ان يحضروا له مايحتاجه عندما كان محكوما عليه بالسجن تسعة شهور عقوبة على جريمة « العيب فى الذات الملكية » كان نزيل سجن مصر بالقلعة ، وكان يرسل اوامره عن طريق « الحلاق » الذى كانت ادارة السجن

تستأجره ليحلق لنزلائه وكان العقاد من هؤلاء ، وكان ترحيبى كبيرا لكى أؤدى هذه المهمة كلما جاء الىّ حلاق السجن الأمى ومعه الورقة التى كتب عليها رقم التليفون والأشياء المطلوبة للأستاذ العقاد . وكان المطلوب اشياء بريئة او قد تبدو بريئة . كان يطلب ملابس بعينها ، وكان يطلب كتبا بعينها . وكنت لاأعلم هل كان مايطلبه فعلا ملابس بعينها او كتبا بعينها او ان ماكان يطلبه رموزا لأشياء أخرى أو مجرد « كود » للغة لايود أحدا أن يعرفها غير الشخص المطلوب . كانت « بانوراما بشرية » ما أراه وما أتعايش معه وفيه . وكانت « استر » تحضر الى الوكالة لتشترى ما شاءت ان تشترى ، وأنا اراها ولا أحدثها فى قليل او كثير . كانت احدى بنات الحتة ، ولكن من يراها لايمكن ان يؤكد ذلك . كانت بيضاء ذات شعر أصفر وعيون زرقاء . مازالت فتاة ولكنها تبدو شابة . وكانت تسير مثل معظم الفتيات حافية القدمين ، وقد تلاحظ القذارة على وجهها وفى شعرها تنمو الحشرات وهى لاتبالى لأنها لاترى شيئا غير عادى . وكان أبوها يتعاطى مهنة « السمكرية » وأمها تعمل معه تراقب الحانوت عندما يغيب عنه ويذهب الى « المدينة » ليشترى البضاعة التى يحتاجها ، ثم تغيب ولايراها أحد عندما يعود . واستر تلهو وتلعب امام حانوت ابيها الذى كان يبدو انه ليس بأبيها ، وأمها تعايش الناس من حولها وعدم المبالاة هالة تحيط قسمات وجهها . واستر تكبر وتنمو ، وكنت اراها واطيل النظر ، ولا تنفرج شفتاى عن كلمة واحدة . وكان أهل الحتة يرونها ويطيلون النظر ويفعلون ما أفعل ، والدنيا تسير والناس يعيشون والحياة تتدفق أحيانا وتتقطع بعض الأحيان واستر تكبر وتنمو وملامحها تبدو وكأنها « برنسيسة » . وفى لحظة لم يجدها الناس ، وما زال ابوها يعمل فى حانوته يصنع الفوانيس والكيزان ، ويلحم الأوانى المصنوعة من الصفيح ، وقد يتجاسر ويصلح "وابور الجاز" . والأم تعمل معه وتراقب الحانوت عندما يغيب عنه ويذهب الى المدينة ليشترى البضاعة التى يحتاجها ثم تغيب ولايعرف أحد أين

تذهب عندما يعود . وقال الناس فى همس أن أستر ذهبت الى وعدها وبلعتها الحياة الجرفة الطاحنة المطحونة .

وفى خلال عام ١٩٣١ مات جدى لأبى . عاش سنة واحدة وكسور بعد وفاة بى . وانفرج الستار ولعب عمى وزوجة عمى أم على زينب وابنها زكى وباقى أولادها عبد المنعم وفتحية والبرنس وسميرة أدوارهم الجديدة . وكان زكى أعلى الجميع صوتا فقد كان أدرى بأسرار العمل الذى كان يشرف عليه جدى . وكانت النقود (السايلة) فى حوزته أو معظمها . وسرعان ما أعلن طلبه الطلاق من "عطيات" ابنة عمتى وإبنة عمته التى أنجبت له بنتا عاشت فى كنفها فترة حتى كبرت ثم عادت الى أبيها . وطلقت عطيات الشابة الوديعة الطيبة التى كانت تكاد ان تعبد زوجها زكى . ولكن ماباليد حيلة . تلك هى إرادة المجتمع المصرى الذى تعيش فيه أن تطلب فتجيب وأن تنبذ نبذ النواة فترضخ ولاتتمرد . ان نساء مصر فى ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر قد جئن الى العالم لا ليعترضن ولكن ليرضخن . أمر غريب هذا الذكر المصرى الذى حتى ولو كان يستطيع أن يكون أما فهو لن يستطيع ان يلد ابنا . ومع ذلك فهو الآمر الناهى الذى يعطيه المجتمع من الصلاحيات ما يأباه على من تعطى الحياة لهذا المجتمع ومن تحفظ تراث هذا المجتمع وتجدد فى هذا التراث من وقت لآخر . وانظر الى هذا الرجل الذى قدر ليكون ابن عمى شقيق أبى وهو يعدد صفات الزوجة المقبلة . انه يريد ان يكون طولها كذا وعرضها كذا ولونها كذا وسنها كذا ولم يذكر شيئا عن ذكائها أو ثقافتها أو عن أسرتها . انه وهو يعدد هذه الصفات لأمه تحسبه يعددها لواحد من النخاسين الذى يبيع ويشترى أبناء البشر فى سوق النخاسين . وجاءت "زينب" زوجة الى بيت الزوجية بعد ان راقت فى عين زكى وتزوجها على سنة الله ورسوله . كانت ابنه لسيدة أرملة تعيش مع ابنة اخرى (كبرى) وابن صغير على معاش زوجها المتوفى . ورضيت هذه الأم عن زواج الصغرى قبل الكبرى ولاآدرى حتى الآن لماذا كان هذا

القبول . وذهبت مع زكى ابن عمى لنرى العروس وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى أو أكثر بقليل فراقت فى عينى الكبرى ولم تنل الصغرى التى تزوجها ابن عمى الحظوة عندى . والناس فيما يعشقون مذاهب . وانتهى الامر والله يهنى "سعيد بسعيدة" ولابنة عمتى عطيات الله ومن قلبى وقلب أمى الدعوات الصالحات بالستر والسعادة فى حياتها المقبلة .

وكانت من نساء الحتة المرموقات الحاجة صاحبة "التخت" أو "المعصرة" التى تعصر الزيت ويقال لها "الحاجة التخاته" ، وهى تصنع تحت اشرافها الزيوت المختلفة كالزيت الحار والزيت الحلو البلدى والزيت السيرج فضلا عن بيع اللبن الذى تدره الجاموس المستخدم فى التخت . كان لديها العمال من الرجال . وكانت وحيدة لاسند لها ولا معين غير ماتملك من مال وعقار وماتمارسه من تجارة . تركها زوجها أرملة ولم تنجب منه أو من غيره من أزواجها السابقين أبناء . وكانت على غير وفاق مع أهلها المقربين وغير المقربين . كانوا يطمعون فى أموالها وكانت هى تضن عليهم بكل شىء القليل منه أو الكثير . وكانت هذه السيدة ضمن من تقدمت الىّ تعزينى فأنا مثل ابنها اذا ماأنجبت أما وهى لم تنجب فهى ترانى ابنا لها فكانت فى ضوء الرابطة التجارية التى بيننا تدعو لى دائما أحسن الدعوات وأرقها . وكانت تشكو لى أهلها والجشع الذى تراه فى عيونهم وكأنهم يرجون موتها لكى يتمتعوا بما تترك من مال وعقار وتجارة . ولكنها خيبت ظنون الجميع وقدمت طلبا لتحتضن ولدا وبنتا من الأطفال غير الشرعيين لكى ترعاهما ويؤنسا ماتعانيه من وحدة ولبى المسئولون الطلب . وكان اسم الولد هو الاسم الذى كان يسمى به كل طفل لقيط "محمد عبد الله" فأسمته هى "حزين" ، أما البنت وكانت فى مثل سن الولد فقد كان اسمها "زينب عبد الله" فأسمتها الحاجة "حزينة" ، وملأ حزين وحزينة دنيا الحاجة التخاتة ، وعاشت لهما ومن اجلهما ، وعاشا لها فهى أمهما ، لها حقوق الأمومة عليهما ، وعليهما واجبات البنوة ، ونشئا

مدللين لايجرؤ عامل أو زبون أن يمس أحدهما بما لايليق بحسن معاملتهما . ولما اشتد النزاع بين الحاجة وأهلها المقربين فكتبت كل ما عندها من مال وعقار وتجارة لكل من حزين وحزينة . وعرف الناس قبل الأهل بذلك ، وعرف الأهل وتميزوا بالغيظ الشديد وملأ قلوبهم الحقد العنيف الذى ظهر وبان عند وفاة الحاجة . جاءوا نساء ورجالا وهى فى سريرها ممدة وعلامات الموت بادية على وجهها وفى جسدها . وتظاهروا أمام الجثة وتسابقوا وكل يحمل أداة لضرب الوجه المسجى ، النساء يحملن " الشباشب " والرجال يحملون " البلغ " والكل يضرب على وجه المتوفاه يمينا وشمالا وعلى الجسد والأطراف وحزين وحزينة لايملكان أن يفعلا شيئا بل نالا بعض الضرب والكلمات المهينة الى أن سارع الجيران وأنقذوا الجثة من هذه القسوة التى لاتبدو الا من انسان موتور يملأ قلبه الحقد الأسود . وكانت " فضيحة " بلغ صداها أسماع أهل الحتة الذين لم يملكوا الا أن يتمتموا بالاستغفار الى الله . وعاد المعتدون الى حيث جاءوا وجاء " اولاد الحتة " وعلى رأسهم العمال ليقوموا باجراءات الدفن ، وشيعت الجنازة بلا مشيعين تقريبا . ونال حزين وحزينة مانالا من مال وعقار وتجارة ، ومالبثت التجارة أن بارت وقفل التخت ونسى الناس ماحدث ، وعاشوا حياتهم كما يعيش الاحياء . وقد ترك ماحدث فى نفسى أثارا لم يمحها الزمان ، وكلما تذكرت ماحدث للجثة من أقرب الناس الى صاحبتها كنت أردد ماأقسى الانسان أحيانا ، وكنت اتبع ذلك توا وماأعظمه أحيانا أخرى . وتذكرت حزين وحزينة . وعاشا معى اياما وشهورا ماخطبهما وأى ذنب جناه أيهما ؟ أليسا من البشر ؟ أليس لهما حق الحياة ؟ وما أكثر امثالهما المعروفون وغير المعرفين ! وأليس من واجبى وأنا الوحيد الذى لاأخ لى وأخت أن أطلب احتضان ولدا وبنتا ليكونا لى أخا واختا . وأخذت أفكر فى تقديم هذا الطلب وكنت على وشك أن أفعل ذلك ، فلقد كنت جادا . ولكن أمى عندما ناقشتها فى الأمر طلبت منى ارجاء تقديم الطلب حتى

تفكر هى الأخرى . وبعد أيام فاجأتنى بقولها : "ياسيد يظهر انت عاوز تتجوز . فأنت بدلا من أن تقول هذا مباشرة تقول انك ترغب فى تقديم طلب لكى تحتضن ولدا وبنتا من الأطفال غير الشرعيين .. "والحق يقال اننى لم أكن أفكر فى الزواج أبدا فانا الان اقترب من سن التاسعة عشرة من عمرى ، وقد اقتلعت فكرة الارتباط بالمرأة عن طريق الحب أو الزواج اقتلاعا . فحب أمى وحب خالاتى وغيرهن قد ملك على فؤادى وملأه حتى فاض . اننى منذ أن حذرتنى أمى بقولها "أوعى ياسيد يضحكوا عليك البنات ... انت عاقل انا عارفة خد بالك من نفسك "منذ هذا التحذير وأنا أكبت كل المشاعر أو معظمها نحو الجنس الآخر . وكنت أحس بالشبع فقلبى مرتوى بالحب والحنان النسوى اللذين اجدهما من حولى حيثما أكون . وكان قول أمى الذى قالت لى وأنا اقترح تقديم الطلب لاحتضان طفل وطفلة ليكونا لى أخا واختا ، وبخاصة عندما ماأضافت "اذا كنت عاوز طفل أو طفلة يبقى أحسن يكونوا من ضهرك "وجدته منطقيا . وبدأت مشاعرى نحو الزواج تنمو وتلتهب ، فوافقت على الزواج وبخاصة فان زكى ابن عمى كان قد تزوج للمرة الثانية منذ عهد قريب . وعندما سئلت ماالذى ترغبه من صفات فى الزوجة المرغوب فيها فلم أزد على أن تكون طيبة القلب نقية السريرة تعيش فى كنف ابوين سعيدين وبين أخوة وأخوات إذا كان ذلك متيسرا يظلهم الحب والحنان والعلاقات الطيبة . واختيرت زوجتى "نعمات" ، وهى احدى قريبات وهى أقرب الى عائلة أمى منها الى عائلة أبى . فهى ابنة ابنة عمتها "نفوسة" شقيقة جدى لأمى . وقد أضافت امى الى صفاتها أنها "ست بيت" (من كله) . ليس فقط تعجن وتخبز وتغسل ولكنها تستطيع طهو الطعام . وفضلا عن ذلك كله فهى التى اختارتها لى خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى قبل وفاتها ، أى وأنا وهى كنا مازلنا صغارا نرتع ونلعب ونأمل فى المستقبل ليتحقق الأهداف والأغراض :

"كل له غرض يسعى ليدركه"

وجاء منتصف شهر شهر مارس ١٩٣٢ ، وزفت عروستى الىّ . وكنت فى سن التاسعة عشر وشهر أو أقل قليلاً .

ومنذ يناير عام ١٩٣٠ وحتى الآن وقد مر عامان أو يزيد كنت فى معركة الحياة أعيش فى بحرها الشاسع . ألاطم أمواجها وتلاطمنى أمواجها . والحياة كما رأيتها فى خلال هذه الفترة ومابعدها كانت (ولاتزال) معركة ، ميدان قتال ، وكنت أرى أنه لاينبغى للمرء فى معركته ان يركن الى الخمول حتى لاتضيع الفرصة التى من أجلها يجنى ثمرة الغنى وزهرة الخبرات التى يكتسبها . وكم من الخبرات اكتسبت فى تلك الفترة وهأنذا أبدأ صفحة جديدة فى حياتى ، الحياة الزوجية . ونظرت أمى الى أمام لتتلقى ثمرات هذا الزواج من أبناء ذكور وبنات اناث . انها تعيش من أجل تحقيق هذا الحلم ، فلعل هذا التحقيق أن يخفف عنها ماتعانيه من احزان واتراح . ولعل هذا التحقيق أن يبدل هذه الأحزان والاتراح أفراحا تفعم قلبها المظلوم وتعيد اليها توازن الحياة الذى حرمت منه منذ وفاة أبى . كانت هى فى الواقع ترغب رغبة أكيدة فى زواج مثمر ففسرت اقتراح طلبى احتضان طفل وطفلة ليكونا أخا وأختا لى أننى أريد الزواج ورحبت أن يكون زواجا مثمرا ينجب الأطفال الذكور والاناث جميعا . وانا غير نادم على هذا الزواج المبكر . لقد ندمت فى بعض الأحيان بعد ذلك . ولكنى أرى أن هذا الزواج المبكر كان عاملاً من العوامل التى يسرت لى الطريق الذى انتهيت اليه فيما بعد . كان الفرق بينى وبين زوجتى نعمات شاسعا من حيث نظرتى نحو الحياة ونظرتها نحوها ، ومن حيث فهمى لأسرار الحياة وفهمها لهذه الأسرار . كنا بالطبع مازلنا فى مرحلة الشباب أو مرحلة المراهقة المتأخرة ، بدأنا كذلك ولكن الاستمرار وطوله والعشرة وطولها جعلانا نتقبل بعضنا . وجاء محمد ثم أحمد ثم أمال ثم سمير ثم تيسير ثم مسعد كانوا لنا الحبل المتين الذى حفظ زواجنا من الانهيار . وعندما توفى محمد لم يكن الحزن عليه شديدا فقد كان أحمد موجوداً . وبقيت ثمرات زواجنا ، وكانوا فى احضان أمى

يعيشون حولها ويملؤون عليها حياتها . فهى الصدر الحنون ومن قلبها الحب الذى يتدفق على كل واحد منهم ، والرقة فى صدرها لاتنضب . كانوا صغارا جاءوا الواحد بعد الآخر فتراهم ينامون معها ويسابقون بعضهم بعضا الى اقرب مكان من جسدها . كان عرقها فى أنوفهم الصغيرة عطرا لايأنفون منه بل يشتهون شمه . انظر اليهم ، عندما كانت أمى تعود من زيارة لأقارب ، وهم يغنون النشيد المحبب لديهم :

"ستى جت ستى جت"

وأنظر اليها تتلقاهم فى فرح وحبور وتبدأ تخرج من بين ثدييها الحلوى اشكالا وألوانا وتعطى منها كل واحد نصيبه . والسعادة تخيم على الجميع . وأنا انظر الى هذه الروابط الانسانية فلا أقول شيئا وأن كنت اترك لقلبى أن يقول مايشاء . ان كل همى فى هذه الحياة أصبح أن أسعد بسعادة الآخرين ، فاذا كان الآخرون هم أمى وزوجى واولادى فقد أديت واجبى .

وكان لشهر مارس عام ١٩٣٢ فى حياتى أثر كبير أخر ، فقد حدث قبل دخولى بزوجتى نعمات باسبوع أن طلبت للتجنيد ، ولما كنت "وحيد والده المتوفى" فقد افرج عنى فلم أجند ولم أدفع " بدل تجنيد " كما كان يحدث ذلك فى ذلك الحين . ولكن الذى حدث كان امرا خطيرا . كانت "كلية العلوم" تقع فى ميدان العباسية بجوار ادارة التجنيد ، وعند ذهابى الى الادارة مررت بالكلية وعند عودتى من الادارة وقد اطلق سراحى مررت بالكلية . وقد رأيت فى المرة الثانية الطلبة فى "فسحة" ، وعرفت منهم أكثر من واحد كانوا معى فى نفس الفصل بالمدرسة الخديوية الثانوية . بدأت اللهفة على مواصلة التعليم بعد الحرمان منه فجأة تتحرك فى نفسى فجأة أيضا . عشت مع هؤلاء الطلبة زملائى فى أحلام اليقظة . وكنت فى أثناء النوم أرانى أحلم أننى أجلس معهم اتلقى الدروس فى الفصل تماما كما كنا فى السنة الرابعة الثانوية .

وعشت قلقا وأحسست بأن البذرة التى وضعها مرورى أمام كلية العلوم ، بذرة التفكير فى العودة الى طلب العلم ، بدأت تنمو وتتفتح . ولكنى هانذا قد تزوجت وأصبحت أؤدى دورا جديدا هو دور الزوج ثم بدأت أؤدى دورا اخر هو دور الأب . فكيف السبيل الى استئناف طلب العلم ؟ بدأت أقرأ ، اشترى كتبا ومجلات جادة مثل "السياسة الاسبوعية" و"مجلة المصور" و"مجلة الرسالة" . وكانت الكتب تدور حول الادب مثل كتب العقاد والمازنى وقبلها المنفلوطى "النظرات" و"العبرات" وغيرهما . وكتب طه حسين بدأت بكتاب "الايام" ، وكنت أقرأ كتبا دينية معظمها من الكتب الصادرة عن "الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية "بعطفة الجوخدار بالمغربلين . بدأت أذهب الى هذه الجمعية يوم الجمعة من كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة ثم بعد صلاة المغرب فى نفس اليوم لاستمع الى دروس "الشيخ محمود خطاب السبكى" وقد اجتذبتى هذه الجمعية لعوامل عدة منها أن ابن خالتى "الشيخ محمد" قد انخرط فى صفوفها ، وتبعه ابن عمتى "محمد البودى" وكان صديق الحارة "محمد بدر" قد سبقنى الى الانضمام . وفى "الحته" رأيت العديد من أشرارها قد أرخوا لحاهم وحفوا شواربهم ولبسوا العمامة ذات العذبة . كانوا يمرون امام الوكالة يبدون لى النصيحة لكى أكون واحدا منهم . ومن هؤلاء كان "الشيخ كركر" بائع الشاى . كان ينادى على الشاى قائلا فى وقار "شاى عنبر" ويبيع لمن يطلب منه شراء كوبة أو أكثر بنقود قليلة لاتسمن ولاتغنى ولكن البركة "حاصلة" وكان من زبائن الوكالة "الشيخ عبدالعزيز" و"الشيخ قطب" و"الحاج أحمد" وغيرهم من تجار حى عرب اليسار . والأخير كان متيسرا أى ذا املاك ورثها عن أخته التى كانت تتاجر بجسدها . عندما طلب الفتوى فى هذا الميراث هل هو حلال أم حرام ، فقيل له أنه ميراث حلال ، والوزر لايكون على الوارث ولكن على المورث . فتنفس الصعداء وابدى همة كبيرة فى العبادة وفى الكرم .وعندما احس

"الحاج أحمد" بقرب الوفاة مر على جميع من كانوا يدينونه ومات في يومه عندما سدد ديونه جميعا . واعتبر مافعله "الحاج أحمد" كرامة منه ودليلا على صلاحه . وكان ضمن أعضاء هذه الجمعية "الشيخ محمد الذوق" وكان يعمل فى صناعة النجارة وكان حاذقا أمينا . وكان الشيخ الذوق وكان أكبر سنا . لايفتا أن يحكى لنا عن مغامراته فى ثورة عام ١٩١٩ من حيث الاشتراك فى اقامة "المتاريس" وتوزيع المنشورات وغيرها .

وانا اعتبر أن الشيخ محمود خطاب استاذى الاول فى الدراسات شبه المنتظمة . كان شيخا وقورا حافظا لعلمه ومواظبا على العمل بما يعلم . كان تقيا نقيا وكان يدعو الى العمل بالسنة كما كان يؤديها النبى محمد صلى الله عليه وسلم سواء كان يؤديها قولا أو عملا . ويستشهد بالآيات القرآنية التى تؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة ، وان ماجاء به عليه الصلاة والسلام يجب أن يؤخذ به وأن مانهى عنه يجب أن ننتهى عنه . ودرس الشيخ محمود خطاب درس السهل الممتنع . كنا نرى الرجل وهو يتحدث وكأن النور يخرج عقب كل كلمة ينطق بها . كان وجهه مضيئا دائما ، وجبهته بيضاء لامعة . وكانت عمامته بيضاء تبدو منها العذبة تتهادى وهو يحدثنا بين كتفيه . اما لحيته فبيضاء طويلة وكأنها الفضة . وكان المصلون بعد صلاة الجمعة او بعد صلاة المغرب فى نفس اليوم يحملون "دكة" يجلس عليها فى صحن الجامع الذى بناه خصيصا لكى تؤدى العبادات كما كانت تؤدى فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان يحمل عصا . وماأسعد من يضربه بها من الملتفين حوله . فضربه بركة وشفاء . وكان يرفض رفضا قاطعا اذا ماأراد أحدهم أن يقبل يده . كانت دروسه خصبة فيها الاخلاص يحسه السامع من الاعماق . وكنت اقرأ كل ماألفه الشيخ محمود . وقد اسعدنى ذات مرة عندما ذكر احدهم اسم "الشيخ محمد عبده" فقال توا "رحمه الله" . فالشيخ محمود خطاب لم يكن على وفاق مع العديدين من مشايخ الازهر .

كان يرى غير مايرون . وكانوا يرون فيما يدعو اليه عدم المرونة . فالعصر غير العصر . والظروف غير الظروف . ولكنه كان مصرا مؤمنا بكل مايقول ويدعو اليه . ودليله القران الكريم والسنة المحمدية السمحاء . وكنت فى بعض الأحيان اجلس مع اخرين جلسة بعد العصر حتى يأتى موعد صلاة المغرب فنصلى ويذهب كل واحد بعد ذلك الى حال سبيله أو ينتظر ليصلى صلاة العشاء . كان فى أثناء هذه الجلسة يتحدث فى أشياء عديدة تدل على سعة أفق . وقد سمعته يعلن أمامنا أن قراءة القرآن الكريم فى الاذاعة حلال حلال حلال . وقد كانت هذه القضية قضية الساعة . قال الشيخ محمود أن المرء منا قد يكون فى الحمام ويسمع جاره يقرأ فهل يطلب من الجار أن يصمت حتى ينتهى جاره الذى يقضى حاجة . ولعل هذه الفتوى ان أكدت للقارىء المصرى المعروف "الشيخ محمد رفعت" اباحة قراءة القرآن فى الاذاعة فقد كان ممتنعا تحرجا وخشية من أن القرآن يسمع والناس على المقاهى او على قارعة الطريق ولايستمعون له أو ينصتون لعلهم يرحمون . وكان وهو فى جلسة بعد العصر يضع أحدهم "كوزا" به ماء وأراه يضع أصبعه فى الماء ويتمتم بعبارات لاتسمع . ثم يأخذ الكوز بين يديه ويضعه على فمه ويعب منه أكثر من مرة ولايبلع ما يصب . ثم يدور الكوز على الحاضرين فيتناول كل واحد من الحاضرين شربة . وكنت امتنع عن فعل ذلك . فلم اكن أثق فى تأثير مافعله ، الشيخ محمود خطاب وهو يضع أصبعه فى الماء ثم يتمتم بعبارات غير مسموعة ثم يعب دون مايبلع شيئا من الماء . ومن ثم فابتعد عن تناول الكوز الذى يتهافت عليه الكثيرون ولايلاحظ احد امتناعى ، وكنت لاأشعر بأية خطيئة فيما أفعل .

وعرفت من مدرسة الشيخ محمود خطاب السبكى غير من سبق أن عرفتهم "الشيخ عبدالله العفيفى" الذى كان يخطب الجمعة ويصلى بالناس اماما وعلى رأسهم "الشيخ محمود" نفسه . وكان خطيبا مفوها . ترى عينيه مكحولتين بالكحل "الأثد" أسوة بما كان

يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام . وشعر رأسه وشعر لحيته الكثة مصبوغين بالحناء . وكان وجهه أبيض مشرب بالحمرة . فكان يبدو على الرغم من كبر سنه وسيما . وكان فارع الطول ضخم الجثة ذا طلعة مهيبة . ومع ذلك فقد قيل عنه انه كان مزواجا . كان كلما دعى للخطابة فى قرية من القرى يتزوج ويطلق قبل أن يتزوج . والشيخ درويش الجعبرى كان من أساتذة المدرسة الخطابية . كان من أهل فلسطين . وكانت سمات وجهه ولهجته تنم عن ذلك بوضوح . وكان فى الدرس لايقول الا ماقاله فى الدرس السابق . فكان حديثه يدور دائما حول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يأمر باعفاء اللحى واحفاء الشوارب . وتراه من الذين يحلقون ذقونهم سخرية لاتهز مشاعر المصريين . وكانت تشبيهاته معادة ومكررة . ومع ذلك فكنت ترى وجهه وكان النور يسطع منه ، نور الطيبة وضياء التقوى . أما "الشيخ على حلوة" فقد كان الاخلاص المجسم والتقى النقى والحافظ للقرآن الكريم وللأحاديث النبوية ، والمفسر للآيات وللأحاديث . وكان يبدو لنا وهو يحدثنا وكأنه غير موجود . فصوته مسموع ولكنه كان يأتى من بعيد . ولهذا الرجل معى موقف . فقد كنت أحب هذا الرجل وكان يحبنى . وكنت أجله وكان يدعو لى بالدعوات الصالحات . ولما اشتد اهتمامى بالفكرة التى داعبتنى منذ مرورى أمام كلية العلوم ورأيت زملائى واقفين فى حوش الكلية يتسامرون ، فكرة العودة الى استئناف الدراسة المنتظمة . ولما كانت هذه الفكرة تلح على "الحين بعد الحين على الرغم من ارتباطاتى بادارة الوكالة وبالزواج وانجاب الأبناء فضلا عن رعاية أمى ـ تجاسرت وسألته فى أثناء الدرس الذى كان يلقيه فى الزاوية التى أنشأتها مع بعض الاخوان بجوار الوكالة ـ عن وجاهة هذه الفكرة ، وكنت على وشك بلوغ سن الواحدة والعشرين . فقال لى أمام الملأ :

"ان كنت تبغى من استئناف الدراسة وجه الله فاعتمد على الله . وافعل وان كنت تبغى عرض الدنيا فعرض الدنيا زائل" .

واعتبرت الاجابة عن سؤالى بالايجاب . وأكاد اجزم الآن وأنا أكتب هذه السطور أنه لو أمرنى بالكف عن التفكير عن موضوع استئناف الدراسة المنتظمة لكففت عن ذلك حتما . كانت منزلة هذا الرجل عندى رفيعة وكنت أقدر اخلاصه وتواضعه وغزارة علمه .

وأذكر ضمن من أذكر من أساتذة المدرسة "الشيخ أحمد على" . كان رجلا طيبا بمعنى الكلمة . كان نظيفا أنيقا طاهرا مباركا فيه . يقول الكثيرون عنه أنه صاحب كرامات . فقد كان أهم مايشغله الورق الذى يرميه الناس فى الشوارع . مثل ورق الجرائد والمجلات أو الكتب القديمة . ان هذا الورق مملوء بألفاظ وعبارات حروفها كلها حروف اللغة العربية . واللغة العربية لغة القرآن الكريم . وان بعض هذه الحروف قد يكون "لفظ الجلالة" أو قد يوجد فى بعض هذه الأوراق لفظ الجلالة أو اسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . أو قد توجد بعض الآيات القرآنية . فكيف تترك هذه الأوراق فى شوارع القاهرة يدوس عليها الناس بالاقدام . ان الشيخ أحمد على عليه واجب مقدس هو أن يحمل كل يوم بعد صلاة الفجر مباشرة "جوالا" ويجمع فيه هذه الأوراق المبعثرة فى الشوارع أو فى الحارات . ثم يحرقها ليتأكد من صيانة اللغة والآيات الكريمة وأسماء الله الحسنى وأسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك كله تقربا الى الله جل شأنه وزلفى لرحمته عزل وجل . كنت أسمع عن هذه المهمة التى أخذ الشيخ أحمد على على عاتقه أن يقوم بها بعد صلاة الفجر كل يوم حتى يكل ويتعب أو حتى يتم له مايريد من جمع الأوراق أوراق الجرائد وأوراق المجلات وأوراق الكتب القديمة التى يرميها الناس بلا مبالاة فى شوارع وحارات مدينة القاهرة فى النصف الأول من الثلاثينات ـ ولم أكن أجد لهذا المجهود الكبير فائدة عظمى للانسانية . كما فعل "اديسون" مثلا عندما اخترع "لمبة الكهرباء" . وكنت اقارن

واقارن وكانت كفة "الشيخ احمد على" عندى غير راجحة .

وقد زاملت فى مدرسة الشيخ محمود خطاب السبكى الكثيرين من الشباب الذين كانوا فى مرحلة عمرى أو كان سنهم أكبر أو أصغر قليلا . كان زميل الحارة "محمد بدر" أحدهم . وكان "السيد سابق" و"شوكت وأخوه الاكبر" و"زاد الدين نور الدين" و"محمد صقر" ، و"خالد محمد خالد" . كنا نجتمع كلنا أحيانا وكان يجتمع البعض منا أحيانا أخرى . وكان الهدف الاول من اجتماعاتنا أن نعمل عملا صالحا من أجل أنفسنا ومن أجل الدين . وقد فكرت مع بعض الاخوان فى انشاء فرع للجمعية الشرعية بالسيدة عائشة . واتخذنا مكان الكتاب الذى كان يديره "الشيخ طه يوسف" وكنت طفلا من بين أطفاله أتلقى التعليم فيه ، اتخذناه بعد أن اقفل لوفاة الشيخ طه ، وكان يتبع وزارة الأوقاف ، زاوية لنصلى فيها ونتعبد . وقد نجحنا فى فتح الزاوية دون أن نأخذ إذنا من أحد ، وفرشت الزاوية بالحصر ، وأدخلت المياه ، ونقشت الحوائط ، وصنع المنبر ، تماما كمنبر الرسول بمواصفاته ومن نفس نوع الخشب "الاثل" ، ودفعت ثمن الخشب الخام ، وصنع المنبر النجار الماهر "الشيخ محمد الذوق" . وكانت كل التجهيزات التى عملت فى الكتاب ليكون زاوية قام بها متطوعون . فالاخوان كان فيهم الحرفيون من كل المهن . وفى ضوء اقتراحى تكونت جمعية تعاونية تجمع التبرعات وتدير الزاوية . وكان يأتى اليها أحد مدرسى الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية مرة كل أسبوع ، يلقى علينا الدرس فى الوقت الذى بين صلاة المغرب وصلاة العشاء . وكان الجميع يحرص على صلاة الفجر حاضرا ، وكانت صلاة العيد تقام فى مكان ممهد فى جبل المقطم . وأصبح الافراد بفضل الزاوية وما تستلزمه من القيام نحوها من مسئوليات رجلا واحدا . واصبحوا فعلا وحقا على قلب رجل واحد . يسارعون الى الخيرات ويعملون من أجل الخير العام ، الخير الذى يعمهم والخير الذى يرفع من شأن دينهم . كانوا أو كان معظمهم من

الناس البسطاء ، لايملك الواحد منهم أكثر مما يقتات . وكان الجميع يعملون من أجل لقمة العيش الشريفة الخالصة . وكان الأمى منهم يحاول أن يتعلم القراءة والكتابة ، واذا لم يجد الوقت لذلك فهو يحفظ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويعرف ماهو حلال فيعمله وماهو حرام فيتجنبه . كانوا يعاملون "جماعاتهم" أى زوجاتهم معاملة حسنة . ولم يخل بعضهم من أن يرتكب المخالفات ، وسرعان مايعود مستغفرا . واذكر أن أحدهم وكان يعمل فى مصانع "السكة الحديد" ولم يكن متزوجا وكان بحكم وظيفته من حقه أن يركب القطار الى أى مكان مرة فى العام ولايدفع ثمنا لتذكرته . واذا كان متزوجا فان من حقه أن يأخذ لزوجته تذكرة ركوب مجانية . ولسبب قد يرجع بالضرورة الى "الطمع" وكل واحد منا نحن البشر يداعبه شىء من الطمع قل هذا الشىء أو عظم - وهذا هو الوتر الحساس الذى يلعب على المجنى عليهم به كل نصاب - فان هذا الأخ ادعى بأنه متزوج وطلب تذكرتين للسفر مجانا الى الاسكندرية ، وصحبته فى هذه الرحلة ذهابا وايابا أخت من أخواته . وانتهى الأمر ولم يعرف أحد عن هذا الموضوع شيئا . وحدث أن تزوجت هذه الأخت أحد الاخوان . وعندما اختلف الزوج مع زوجته أخت العامل بالسكة الحديد وكان قد عرف بموضوع التذكرتين أبلغ المسئولين فى الادارة . فحقق مع العامل . وكان نصيبه الرفت من العمل . وعرف أن هذا تكفير لخطأ ارتكبه . وصدع للأمر ، واستغفر الله كثيرا كثيرا ، وعوض عن وظيفته بعمل آخر كان أنفع . كانت هذه المخالفات تحدث من ان لآخر . ولن أنسى ماحييت عندما جاءنى "الحاج محمد الفولى الفراش" وكانت عيناه كالدم احمرارا . وذكر لى أن الدرس الذى حضره بالأمس ذكر الشيخ فيه أن "سب الدين" من أكبر الموبقات ويودى بصاحبه الى الكفر ومن ثم فان زوجته تصبح طالقا . فماذا يفعل وله من زوجته أبناء . وانه كان قبل أن "يهتدى" يسب الدين فى اليوم

مرات ومرات ؟ فذهبنا الى الشيخ الذى قال له "ان الدين يسر لاعسر فلا عليك ياهذا فان أبناءك هم أبناؤك فالابن للفراش "ورأيت الرجل بعد ذلك يبكى فرحا ومالبث أن انفرجت أساريره وواجه الحياة بعد ذلك بصدر أرحب . وجاءنى فى أحد الأيام "محمد السقا" وقال لى أنه عندما كان فى شرخ الشباب كان يمتهن بيع الماء بالقربة ، أى أنه كان يعمل "سقا" . وكان يدخل البيت حاملا القربة مملوءة بالماء ويفرغها فى "الزير" حيث أن البيوت أو معظمها فى ذلك الحين لم تدخل فيها المياه الجارية "مياه الكومبانية" . كان يدخل البيت كما يدخل اليوم كشاف عداد الكهرباء أو العامل الذى يصلح التليفون فلا يجد أحدا من الذكور البالغين ، قد يجد أطفالا أو لايجد أطفالا . ولكنه فى كل مرة تستقبله "ست البيت" وكان محمد السقا شابا مملوءا بالحيوية وفورة الشباب بادية على جسمه وتنظر من عينيه . فكان محط أنظار "ست البيت" الشابة التى يجتذبها شبابه وتغريها حيويته . وسرعان مايحدث بينهما مايحدث عادة بين الزوج وزوجة . ولارقيب يخشيانه ولكن جاذبية الجنس كانت تكون دائما هى الغالبة . وقد تكرر ذلك منه كلما كان يذهب الى بيت "زوجة الشيخ محمد بركات بياع العيش" ، ويبدو أن حيوية محمد السقا الشابة الجذابة كانت تجتذبها فكانت لاتخشى أحدا ولاترى سوى اشباع نهمها الجنسى . وكبر محمد السقا وترك مهنته ، ثم تزوج . وهاهو يندم على ماكان يفعل . والشيخ محمد بركات أصبح أحد أعضاء الجمعية وكان رجلا مسالما متوكلا على الله ولاهدف له الا أن يعيش فى الدنيا حياة طيبة أملا فى سعادة الحياة الأخرة . فكان ورعا طيب النفس مسامحا . وذهبت بمحمد السقا اليه ، وكنت عند الرجل أثيرا ومحبوبا فطلبت منه بعد تحية السلام الدعاء لى فدعا لى بحرارة ثم طلبت منه أن يسامحنى فسامحنى أيضا بحرارة . وطلبت لمحمد السقا نفس ماطلبت . ثم ذهبنا محمد السقا وأنا الى الوكالة ، ورأيت أن أسارير محمد السقا قد عاد اليها الأمن

والأمان . وانه أكد ندمه على مافعل . فان الذى فعل كان من "طيش الشباب" . واطمأن لأن الرجل قد سامحه وان كان لم يعرف عن أى شيء مسامحته له .

والأحاديث عن المخالفات كثيرة . ولكن كانت اعظم منها الايجابيات التى تطغى عليها وتكاد أن تمحوها . فكان الجميع كل واحد منا يتبع السيئة الحسنة لتمحوها . وكنا لانستهدف الا ماكنا نعتقد انه خير للناس وخير للدين . ولكنى لم اكن استسيغ بعض الامور وكنت اخالفها أو اجادل فيها عننا . كان يحرم علينا مثلا ان نقرأ الجرائد فهى مضيعة للوقت . وكنت اقرؤها . وكان يحرم علينا ان نقرأ مجلات المصور واشباهها لاننا نجد فيها صورا للنساء العاريات الكاسيات . وكنت اشتريها واقرؤها . وعندما ظهر فى السوق كتاب "الضاحك الباكى" لفكرى اباظة كنت اول من اشتراه لاقرأه . وكتاب "عودة الروح" لتوفيق الحكيم اشتريته وقرأته . وكانت "مجلة الرسالة" "الطلقة الغذائية الاسبوعية" لعقلى اشتريها واحرص على قراءتها . ولم أكن أبالى لما كان يقوله البعض عنى . بل على العكس كنت أحرض هذا البعض أو غيره على قراءة ماأقرأ . وكنت كلما قرأت لااشبع . وكنت أشعر بأننى أفهم أكثر وأسرع وفى حاجة الى ان اقرأ . ولم اترك البانوراما البشرية التى كانت أمامى فى السوق وفى المسجد وفى كل مكان وفى كل مناسبة اقرأ فى ضوء خبرتى الضئيلة بعض سطورها . كان المجتمع المحلى الذى اعيش فيه وأصحبه ويصحبنى كتابى الأول . فانا مبهور بما أرى فى الأفراح وحفلات الميلاد وحفلات الزار وعندما تنشب المعارك بين "عائلة زردق" وبين عائلة "الحاج سيد" . وكانت هذه المعارك تبدأ عادة فى شهر رمضان . كنت أرى النساء والرجال يختلطون بعضهم ببعض اختلاط الحابل بالنابل . كانت شتائمهم تبدأ من بعد الظهر حتى وقت الغروب . وربما سالت الدماء بينهم . وكنت أرى أجساد النساء عارية وهن يؤدين ضروب الاعتداء باللسان او باليد أو بالرأس "الروسية" . ولم يهتم احد

برمضان "الشهر الكريم" ، ولايحاول أحد التدخل . وكان رجال البوليس (الشرطة الآن) لايتدخلون ويتركون المتعاركين يتعاركون حتى تهمد انفاسهم . وتهمد انفاسهم فعلا حين يضرب المدفع وقت الغروب . كانت كل هذه الأمور تستهوى انتباهى وانا بالطبع لست •راضيا عنها ولكنى راصدا لها . وقد لعبت ظاهرة الموت دورا كبيرا فى حياتى منذ ان كنت طفلا عندما ماتت عمتى أو عندما وجدتها ملقاة لاتتنفس امامى . وكان شارع السيدة عائشة يمر به الموتى كل يوم . وكنت عندما العب الكرة فى قرافة "الزرعى" ارى الموتى وهم يدفنون . وقد كان للموت الاثر الاكبر فى حياتى فى مستقبلى عندما مات ابى وكنت فى السابعة عشر من عمرى او قبل ذلك بقليل ، عقب اداء امتحان نصف السنة الدراسية للسنة الرابعة الثانوية مباشرة .

وكان انقطاعى عن الدراسة غصة نكبت بها ولم ينقذنى منها الا إجابة الشيخ على حلوة . كان عام ١٩٣٤ قد بدا . فأخذت استعد لاستئناف الدراسة من أجل الحصول على شهادة "البكالوريا" وعزمت على أن ادرس علوم السنتين الرابعة والخامسة فى عام واحد وهو عام اكتوبر ١٩٣٤ - يونيو ١٩٣٥ . واشتريت الكتب الضرورية ، وبدأت استذكر دروسى . ورأيتنى استوعبها وانا أكثر نضجا . فلم اجد صعوبة كبيرة فى الاستذكار . ولكن الوقت لايسعفنى . فانا مازلت ادير الوكالة ومعى العمال الذين ينتظرون أجورهم فى أول كل شهر . وانا مهتم فى أوقات أخرى ، كسكرتير مجلس إدارة الجمعية الذى يشرف على إدارة الزاوية ، بالاشراف على مهام عديدة واداء بعضها . وانا مسئول عن امى وزوجتى وابنى احمد . وكنت مازلت أعيش فى بيت أسرة جدى لأبى تحقيقا لرغبة أمى التى لاتزال ترى أنها قطعة من هذا البيت وان هذا البيت قطعة منها . واستشرت احد اصدقاء ابى "الشيخ سيد قاسم" وكان عميلا لأبى ثم ترك حانوته . وعمل بأحد الوظائف فى "كتبخانة القلعة" واصبح لديه الوقت الكافى لكى يزور ويزار . فقد

أصبح "موظف حكومة" . وكان رجلا رشيدا فنصحنى بعد ان شجعنى بأن التحق بالمدرسة "الثانوية الليلية" ، فهى مدرسة معروفة وسمعتها العلمية لاتشوبها شائبة . وكانت هذه المدرسة تقع فى شارع "ابراهيم باشا" ثم نقلت الى حى "الفجالة" ، وكان يديرها "الاستاذ راغب مرجان" ، كان يجلب لها احسن المدرسين ويتقاضى مصاريف معقولة . وكان ضمن المدرسين أستاذ الجغرافيا والرحالة المعروفة "الاستاذ محمد ثابت" ، وكان مدرسو اللغة العربية واللغة الانجليزية واللغة الفرنسية من أعلى المدرسين مكانة وشهرة . وذهبت الى الثانوية الليلية فى شهر أكتوبر عام ١٩٣٤ ، ووجد عددا كبيرا من الطلبة من العاملين فى وظائف الحكومة أو فى الشركات . وكنت بين قليلين الذين كانوا يعملون فى الأعمال الحرة . ولايمكن الا ان أذكر اليوم الأول الذى التحقت فيه بالمدرسة . كان يوما حاسما فى تاريخ حياتى مافى ذلك من شك . وقد رأيت أن أشترى "بسكليت" لأذهب بها وأروح . فكانت المسافة بعيدة من حى الخليفة حيث تقع الوكالة أو بيتى الى مكان المدرسة . فكنت أركب البسكليت من شارع السيدة عائشة حتى الميدان ثم أمر بشارع "عوام بك" وهو شارع منحدر ، ثم الى الحلمية الجديدة فالحلمية القديمة فميدان عابدين فشارع ابراهيم باشا ثم عندما انتقلت المدرسة الى شارع الفجالة انتهى اليه . كانت رحلة تبدأ من الساعة الخامسة مساء وتنتهى عندما أعود الى الوكالة فى الساعة العاشرة مساء . خمس ساعات أقضيها فى السعى الى تلقى العلم وتلقيه فعلا . وللمرة الأولى أجدنى أتعايش مع زملاء أكبر منى سنا وأصغر منى سنا وكان عدد المسيحيين أكبر من عدد المسلمين . وكان هم الجميع هو الاجتهاد فى سبيل التحصيل حتى يتم الحصول على الشهادة المطلوبة : شهادة البكالوريا . استمرت الأيام والليالى فى الخريف ثم الشتاء ثم الربيع ثم الصيف . وكانت جهودى من اجل التحصيل جهودا حبيبة الى نفسى . كنت اسعد عقليا ووجدانيا لكل ليلة . وعندما

اقرب من شارع عوام بك فلا استطيع لهذا الشارع المرتفع رقيا . فكنت امشى وانا أجر البسكليت بجوارى . وعزمى يشتد وارادتى فى سبيل تحقيق الهدف تبدو حديدية . وجاء شهر يناير عام ١٩٣٥ . وقد مرت على وفاة ابى خمس سنوات بالشام والكمال . وعلى الرغم من الاعباء التى كان كاهلى ينوء بها او كاد فاننى قررت أمرا وافقت عليه أمى دون ماتردد . فقد اجابت عندما قلت لها اننى لن أعود الى الوكالة بعد اليوم . وكان اليوم يوم ٢٢ من يناير عام ١٩٣٥ نفس اليوم قبل خمس سنوات عندما اخذت مفاتيح الوكالة لابدأ فى ان أحل محل أبى المتوفى قبل ذلك بخمس سنوات وانقطعت عن الدراسة وكنت فى منتصف العام الدراسى . اننى اذكر ذلك اليوم جيدا ولايمكن ان انساه . فقد كان يوم قطع مرحلة من حياتى قسرا واضطرنى لأن أبدأ مرحلة من حياتى قسرا أيضا - قالت أمى "اعمل اللى انت عاوزه ياابنى . انا دعيالك . وربنا معاك" . وكان قرارى منطقيا فانا ادرس علوم سنتين فى سنة واحدة . والآن . فى ذلك الوقت . ويبقى حوالى ستة شهور فلاتفرغ للاستذكار حتى أضمن النجاح . ان الوقت عندى كنت اقول لنفسى . من ذهب . بل مما هو اغلى من الذهب . ويكفينى ان ضاعت من عمرى خمس سنوات هباء . والواقع وأنا أنظر الى الخلف الآن أرى ان تلك السنين لم تذهب هباء . لقد زودتنى بالخبرات التى لم أكن أجدها الا فى موسوعة الحياة الاجتماعية التى خضت غمارها فصقلتنى وصقلتها . وعشت بها بعد ذلك ومعها . ولكنى فى ذلك الحين فى يوم ٢٢ من يناير عام ١٩٣٥ كنت أعتقد ان ١٨٢٥ يوما ذهبت من عمرى دون مادعى . واننى لو كنت بقيت مستمرا فى دراستى لكنت قد تخرجت فى احدى كليات الجامعة او كنت على وشك هذا التخرج . ولكن ماكان قد كان . والآن فى ضوء عزيمتى التى برزت من التجارب وارادتى التى استمدت صلابتها من الخبرات . فاننى مزمع على طلب العلم المنتظم . وليلهمنى الله الرشد والصواب . وليحقق لى الآمال . انى أطلب العلم للعلم لكى

اخدم الانسانية لذاتها . اذا كان لكل امرىء غرض يسعى ليدركه ، فان الحر يجعل ادراك المعالى له غرضا . كنت اتغنى بهذه المعانى المطلقة فى سرى أحيانا . وكنت أتغنى بها بصوت مرتفع أحيانا أخرى . كنت كما بدا لى فى ذلك الوقت استمد من ترنمى بهذه المعانى القوة على ماانا بصدد تحقيقه فى خطواتى الاولى . خطوة الحصول على شهادة "البكالوريا" .

وقد يسر لى مرور الوقت وانا أعيش فى البيت مع أمى وزوجى وولدى أحمد . ان ابن عمى عبد المنعم كان منذ أكثر من عام قد رأى بعد ان خلا الجو من منافسى أبيه فى الميراث بعد وفاة جدى أن يطالب بحوش المنزل ومافيه من حجرات ليجعل منها فصول مدرسة ابتدائية أهلية يكون هو ناظرها . وأجيب الى طلبه بعد عمل بعض الترميمات اللازمة . وكان يعوزه بعض النقود لكى يؤثث هذه المدرسة ويشترى لها "التخت والسبورات وغيرها من الأدوات الضرورية" . وقد طلبت منى أمى أن أقرضه النقود التى يحتاجها وكنت مازلت فى الوكالة . ففعلت وبعد قرارى بترك الوكالة استعدادا للاستذكار من أجل اجتياز الامتحان فى شهر يونيو عام ١٩٣٥ . وجدت ان اقضى بعض الوقت . للتغيير الضرورى ولكى أفسح لأمى وزوجى المكان لكى يؤديا ماعليهما من مهام من حيث النظافة والطهو وتنظيم الحجرات . فى المدرسة . وتفرغت لتدريس اللغة الانجليزية . مقتفيا اثار مدرسى الأول فى المدرسة الابتدائية "أحمد افندى على" . وقد سعد التلاميذ بهذه الدروس كما سعدت . فقد احببتهم فوجدتهم أحبونى . وكنت فى كل قوله اقولها أو حركة أؤديها أبغى مايفيد ويصلح . وكانت النتيجة مثمرة لى ولهم . فقد تدربت على ترويض الاطفال والصبيان . وهم افادوا من توجيهاتى ومن دروسى . عندئذ لم يحز فى نفسى كثيرا عندما أبلغتنى أمى أن عبد المنعم . وكان مولعا بقراءة الكتب واقتنائها . كان قد طلب أن يأخذ كتب أبى والمجلات التى كان يحفظها فى مكان مناسب لانق يؤكد اهتمامه بها واحترام مؤلفيها ومن يكتبو

فيها . فأعطتها له ولم تقل لى شيئا عن ذلك الا بعد فترة طويلة . حزنت من أجل اعطائها هذا التراث من أبى . وكنت أولى به من أى شخص . ولكن اتاحة الفرصة لى لكى أقوم بالتدريس فى المدرسة الابتدائية الأهلية التى كان يديرها عبد المنعم ابن عمى محمود شقيق أبى لطفت من هذا الحزن وان لم تمحه محوا تاما . فأنا فى هذه السن ومازلت أذكر اعطاء أمى كتب ومجلات أبى التى كنت أولى الناس جميعا بأخذها واقتنائها . صحيح ان أمى أعطت للعديد ممن يستحقون ماكان يلبسه أبى من ملابس . ومنها الجديد الذى ماكاد أن يلبس . ومنها الاقدم الذى لم يبل . ولكن الملابس شىء والكتب والمجلات شىء آخر . ربما كانت الملابس أغلى ثمنا وعندما كانت أمى تمنحها للآخرين أو غيرهم كانت تمنحها على سبيل الصدقة . ولكن الكتب . وماأدراك ما الكتب ! ولكن المجلات (مجلات عبد الله النديم وصروف وغيرهما) وماأدراك ما المجلات ! أمور أخرى غير الملابس . ليتها أخذت رأيى فى طلب عبد المنعم ابن عمى . انها لم تأخذ رأيى فى منح الملابس ولم أكن أهتم فهذا أمر لم أكن أكترث به فى ذلك الحين .

وجاء الامتحان فى غضون شهر يونيو عام ١٩٣٥ . وقد بلغت الثانية والعشرين من عمرى أو يزيد . وجلست فى الامتحان فى مكان لم أكن أتوقعه . كانت لجنة الامتحان معقودة فى "مدرسة بنبا قادن الثانوية" حيث ناظرها "حسن على" ناظر المدرسة الابتدائية . ورأيت أحد ضباط المدرسة الذى كان يعمل فى المدرسة الخديوية الثانوية ، وكان أحد المراقبين . ورآنى . ونظر الىّ مليا وقد عرفنى . وكنت بالضرورة أعرفه فهو واحد من احاد اما أنا فكنت طالبا من مئات . ولكنه لم يحدثنى وأنا بدورى لم أحدثه . وذهب الى حيث لاأعلم ومن يومها بلعه الزمن فلم أره قط . وكان انتظار نتيجة الامتحان أمرا بالنسبة لى ولظروفى الاجتماعية والاقتصادية أمرا صعبا . كنا ونحن نجلس على "الطبلية" لنتناول

"الغداء" أو طعام "العشاء" تتلاقى عيوننا عينا أمى وعينا زوجتى وعيناى وتتحدث العيون ولاتنطق الافواه بكلمة . كنا نعيش على الرجاء ونرجو الصحة و الستر . والصحة فى ذلك الحين كانت متوفرة ولله الحمد والمنة . وكان الستر هو المطلوب كل المطلوب . وأحمد بيننا يلهو ويلعب ويناغى ويلاغى فما زال فى سنته الثانية لم يستكملها . فله الله ولأمى ولزوجتى ولى الأمل فى وجهه الكريم . اننى شاب كما يقول العديدون من الناس . من أعضاء الجمعية ، ومن غير الأعضاء . شاب نشأ فى طاعة الله . تدعو لى أمى اناء الليل وأطراف النهار . وتثق فىّ زوجتى وتأمل فى المستقبل الخير لها ولى ولابنها ولمن يأتى من بعده . فالأمل كبير فى مستقبل كبير . لم أندم قط على مافعلت حتى تلك اللحظة . وكان وجهى الى الامام . وكان اذا واجهت مايذكرنى بسلوك بعض الناس نحوى ، وبخاصة الذين كانوا يعاملوننى فى حياة ابى معاملة كريمة وفوق الكريمة . كان هؤلاء الناس من الأقارب وكان بعضهم من غير الأقارب ، وكنت عندما أهل أمامهم أجد الحب والحنان مشفوعين بما يملؤون به جيوبى بالحلوى أو النقود أو الحلوى والنقود معا . ما الذى حدث الآن ؟ . ان ابى قد توفى هذا أمر لا مراء فيه ، وهانذا تركت الوكالة وهو أمر لامراء فيه أيضا . ولكنهم بدأوا يغيرون من سلوكهم نحوى بعد وفاة أبى قبل تركى الوكالة . وهذا فى ضوء التجارب ، كما بدا لى أخيرا جدا ، أمر عادى . فالمكانة مكانتى قد تغيرت . وأدوارى الاجتماعية أيا قد تغيرت . ومصالحهم هم قد تغيرت . والمصالح كما رأيت بعد ذلك تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، أى أن كل أو معظم مايصدر عنا من انماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك .

٦ - مسيرتى فى مدرسة الحياة ومسيرتى التعليمية جنبا الى جنب

وظهرت نتيجة امتحان شهادة البكالوريا فى عام ١٩٣٥ فى

موعدها الموقوت . وكللت جهودى بالنجاح . والآن قد حصلت على هذه الشهادة وكان الحصول عليها فى ضوء ظروفى الاجتماعية والاقتصادية هدفا مرموقا . وقد فرحت من أجل ذلك . وكان فرحى فرحا رزينا . ولعله كان فرح الواثق فى رحمة الله ورضوانه . وقد فرحت أمى وكذلك زوجى من أجل حصولى على الشهادة . فانا الآن صرت "أفنديا" حقا . ونجاحى فى نظرهما هو مجرد تحقيق هدف ولابد أن تتبعه خطوة أو خطوات . أى أننى لابد ان أخطو خطوة أخرى على الأقل فأجد العمل المناسب حتى أستطيع ان أكفل أسرتى الصغيرة بشرف . فلا أحتاج الى أن امد يدى الى الآخرين . أقارب مقربين كانوا أو اقارب غير مقربين أو غرباء . ان دعوات أمى كانت كلها أو بعضها تتضمن "الستر" لى والستر لها والستر لزوجى والستر للصغير أحمد ومن سياتى من بعده من أبناء فى مستقبل الأيام . والستر هنا يعنى أول مايعنى أن أعمل لأكسب قوت أعضاء أسرتى بشرف . فلا أحتاج الى أحد . وقد سترنا الله جل وعلا حتى الآن . وحصولى على شهادة البكالوريا يعنى فى نظر أمى الحصول على الوظيفة التى تليق بى . ولم تكن أمى تعلم أن تحقيق هذا الهدف ليس أمرا سهلا . وبخاصة فى عام ١٩٣٥ عام حصولى على شهادة البكالوريا . أى العام الذى أصبحت أجاوز فيها الثانية والعشرين من عمرى . وكنت فيه متزوجا منذ ثلاث سنوات أو أكثر وأنجبت ابنا يعيش فى كنفى وتحت رعايتى . لم تكن تعلم امى أو زوجى وربما كل أعضاء العائلة الذين يعيشون فى "بيت عويس" الذى مازلت أسكن فيه حتى الآن . أو عائلة "بيت صبح" . أو عائلة زوجتى . لم يكن يعلم كل هؤلاء وغيرهم من أهل الحتة شيئا كثيرا عن أحوال عام ١٩٣٥ . وحتى إذا كانوا يعلمون فان "الجرى وراء لقمة العيش" كان شغلهم الشاغل . وهمهم الأوحد . لم يكن يعلمون مثلا أن الأمة المصرية قد تمسكت فى ذلك الحين بعودة دستور عام ١٩٢٣ . إذ هو الذى ارتضته فى حينه واقسم نوابها وشيوخها اليمين فى مختلف البرلمانات الصحيحة

على احترامه . ومن ثم عمت فى البلاد حركة إجماعية للمطالبة بعودته كاملا غير منقوص . ورأت الوزارة (وزارة نسيم باشا التى تألفت فى يوم ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٤ . وكان محمد توفيق عبد الله باشا وزيرا للحربية والبحرية فيها) مجاراة للرأى العام أن تساهم فى هذه الحركة . وقد اضطر الملك فؤاد فى يوم ٢٠ من شهر ابريل عام ١٩٣٥ الى اعادة دستور عام ١٩٢٣ ، ولكن الحكومة البريطانية عارضت فى عودة دستور عام ١٩٢٣ ، لم يكن يعلم الكثير من أهل حتتنا هذه التفاصيل فقد كان "الجرى وراء لقمة العيش" ، كما ذكرت ، شغلهم الشاغل ، وهمهم الأوحد . ولم يكونوا يعلمون أيضا شيئا عن تصريح "هور" (السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الحين) الذى ذكره فى خطبة ألقاها فى قاعة "الجلد هول" بلندن تناول فيها الحديث عن الدستور المصرى ، وصرح فيها بأنه عندما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأنه نصحت بأن لايعاد دستور عام ١٩٢٣ ولا دستور عام ١٩٣٠ (الذى أعلنه اسماعيل صدقى فى يوم ٢٢ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٠ بعد إلغاء دستور عام ١٩٢٣) . كان الناس فى حى الخليفة وفى الأحياء الأخرى من مدينة القاهرة وفى انحاء محافظات مصر ومديرياتها يهتفون بسقوط هور "ابن الطور" ، ولكن الكثيرين وبخاصة بنات وأبناء حى الخليفة "حتتنا" كانوا لايعلمون عما دعا الى هذا الهتاف شيئا دقيقا . وكانت أمى وزوجتى ومعظم أعضاء أسرتى ومن على شاكلتهم على نفس المستوى من العلم أو عدم العلم .

لم يكن يعلمون على التحقيق ماكان لتصريح هور من أثر على النفوس . كان الأثر شديدا مافى ذلك من شك إذ كان اعترافا صريحا بالتدخل البريطانى فى شأن الدستور وتمسك الحكومة البريطانية بهذا التدخل . فأثار أحتجاج الامة على اختلاف هيئاتها وطبقاتها ، كما أثار السخط على الوزارة القائمة إذ تبين من التصريح انها استشارت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور .

فخولتها ذلك تدخلا غير مشروع فى شئون مصر الداخلية الهامة .

وعندما قامت المظاهرات فى نواحى القاهرة وبعض المدن احتجاجا على هذا التصريح فى يوم ١٣ من شهر نوفمبر لمناسبة الاحتفال "بعيد الجهاد" ، علم أهل الحتة بها ولكنهم لم يعلموا بتفاصيلها . لم يعلموا أن البوليس (رجال الشرطة) قد قابل هذه المظاهرات باطلاق النار . ولم يعلموا بسقوط أول شهيد فى هذه الحوادث وهو "اسماعيل محمد الخالع" فى يوم ١٣ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ بالسرادق الذى أقامه الوفد احتفالا بهذا العيد . إذ اصابته رصاصة أودت بحياته بعد انتهاء الاحتفال وتدفق الجماهير تحت ضغط البوليس ، وكان هذا الشهيد عاملا يعمل بالسرادق . ولم يعلم الكثير جدا ومنهم أمى وزوجتى شيئا عن الشهداء "محمد عبد المجيد مرسى" و "محمد عبد الحكيم الجراحى" و "على طه عفيفى" و "عبد الحليم عبد المقصود شبكة" ، وكان الشهيد الأول طالبا بكلية الزراعة ، والشهيد الثانى طالبا بكلية الآداب ، والشهيد الثالث طالبا بدار العلوم ، والشهيد الرابع طالبا بالمعهد الدينى بطنطا . كانتا فى شغلهما الشاغل فى البيت ، تعانيان من العجين والغسيل وطهو الطعام والنظافة أقصد تنظيف الحجرات والمرافق فضلا عن رعاية ولدى أحمد ورعايتى . وكانت أمى بالاضافة الى كل ذلك مشغولة بزيارة الأقارب والجارات والصديقات أو شبيهات الصديقات . كانت لاتبقى فى البيت الا اذا كان اليوم يوم الغسيل أو كان اليوم يوم العجين ، واستمرت تخرج فى الأيام الأخرى للزيارة حتى ماتت بعد عشرين عاما من وفاة أبى . وقد اعفيت من يوم العجين عندما ازداد الطلب على "الدقيق" الذى نملكه من أعضاء أسرة عمى محمود شقيق أبى أو من الجيران الذين كثيرا مايطلبون "شوية" دقيق يردونها عندما يتوفر الدقيق لديهم . ولايرد احد مايأخذ سواء كانوا من الاقرباء او الجيران . وانتهى الأمر الى اقتراح شراء الخبز من المخبز المجاور ، ومن ثم توفر عناء أمى وأصبح يوم العجين فى خبر كان ،

أى أصبح من أيام الخروج للزيارة . كانت أمى لاتطيق المكوث فى البيت على الرغم من المناخ الثقافى الحانى الذى كان يملؤه فى ذلك الحين . ولعل ذلك أن يرجع الى حالتها النفسية التى صارت اليها فى ضوء القيود التى كبلتها منذ ان كانت فتاة صغيرة لاتعدو الثامنة عندما ضمها بيت الزوجية تحت سيادة "ستى حمدة" ثم "جدى لابى" ثم سيادة أبى وذكور العائلة كبارهم وصغارهم على السواء . وكان الهدف الأول الذى تريده أمى أن يتحقق فى ذلك الحين هو أن أعمل لكى أكسب وأعول أسرتى الصغيرة وأنا كريم النفس . وكان نفس هذا الهدف هدف زوجتى ، وكان قبل أيهما هدفى . ولكنى كنت متوكلا على الله ولم أكن متواكلا . فقد سعيت من أجل تحقيق هذا الهدف حتى قبل أن أجلس فى امتحان شهادة البكالوريا فى غضون شهر يونيو عام ١٩٣٥ .

ولم يمنع هذا الهدف الملح أن أكون على وعى بما يدور بالمجتمع المصرى فى ذلك الحين . فانا أذكر الآن أننى فى أوائل عام ١٩٣٥ أى فى شهر يناير أو بالتحديد فى يومى ٩ و ١٠ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، عندما دعا حزب الوفد المصرى فى أواخر عام ١٩٣٤ لجانه وأنصاره الى عقد مؤتمر عام للنظر فى شئون البلاد من شتى نواحيها ، ولم تتضمن هذه النواحى السياسية فحسب ، بل شملت بعض النواحى الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية كذلك - اننى حرصت الحرص كله على حضور هذا المؤتمر الذى عقد بمدينة رمسيس بالزمالك (مدينة الأوقاف الآن) وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر عام للوفد المصرى . وقد حضره حوالى خمسة وعشرين ألفا من حملة تذاكر الدعوة ، وجاءوا من جميع نواحى العاصمة (القاهرة) ومن مختلف المدن والثغور والاقاليم . وكان من أعظم المؤتمرات الوطنية شأنا ونظاما . وكان له صدى فى طول البلاد وعرضها . وبخاصة فى محيط اعضاء المجتمع المتعلمين ، والشباب منهم على رأس القائمة . وقد وقف الحاضرون ساعات يستمعون للخطب التى ألقيت فى هذا المؤتمر ،

ومنهم من حظى بالجلوس نفس الفترة ولنفس الغرض وقد عالج الخطباء فى المؤتمر مسائل وموضوعات ذات أهمية فى شئون البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وفضلا عن الموضوعات التى ألقيت عن الموقف السياسى والدستورى وعن الوفد المصرى : نظامه وأغراضه ، وعن القضاء فى مصر والامتيازات الأجنبية ، والمحاماة وحقوقها وانظمتها . والصحافة وحريتها - فقد تضمنت موضوعات هذا المؤتمر أيضا الازمة الاقتصادية ووسائل علاجها ، ومشروعات الرى والصرف ، وشئون التعليم والجامعة والأزهر ، وعلاقتنا الاجتماعية والاقتصادية بالنزلاء الأجانب ، وشئون الفلاح واصلاح القرية ، والمحاصيل الزراعية ووسائل تحسينها وتصريفها والتعاون فى مصر ووسائل تشجيعه ، والشئون الصحية العامة وأمراض المناطق الحارة ، والصناعة المصرية : تشجيعا وترويجها ، وتنظيم شئون العمال فى مصر ورفع مستواهم ، فضلا عن بعض الموضوعات الأخرى مثل شئون الأوقاف واصلاحها ، واصلاح الادارة والأمن العام ، وعلاقات مصر بأمم الشرق ، والمرأة المصرية ونصيبها فى النهضة القومية .

ولن أنسى ماحييت يومى ١٠،٩ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، فقد استمعت لمشاكل المجتمع المصرى فى ذلك الحين لأول مرة بطريقة منتظمة ومباشرة من بعض زعماء البلاد والمتخصصين . وأذكر أننى خرجت من هذا المؤتمر ، كما فعل الكثيرون غيرى ، وبخاصة الشباب منهم ، والاحساس بالمسئولية الضخمة نحو مصرنا الخالدة ونحو الاسهام فى مواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن السياسة التى كان يعانى منها المجتمع المصرى فى تلك الفترة - يملأ نفوسنا وكياننا .

وقد تأكد لنا جميعا عبء هذه المسئولية وعمقها وبخاصة ماتعلق منها بالمشاكل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية . وأحسست ، كما

أحس غيرى ، بأن الطريقة الى الحياة الافضل لابد وأن تكون غير الطريقة الحالية التى يتبعها العديد من زعماء مصر فى ذلك الحين ، وأن الحاجة الى تغيير الطريقة الحالية أصبحت ضرورة .

ولم اتحدث عن هذا المؤتمر مع احد من المحيطين بى فى حتتنا ، ولم اتحدث أيضا عن الحوادث الأخرى التى واجهتها البلاد فى خلال عام ١٩٣٥ وبخاصة ماتعلق منها بعودة دستور عام ١٩٢٣ كاملا غير منقوص وما أعقب ذلك من مظاهرات وسقوط الشهداء الابرار ـ مع أحد من المحيطين بى فى حتتنا . ولكن عبد المنعم ابن عمى شقيق أبى لم يتركنى وحدى أعيش افكارى التى انبثقت عن هذه الامور الحاسمة . كان يتحدث معى وكان يتناقش معى فى كل ماحدث أو مايتوقع ان يحدث . فاهتمامه بالسياسة على الرغم من تراكم السنين منذ عام ١٩١٩ ، عام الثورة التى شارك فيها ، لم يفتر . ومع ذلك فاننى أود أن أذكرها هنا أن الناس ، أهل الحتة وغيرهم ومنهم أمى وزوجتى ، وأن كانوا لايعلمون تفاصيل مايحدث من أمور فى المجتمع المصرى ، فان الاحساس بهذا الأمور عندهم كان موجودا . ان المناخ الثقافى الاجتماعى فى ذلك الحين كان مشحونا بكل مايحدث من حوادث تمت الى القضية المصرية بصلة . لقد انتهى الأمر عند المصريين كافة الى أن الانجليز المستعمرين هم الاعداء الالداء . واستقرت فى النفوس هذه الحقيقة المرة على الرغم من صروف الدهر المواتية التى كانوا يواجهونها فى ذلك الحين ، أو بسبب هذه الصروف غير المواتية

وكنت فى خلال هذه الفترة مازلت أهتم اهتماما بالغا بالأمور الدينية . بل لعل اهتمامى هذا فى ضوء ظروفى الاجتماعية الاقتصادية قد ازداد عمقا . فانا الآن فى شغف شديد لكى أتم تعليمى العالى ، وانا الآن فى مسيس الحاجة الى العمل الشريف لاكسب قوتى وقوت من أعول . وأنا الآن عضو من أعضاء جيل مابعد ثورة ١٩١٩ ، الجيل الذى كان يواجه الاحباطات التى نتجت عن فشل هذه الثورة فى تحقيق اهدافها . ان هذا الفشل فى حد

ذاته ، كما بدا لنا بوعى أو من غير وعى ، قد قتل بدوره الطموح الذى كنا نتوقعه من نجاح هذه الثورة أو كاد . ولن أتحدث عن جيلى هذا الا بقدر . فانا أذكر جيدا أن نجاحى فى شهادة البكالوريا حفزنى الى مواصلة التعليم ، واننى قدمت فعلا اوراقى الى الجامعة لكى أدرس فى كلية الحقوق . وقد قام عبد المنعم ابن عمى شقيق أبى بدور " ولى الأمر " وطلبت للكشف الطبى ، وكشف على طبيا فعلا ، ومر الكشف الطبى بسلام ، وكنت على بعد خطوة واحدة فيتحقق حلمى بل حلم أبى فأصبح طالبا فى الجامعة . ولكن لم يكن الالتحاق بالجامعة فى عام ١٩٣٥ لأدرس فى كلية الحقوق (أسوة بالزعيم مصطفى كامل) من حظى . ذلك لانى فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ (عام شهداء دستور عام ١٩٢٣) عينت فى مصلحة الحدود التابعة لوزارة الحربية والبحرية موظفا على الدرجة الثامنة الكتابية . ولم يكن هذا التعيين مفاجأة لى مائة فى المائة ، لان اللواء محمد توفيق عبد الله باشا قبل أن يجلس على كرسى وزارة الحربية والبحرية فى يوم ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٤ (كأحد أعضاء وزارة نسيم باشا) كان مديرا لمصلحة السجون . وكنت قد ذهبت اليه وهو فى هذا المركز ليجد لى عملا فى هذه المصلحة كشخص حامل لشهادة "الكفاءة" . واذكر انه قابلنى ولم يكن يعلم اننى استعد للجلوس فى امتحان شهادة البكالوريا ، ونصحنى بأن أحصل على شهادة البكالوريا أولا ووعد انه بعد حصولى على هذه الشهادة سيجد لى عملا . وأنا لم أذهب الى هذا اللواء الا لأن أبى كان صديق صباه . فهو ابن الحاج عبد الله تاجر البقالة فى حى السيدة عائشة . أى أن أبى وهو كانا من أبناء حتة واحدة ، وكانا فى صباهما يرتعان ويلعبان سويا ، ثم فرقت بينهما الظروف والاحوال وذهب كل واحد منهما الى ما خلق له . ويبدو ان الرجل عندما طلبت مقابلته عندما كان مديرا لمصلحة السجون قد عاش بعض لحظات ماضى صباه ، ويبدو ان حنينه الى هذا الماضى قد تحرك فجأة فشرح صدره وأمر بمن يأتى بى إليه

ثم أبدى لى نصيحته بالحصول على شهادة البكالوريا أولا . وما أن حصلت على هذه الشهادة حتى أرسلت الى "معالى الوزير" الذى تأكد لديه استحقاقى للوظيفة المرموقة فقد استمعت لنصيحته ، ومادمت قد فعلت ذلك فانه كان عند وعده وأتاح لى وهو فى مركزه الأرفع التعيين فى وظيفة كاتب على الدرجة الثامنة الكتابية فى مصلحة الحدود . ولما كان التعيين فى وظيفة حكومية فى ذلك الحين يعنى بعض الضمان الاجتماعى لأسرتى ، وأن ترك فرصة هذا التعيين لايمكن أن يكون فى ضوء ظروفى الاجتماعية والاقتصادية الا إهدارا لبعض حقوق هذه الأسرة فضلا عما كان قد يسبب من ألام وخيبة لأمل أمى وزوجتى ـ فقد قبلت التعيين وأجلت الالتحاق بالجامعة .

ومهما يكن من الأمر فان قبولى تأجيل الالتحاق بالجامعة كان فى ضوء رغبتى الشديدة فى طلب العلم ، بالضرورة ، قرارا موقوتا . وقد حاولت بعد ذلك الالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية الليلية ، كما حاولت الالتحاق بقسم الصحافة بالجامعة الامريكية ، ولكنى لم أوفق فى المحاولتين لضيق ذات اليد . واننى أذكر اننى حاولت الاقتراض لادفع مصاريف مدرسة الحقوق الفرنسية الليلية ، فلم أجد سوى زوج خالتى عزيزة أخت أمى غير الشقيقة لأنه كان فى تصورى الشخص الوحيد فى عائلتى الذى يقدر ظروفى فهو رجل مستنير ويعمل بالتدريس ، ولكنه رفض ان يقرضنى دانقا ولم يبدو لذلك سببا وجيها أو غير وجيه .

وجعلنى الفشل فى المحاولتين السابقتين شخصا ضائعا ، فاغرقت نفسى فى التدين الشديد . ولعل ظروف وفاة أبى ، ومواجهتى للحياة غضا بريئا ، وزواجى المبكر ، والعقبات التى واجهتنى فى سبيل تعليمى ، فضلا عن ظروف تنشئتى الاجتماعية وظروفى الاقتصادية ، جميعا ، أن دفعتنى الى مواجهة هذا الضياع بالهروب منه الى هذا التدين الشديد . وقد عزلنى هذا التدين

الشديد عن الحياة التى يعيشها عادة من كانوا فى مثل سنى . ولكنه فى الوقت نفسه أتاح لى الفرصة لكى أقرأ ولكى أكتب . ولم تكن قراءاتى . أو كتاباتى على الرغم من ضغوط جماعتى المرجعية (أعضاء الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالسنة المحمدية) التى كنت انتسب اليها فى ذلك الحين ، كلها ، دينية . فقد كنت أقرأ الكتب الدينية وغيرها من الكتب السياسية والادبية والفلسفية والتاريخية . وكنت أطالع المجلات العديدة سواء كانت دينية أو غير دينية ، على الرغم مما قد يوجد على صفحات بعضها من صور يعتبرها أعضاء جماعتى المرجعية عادة صورا خليعة .

وزادت قراءاتى وكتاباتى العديدة ، على الرغم من عدم انتظامها ، فى حبى لطلب العلم وشغفى به . ولم أملك فى كل الأحوال فى ذلك الوقت الا أن أهتف من أعماقى صامتا ، أو أن أرفع صوتى فى دعواتى فى السجود أو بعد الصلاة صائحا مزمجرا أو مترنما بهذا الحب الذى كان يزداد على مر الأيام . كان يزداد الى درجة أننى كنت استقطع كل ماأحصل عليه من نقود شخصية لشراء الكتب والمجلات أو لاستئجار قراءتها . وبذلك كنت أضن على نفسى بالركوب انتقالا الى محل عملى وأذهب اليه على الرغم من بعد الشقة سائرا على الأقدام . وقد لاحظت فى ذلك الحين أن حبى لطلب العلم وشغفى به يشاركنى فيه كثيرون من الزملاء والأصحاب . وكنا نجتمع لكى نخطط لطلب إباحة الانتساب للجامعة . نكتب عن ذلك فى الجرائد أحيانا ، أو نذهب أحيانا جماعات الى وزارة المعارف العمومية فى ذلك الحين طالبين مقابلة الوزير ونحن نصيح من أعماق الاعماق "نريد ان نتعلم" ! واذكر اننا نجحنا فى مقابلة أحد الوزراء فى إحدى المرات ، وتفاءلنا خيرا بهذه المقابلة ، ففى خلالها سمعت آذاننا لأول مرة من مسئول الوعد باباحة الانتساب للجامعة . ولكنه كان مجرد كلام فى كلام ، فلم يف أحد بإنجازه الا بعد أن شاب شعر رأسى .

وكنت قد بدأت الانتساب الى الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالسنة المحمدية وأنا مازلت فى الوكالة ، أى أننى لم أكن قد تركتها بعد لكى أتفرغ للدراسة ، أى عندما كان الأمام الجليل "محمود محمد خطاب السبكى" مازال على رأسها ، وكان يدعو دعوته منذ أن تأسست هذه الجمعية فى غرة المحرم مفتتح عام ١٣٣١ هـ (الموافق ١٢ من شهر ديسمبر عام ١٩١٢) حتى توفى فى الرابع عشر من ربيع الأول عام ١٣٥٢هـ) الموافق يوم ٧ من شهر يوليو عام ١٩٣٣) . وكانت تتألف الجمعية من "أفراد جعلوا التعاون مبدأهم والعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ديدنهم" ، والاغراض التى كانوا يهدفون الى تحقيقها تتضمن نشر التعليم الصحيح لتنقطع حجة من ترك العمل بدينه بدعوى انه جاهل ، والتناصح والتواصل والحث على العمل وموالاة الوعظ من رجال يعرفون كيف يعظون حتى يموت التساهل والكسل عن العمل بهذا الدين الحنيف ، وإعانة من لايتمكن من العمل بحرفته التى يقتات منها اذا كان ذلك بسبب عمله بالدين على ماجاء به السيد الامين صلى الله عليه وسلم لينقطع عذره فى عدم التمسك بما فيه سعادته دنيا وأخرى ، ثم تضامن كل من ينتسب الى الجمعية فى التعامل بحيث ينحصر تعاملهم فيما بينهم على حسب الامكان ليأمنوا من غش الأجانب وتطمئن قلوبهم للتعامل .

وقد كان من حظى السعيد أن عاصرت الأمام الشيخ محمود خطاب ، وأن أنهل من علمه الفياض ، وأستمع الى درسه فيما بين صلاة العصر وصلاة المغرب ، وبعد صلاة يوم الجمعة ، وفيما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء من يوم الجمعة مرارا وتكرارا . ولن أنسى يوم الجمعة يوم ٧ من شهر يوليو ١٩٣٣ ، فقد كنا نصلى الجمعة فى مسجد الجمعية (عطفة الجوخدار بالمغربلين) ، وكان المسجد مزدحما كالعادة ، ولم أجد مكانا فى صحن المسجد أو فى طرقات البيت الذى يقع فى أحد أجزائه المسجد أو الحارة التى بجوار المسجد ، ولكنى وجدت مكانا فى المكان الذى يعلو صحن

المسجد . وصلى الحشد الهائل من الحاضرين صلاة الجمعة وكان الامام كالعادة "الشيخ عبد الله العفيفى" . خطب الجمعة كالمعتاد ، ثم صلى الجمعة كما هى عادته ، ذلك أن الأمام الشيخ محمود لم يكن يؤم المصلين ، وكان يصلى من وراء الشيخ عبد الله فى الصف الأول مع غيره من المصلين . ولم يلاحظ أحد شيئا الا عندما لم ير المصلون الكرسى الذى يتربع الامام الشيخ محمود عليه فى صحن المسجد بعد الصلاة موجودا فى مكانه ، والا عندما قام من بين المصلين الذين كنت معهم الامام الشيخ محمود أمرا الشيخ عبد الله العفيفى بأن يلقى الدرس بدلا منه . وتوجس الناس خيفة ولكن الحديث جرى بين الصفوف عن مرض الأمام الشيخ محمود ، ومن ثم فانه لم يتح للمصلين الفرصة لكى يسروا أو تنشرح صدورهم حينما يرونه متربعا على كرسيه فى تلك الرقعة البسيطة من الارض يحتف به حزب الله ! وجنود الله ! كأنما على رءوسهم الطير . والامام الشيخ ينثر بينهم الدرر والجواهر من عظاته البالغة ، ونصائحه الحكيمة بأسلوب واضح جلى تصل أثاره الى النفوس قبل الرءوس ، فيهديها ويحييها ، وفى المجلس الحاشد العالم وغيره فيأخذ كل بغيته وفوق مايتمنى . واننى أذكر أن الشيخ عبد الله ألقى درسه وختمه بالدعاء بشفاء الامام الشيخ مما ألم به ، وكان صوت المصلين بالدعاء من بعده يهز الأرض وما فوقها هزا عنيفا . وخرج الناس الى بيتهم يسعون ، وخرجت معهم أسعى الى بيتى . وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم (يوم الجمعة ١٤ من شهر ربيع الأول ١٣٥٢هـ الموافق يوم ٧ من شهر يوليو عام ١٩٣٣م) ، لفظ الامام الشيخ آخر نفس من أنفاسه ، وجاد بروحه الوثابة المتفانية فى نصرة الدين والسنة المطهرة ، لايبتغى شهرة ولاأثره . وكنت فى بيتى عندما جاءنى صديق صباى "محمد بدر" وأبلغنى هذا الخبر المشئوم . وقد علمت أن نبأ وفاة الامام الشيخ عند مريديه كان مروعا ، وكانت الفاجعة أليمة ، والكارثة عظمى ، والخسارة غير هينة . وقد وقع خبر وفاة الامام

الشيخ علىّ وقع الصاعقة وكنت أتناول طعام الغداء مع أمى وزوجتى ولم أجد بدا الا أن أترك "الطبلية" التى كنت أجلس أمامها ، والا أن أدخل حجرتى ، والا أن أبقى وحدى مفكرا متأملا . وتذكرت ماحدث لى قبل ذلك عندما مرضت ، وكنت نائما على السرير أتألم ، وعندما علم أعضاء جماعتى المرجعية جاءوا لزيارتى ، فحق المسلم ست منها " اذا مرض فعده " . وكان عدد من جاء منهم يملأ الحجرة ، وربما كانوا عشرة أشخاص ، وربما كانوا أقل من ذلك . وكنت فى ذلك الحين فى حاجة الى الطبيب ولكنى كنت عاجزا عن احضار الطبيب لضيق ذات يدى . ولم يفكر أحدهم فى أن يحضر لى طبيبا أو حتى يسأل ان كان الطبيب عادنى أو لم يفعل . ولكنهم رفعوا أيديهم الى سقف الحجرة ودعوا لى وكان دعاؤهم صاخبا ، وقالوا وكأنهم شخص واحد :

" نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفيك "

قالوا هذا الدعاء ثلاث مرات ، ثم انصرفوا ، وكل واحد منهم عن نفسه راض . وتركونى وحدى نائما على السرير أتألم . تذكرت هذه الواقعة عندما تداعت أفكارى وأنا فى الحجرة وحدى ، وجاءت صورة الشيخ عبد الله العفيفى وهو يدعو للامام الشيخ بالشفاء وكان صوت المصلين بالدعاء من بعده يهز الأرض ومافوقها هزا عنيفا . ولكن الامام الشيخ على الرغم من ذلك بعد مرور ساعة من الزمان لفظ آخر نفس من أنفاسه .

وبعد تعيينى فى الوظيفة " الحكومية "ازداد اغراقى فى التدين ازديادا كبيرا . لقد كان فضل الله علىّ عظيما . ألم ييسر لى موردا شريفا لرزقى ورزق عيالى ؟ وكما ازداد اغراقى فى التدين ازدادت أوجه نشاطاتى فى الجمعية " الكبيرة " وفى فرعها بحى السيدة عائشة النبوية . الذى اشتركت فى تأسيسه فى عام ١٩٣٤ وأنا طالب بمدرسة الثانوية الليلية لاأزال . وتأكد هذا الاغراق فى التدين عندما عزمت على أن أحف شاربى وأعفى لحيتى أسوة بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نفذت هذا العزم فعلا .

ولم أبه لأحد فى العائلة أو فى الحتة أو حتى فى مصلحة الحدود التى أعمل فيها منذ شهر نوفمبر ١٩٣٥ .

ولايمكن أن أنسى يوم أن ذهبت الى هذه المصلحة لأعمل بها . فهو اليوم الذى أصبحت فيه أمام الجميع بصفة رسمية " افنديا " أو أصبحت فيه كما كان يقول أهل الحتة " موظف فى الميرى " أو" موظف فى الرزمانة " أى أننى أصبحت أعمل فى الحكومة ومن ثم فأنا الحكومة أو جزء من الحكومة . أصبح لى منذ ذلك اليوم دور اجتماعى جديد ومكانة اجتماعية جديدة . وقد ظن بعضهم ، وكان هذا الظن بعيدا جدا عن الحقيقة ، أننى ماتركت الوكالة الا لكى أكون موظفا . ولم يدر بخلد هؤلاء أن هدفى كان غير ذلك ، وأن هذا الهدف هو أن أحقق حلم أبى فى مواصلة التعليم الذى أصبح فى ضوء ممارسة الحياة حلمى أنا أيضا . ذهبت الى الديوان العام وكان يقع فى نفس مبنى وزارة الحربية بجوار مبنى " ضريح سعد زغلول " ، وقابلنى المختصون وأمرنى أحدهم وكان يسمى " فؤاد بك " أن أذهب مع أحد الافندية ، الذى ناداه تليفونيا ليحضر لمقابلته ، الى حيث أعمل . كان هذا الأفندى رئيسى " محمود بهنسى " ، وكان المحل الذى أختير لى لأعمل فيه "قلم أرشيف المصلحة" . ولم أكن أعرف ماهو عمل هذا الأرشيف ، ولم أكن أعرف أحدا فى المكان الذى ذهبت اليه ، ولاأحدا فى المصلحة كلها . واتخذت مقعدا قيل لى إنه مقعدى ، وكان بجوار " زكى أفندى " ، ولم يكن معنا محمود بهنسى وزكى أفندى أحد سوى " الفولى افندى " و" سليمان أفندى " الذى وجدته عندما دخلت المكان منهمكا فى ترتيب ملفات مرصوصة على احدى " الترابيزات " . وكان استقبال الحاضرين لى فاترا ، ولم أكترث كثيرا ولاقليلا لهذا الاستقبال الفاتر . ولكنى أحسست كأننى حيوان وضعت فى قفص من قضبان من حديد لاأراها ولكنى أحسها . وبدأ محمود بهنسى أوامره يمينا وشمالا ، وتركنى فترة من الوقت ولم يبد لى أى اكتراث . ثم حاول أن يضعنى تحت الاختبار فسألنى

باللغة الانجليزية عن شهاداتى التى حصلت عليها وعما إذا كنت أتقن اللغة الانجليزية ، فالمصلحة مصلحة الانجليز ، ورددت عليه بنفس اللغة ، وكنت خجلان وأنا أرد ، ولكنى أحسست بالمرارة عندما قال لى أمام السادة الحاضرين أن المصلحة هى مصلحة الانجليز . ولم أكن أعلم ذلك ، ولكنى عندما علمت أصبت بالغثيان ، وتذكرت أننى سأعيش مع الانجليز تحت سقف واحد ، وكنت فى حتتنا أراهم من بعيد وهم يذهبون الى القلعة ، حيث يوجدون ويعيشون فيها ، وهم يبرحونها الى حيث يذهبون لقضاء أوقات فراغهم أو لأداء مهمة من المهمات التى يؤمرون بتنفيذها وعندما يعودون اليها . كان الانجليز الذين أراهم فى حتتنا من العساكر فى أغلب الأحيان . أما انجليز مصلحة الحدود فقد بدا لى من لهجة رئيسى محمود بهنسى أنهم أعلى من ذلك رتبة ، وقد عرفت منهم بعد ذلك " هاتون بك " و" جرين بك " . وكان الواحد منهما له صلاحيات عديدة ، وكان الأمر الذى يصدره يسرى على جميع من فى المصلحة ومنهم المدير نفسه . بل كانت رغبة الواحد منهما فى حقيقة الأمر أمرا واجب التنفيذ . وقد سمعت عن " باركر " الامبراطور غير المتوج لمحافظة سيناء ، كما سمعت عن " همرسلى " ملك الصحراء الغربية غير المتوج . ولكنى لم أر أيهما . سمعت عنهما الروايات العديدة التى أكدت لى أن مصر فى الواقع كانت وكأنها تحكم من مصلحة الحدود . وسمعت من محمود بهنسى عن حفل وداع باركر عندما قام الأول فى الحاضرين خطيبا وختم حديثه بقوله " ان باركر هو سيناء وأن سيناء هى باركر " . كانت خطبته باللغة الأنجليزية . وكان هذا الرجل وغيره يفاخر باتقانه الحديث بهذه اللغة . وكان اتقان هذه اللغة فى مصلحة الحدود فى ضوء ظروف ادارتها يعتبر جوازا للترقيات ونوال الحظوة عند السادة الانجليز أمثال هاتون وجرين وباركر وهمرسلى وغيرهم ممن لا أعرفهم ولم أعرفهم .

ولم يكن الانجليز وحدهم هم عمد مصلحة الحدود عندما عينت

بها فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ ، فقد كان تحت إمرة هؤلاء العدد الأكبر من موظفى المصلحة من المصريين "الاقباط" والمتمصرين من "الشوام" . ولم يكن بينى وبين هؤلاء الا علاقات العمل ، لم يصادقنى أحد ولم أصادق احدا . ولكنى كنت أكن لبعضهم الاحترام الانسانى ، وكان بعضهم لايتصور وجودى بينهم . وذلك لأنهم عرفوا أننى شخص متدين . وكنت عندما اعمل فأنا مجد فى عملى ، وعملى فى الأرشيف كان قليلا . وعندما كنت لاأعمل فاننى اتمتم فى سرى بذكر بعض آيات من القرآن الكريم أو بأحد أسماء الله الحسنى . فيرانى من حولى ومن يأتون الى الأرشيف فى طلب ملفات أو لقضاء عمل رسمى معين ، فمنهم من يحترم عزلتى وهجرتى الى الله ، ومنهم من لايأبه بى ، ومنهم من كان يسخر . وكان أول الساخرين عادة هو محمود بهنسى رئيسى . اننى فى مصلحة الحدود عرفت لأول مرة فى حياتى كيف يكون شعور عضو الأقلية المستضعفة . فقد كانت المصلحة فى الأعياد المسيحية خاوية على عروشها الا من سعاة المصلحة ومن حفنة من الموظفين يعدون على أصابع اليد الواحدة . ولأول مرة عرفت أن هذه الأعياد لم تكن فقط أعياد "غطاس" و "شم النسيم" و "سبت النور" التى كنت أمارسها كمصرى ، ولكن كانت هناك أعياد أخرى مثل "أحد السعف" و "خميس العهد" و "عيد القيامة" و "عيد الميلاد المجيد" وغيرها وغيرها . وكان صباح كل يوم أحد شاهدا على وجود أعضاء الأقلية المسلمة ، ففى هذا اليوم يحضر الموظفون غير هؤلاء الأعضاء بعد الموعد المحدد بفترة طويلة يفترض فيها أنهم كانوا يصلون فى كنائسهم . والملاحظ أن أعضاء الأقلية فى المصلحة كانوا كذلك فى داخلها ، وهم من أعضاء الأغلبية فى خارجها . أى أنه كان يوجد نوع من الازدواجية . على عكس الأقليات العادية أو الأغلبيات العادية . ومع ذلك فالاقلية ليس من الضرورى أن تكون مستضعفة . فالأقلية فى جنوب افريقيا مثلا هى المتسلطة والاغلبية من المواطنين الأفريقيين هم المستضعفين . ومن ثم فاننى لم أصطدم كثيرا بما رأيت وبمن

رأيت ، وتعايشت سلميا مع الجميع . واستمر الحال على هذا المنوال حتى عرف بعضهم أننى متزوج . فكنت الأعجوبة عند الجميع . فأنا مازلت فى نظرهم فى عمر الزهور فكيف أتزوج والواحد منهم لم يكن ليتزوج حتى يبلغ الثلاثين أو أكثر من الثلاثين الى الأربعين من عمره . ومنهم من لم يتزوج عن عمد لأنه رأى أن ينتظر حتى تتزوج اخواته البنات أولا ، فاذا تم ذلك فقد يفكر فى الزواج اذا كانت حالته العمرية وحالته الصحية وحالته النفسية تسمح بهذا الزواج . ولهذا كنت أعجوبة الجميع . ولم يكن يعرف أحد منهم أن زواجى كان قد تم قبل التحاقى بالمصلحة بثلاث سنوات . ولست أدرى ما الذى كان يدور بخلدهم أو ماذا قد يكون تصرفهم معى لو أنهم عرفوا ذلك أو عرفوا اننى أنجبت ابنا ؟

وعشت فى مصلحة الحدود وأنا عضو فى جماعة الأقلية فى داخلها فترة بلغت سنوات ، أى حتى يوم ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ ، عندما استقلت لأعمل "بمؤسسة الزفاف الملكى" . وسارت الحياة فى المصلحة على وتيرة واحدة تقريبا حتى حدثت بعض الأمور ، منها انتقالى من الأرشيف الى "قسم التوريدات" ، والتحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية ثم استقالتى من المصلحة بعد ذلك .

وعوامل انتقالى الى قسم التوريدات عديدة ، منها ازدياد سخرية محمود بهنسى لى وبخاصة عندما قررت فى عام ١٩٣٦ أن "أحف شاربى وأن أعفى لحيتى" امتثالا لما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم . لقد زادت عزلتى عندما حدث ذلك ، ولم أبه لذلك أبدا بل على العكس وجدت الوقت الكافى وأنا أعمل لكى أكون مع ربى ومع أفكارى وأعيش أحلم بآمالى . وأحاول أن أنظر الى امام . فالمستقبل كما كنت أعتقد سيكون بالضرورة زاهرا . ولكن هذه العزلة لم ترق لمحمود بهنسى . فهو يرى كرئيس انه اذا اطلق احدى نكاته مثلا لابد ان يضحك الجميع ، وكانوا يضحكون الا

أنا . وهو يرى انه اذا ماتحدث بسبب أو من غير سبب عن مغامراته النسائية أو عن لياليه الحمراء لابد أن ينصت الجميع الى حديثه ، وكانوا يفعلون ذلك الا أنا . لم أكن أعامل هذا الرجل الا بالجد فى عملى ، وكنت ارى انه يجب أن لايتوقع منى الا أداء هذا العمل . ان مجون هذا الرجل لم يكن محببا الى نفسى ، ولى عذرى . وكانت تصرفاته تنقصها الحكمة والروية ولاتدل على ذكاء كبير . انه يتقن الحديث باللغة الانجليزية هذا صحيح ولكن هذا الاتقان وحده لايمكن فى نظرى فى ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور أن يصنع شخصية تستحق الاحترام والتقدير . انه كان كرئيس يطلب "بالامر" هذا الاحترام من مرؤوسية وانا منهم . وأنى له ذلك وأنا كنت من أنا وهو كان من كان . لايعلم هذا الرجل ولم يكن يعلم أننى وأنا فى الوكالة كنت سيد نفسى ، وأن أدوارى الاجتماعية كانت عديدة وكانت تستحق تقدير من حولى . ومهما يكن فان علمه بذلك كان لايعنينى وربما كان لايعنيه أيضا لأنه كان لايغير من موقفى منه أو من موقفه منى شيئا . ومهما يكن من الأمر ففى صبيحة يوم ١٩ من شهر مايو عام ١٩٢٧ ، وأنا أكتب الآن من مذكراتى ، ذهبت الى المصلحة كالمعتاد . وعندما حاولت الدخول فى قلم الأرشيف فاجأنى محمود بهنسى رئيس القلم باتهامى بعدم اهتمامى باستكمال عمل أعطاه لى بالأمس ، وكان جافا جدا وهو يقذف بهذا الاتهام فى وجهى قبل أن أجلس على مقعدى ، بل قبل أن ألقى تحية الصباح على الحاضرين . والحق انه لم يعطينى عملا ، ومن ثم فأنا لم أهمل فى عمل . ولم أرد عليه . ولكنه استمر يتحدث وبدأ صوته يعلو . وزادت حدته ، ثم بدأ يسخر منى ، فأنا فى نظره شخص أعيش فى ضباب الاوراد وأتمتم بآيات الذكر الحكيم وأنا كالتائه ولا آبه بعملى . وفجأة وجدت نفسى أترك المكان خارجا من قلم الارشيف بل من المصلحة كلها خرجت لاألوى على شىء . ومشيت ومشيت حتى وجدتنى أمام كوبرى قصر النيل . وسعدت بالهواء المنعش فى هذا المكان ، فقد انعشنى وهدأ من روعى ،

ويسر لى أن أفكر فيما حدث وفيما سيحدث . ولكنى كنت على الله جل وسما متوكلا . ولم اخش شيئا ولا أحدا . فلى الله ولأمى وزوجى ولأبنى أحمد وابنتى آمال ، التى لم تكن تبلغ السنة الاولى من عمرها . انه جل شأنه لن يضيعنا . فالرزق أولا وأخيرا عليه ولايمكن أن يكون على محمود بهنسى أو على مصلحة الحدود . وكان شعارى الذى كنت أتخذه فى ذلك الحين ، وكنت اترنم به بصوت مرتفع أحيانا أو أترنم به صامتا أحيانا أخرى "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" . وانتظرت فى مكانى حتى حان الوقت المعتاد لانصراف موظفى الحكومة الى منازلهم ، ثم عدت الى المنزل مستريح البال ونفسى راضية فقد أعددت خطتى للفرار من بيئة الوظيفة الحكومية الملوثة .

وعندما عدت الى المنزل فوجئت بأن أمى قد علمت بما حدث . ذلك لأن محمود بهنسى أرسل بعد خروجى من المصلحة أحد فراشى المصلحة ليعرف مصيرى . وجاء الفراش الى المنزل ، وذكر لأمى وكانت معها أم على زينب زوجة عمى محمود شقيق أبى ، كل ماحدث بينى وبين محمود بهنسى . وبدا لى عندما رأتنى أمى عائدا أن نفسها قد استقرت بعد ان كانت غير مستقرة . أن اهم ما كان يشغل أمى ليس ماحدث بينى وبين محمود بهنسى بل ماحدث لى . كان همها الأكبر أن تعرف أين ذهبت ؟ وكانت تقول وكأنها تولول "ياترى رحت فين ياسيد ؟" أو كانت تقول "ربنا معاك يابنى" . وقد عرفت ذلك من زوجتى فيما بعد . عرفت الحال التى صارت اليها أمى . ولم أكن أتوقع ذلك ابدا . ولكن ما أن رأتنى أمامها حتى عاد اليها استقرارها النفسى وحل هذا الاستقرار محل البلبلة التى كانت تنهش أحشاءها . وتركت وحيدا فترة من الوقت حتى تناولت طعام الغداء ، ثم استرحت فترة من الوقت . وبعد صلاة المغرب رأيت زوجة عمى شقيق أبى أم على زينب أمامى . جاءت تتحدث معى فيما حدث . وكان حديثا طويلا . وانتهى الحديث بوعد منى بأن أعود الى المصلحة صباح اليوم التالى وكأن ماحدث

لم يحدث . وقد قبلت أن أعطى هذا الوعد من أجل أمى التى مافتئت تذكرنى بما كان من أمرنا قبل الالتحاق بالوظيفة الحكومية ، وبالحلم الذى أردت ومازلت أريد تحقيقه ، حلم أبى الذى صار حلمى ، والذى كما يبدو صار حلمها أيضا ، وهو أن أستكمل تعليمى العالى ، واذا اتيحت لى الفرصة للسفر الى الخارج فانى سأفعل . وكانت دعواتها لى الى الله أن "يهدى نفسى" وأن "يحقق أمالى" وأن ... وأن ... تترى من فيها وكأنها السيل المتدفق . وإذ أنظر الى قسمات وجهها الذى فعل بها الزمن بغير أوان مافعل ، وهى تقول ماقالت ، وتدعو لى مادعت ، كان فؤادى جزعا أو يكاد . وهان علىّ كل شىء . وحتى كرامتى التى أعيش من أجلها لكى أرفعها فوق الهامات ، أمام مافعلته أمى ، تخليت عنها ولو الى حين . وقبلت أن أعطى الوعد بعودتى الى المصلحة صباح اليوم التالى وكأن ماحدث لم يحدث .

وجاء صباح اليوم التالى ، واستيقظت كالمعتاد ، وانني أذكر انني عندما خرجت من باب المنزل فى طريقى الى مصلحة الحدود أحسست بأن جبال الدنيا حطت فوق رأسى وأن رمال صحراوات الدنيا عبئت فى أكياس مربوطة فى قدمىّ . كنت أخطو نحو الطريق الى المصلحة خطوة وأعود راجعا خطوات ، وسرت فى طريقى محملا بالاثقال المعنوية فى رأسى وفى قدمىّ حتى وصلت ، ووجدت موظفى المصلحة واقفين أمامى ومن حولى وكأنهم ينتظروننى . وألقيت تحية الصباح عليهم جميعا ، على من أعرف ومن لاأعرف . وسمعت همهمات وهمسات ، وذهبت حيث يقع قلم الأرشيف ووجدت أمامى "حسن" الفراش الذى ذهب الى بيتى بالأمس ، وفى اقتضاب ذكر لى وقائع مافعل . وكان وهو يتحدث الىّ يبدى الأسف على ماحدث . كان عطوفا ولم يكن عاطفيا . وعندما جلست على مقعدى لم يلتفت الىّ أحد ، ولاحظت غياب رئيس القلم . لم تمر دقائق معدودات على وجودى حتى جاءنى صول المصلحة "حافظ أفندى اسماعيل" يطلب منى الذهاب الى

"سيادة" مدير الادارة "فؤاد بك" الذى كان يوما من الأيام "ادوارد بك" وغير الأسم الى "أحمد فؤاد" تينما باسم "صاحب الجلالة الملك أحمد فؤاد" عندما اضطر الى اعتناق الدين الاسلامى لزواجه من سيدة مسلمة . وذهبت الى فؤاد بك ، وكان معه "حماية بك" وكيل الادارة . وكان لكل واحد منهما مكتب فى نفس الغرفة . وعندما رآنى فؤاد بك بادرنى بشراسة سائلا عما حدث بالامس ، فذكرت له بكل صدق ماحدث . ولم يعقب على ماقلته . ثم مالبث آن أصدر "فرمان" بأن أترك "قلم الأرشيف" وأذهب "قلم التوريدات" وطلب منى أن أذهب مع أحد الأشخاص الذين كان واقفا فى الحجرة ليرينى موقع عملى الجديد . وعرفت فيما بعد أن هذا الشخص هو "دانيال افندى برسوم" رئيس القلم الجديد . وتنفست الصعداء للتغيير الجديد . ووجدت أن قلم التوريدات يقع فى مبنى خاص ويعمل به دانيال افندى وكان فى نفس الدرجة الكتابية التى كنت أشغلها ويعاونه جرجس وفؤاد وعلى من العمال . ومرت الأيام .. ثمانية أيام ، وظننت ان الأمر انتهى الى هذا الحد ، وان ماحدث بينى وبين بهنسى أفندى كأنه لم يحدث . وكنت فى هذا الظن ساذجا غاية فى السذاجة . ففى اليوم الثامن أى فى يوم ٢٧ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، الموافق يوم ١٧ من شهر ربيع الأول عام ١٣٥٦هـ ، تسلمت خطابا مرسلا الىّ من السيد اللواء المدير العام "عبد المجيد فؤاد" ، وأرسلت صورة منه لصاحب العزة مدير الادارة أى فؤاد بك أو ادوارد بك (سابقا) . وكان نص هذا الخطاب كما يلى :

وزارة الحربية
مصلحة الحدود

مضمون هذه المكاتبة

قلم المستخدمين   مجازاة سيد أفندى عويس
بثلاثة أيام قطع مهية
القاهرة فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٧

حضرة سيد افندى عويس محمد
المستخدم من الدرجة الثامنة موقت بقلم الأرشيف
بقسم الادارة بمركز رياسة المصلحة بالقاهـــرة
نظرا لخروجكم من المكتب الرسمى يوم ١٩٣٧/٥/١٩ بدون اذن وعدم اطاعة أوامر رئيسكم المباشر - كذلك لاتهامكم رئيسكم باطلا بأنه سبكم علنا قد قررنا مجازاتكم بخصم ثلاثة أيام من ماهيتكم .
وهذا لمعلوميتكم . ،،،

لـــواء
عبدالمجيد فؤاد
(المدير العام)
أرسلت صورة لصاحب العزة مدير الادارة للمعلومية .

ولم يشغلنى هذا الخطاب كثيرا . وقد أكد لى أن بيئة الوظيفة التى أشغلها بيئة ملوثة بالكذب والملق والنفاق . أى أنها هى الجانى الحقيقى فى هذه المأساة . ولم يعزينى ماعلمت بعد ذلك بأن حماية بك الذى كان يرى وجوب التحقيق فيما حدث قبل أن يوقع العقاب علىّ ، تمثل ب "بيلاطس" النبطى الوالى عندما حرض رؤساء الكهنة والشيوخ الجموع على أن يطلبوا منه اطلاق سراح "باراباس" وصلب السيد المسيح ، قائلا "اننى أغسل يدى من دم هذا الشاب" ، ثم تمتم سيادته قائلا :

"فلما رأى بيلاطس انه لاينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا أنى برىء من دم هذا البار . ابصروا أنتم" . (مت ٢٧ : ٢٤)

ولعل ماحدث حتى الآن أمر كان يجب أن أتوقعه ، فقد جعلنى أقف لحظات أمام نفسى لا لأحاسبها بل لأتحدث معها وأتركها تتحدث معى . اننى منذ أن توفى الامام الشيخ محمود خطاب فى شهر يوليو عام ١٩٣٣ ، بل قبل ذلك وأنا أعيش حياة العزلة النسبية عن المجتمع المصرى وماكان يدور فيه من أحداث جسام . كنت فى العشرين من عمرى . وقد وجدت الكثيرين غيرى فى ضوء الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كنا نعيشها جميعا ، يهتمون معى اهتماما بالغا بالأمور الدينية أكثر من اهتمامنا بالأمور العامة أو بالأمور الشخصية . ولعل ذلك كان يرجع أول مايرجع الى الاحباطات التى كان يواجهها أعضاء جيلنا . ولعل أهم عوامل وجود هذا الاحباطات مابدا لنا ، بوعى أو من غير وعى ، من فشل ثورة عام ١٩١٩ الذى قتل بدوره فينا الميل الى تحقيق الأهداف الايجابية الذى كنا نتوقعه من نجاح تلك الثورة . ومن ثم كنا نتعلم ونمارس مانتعلمه بهدف تحقيق النجاة فى الحياة الآخرة ، حيث نستظل بظل العرش يوم لاظل الا ظله كشباب نشأنا فى طاعة الله جل وعلا . أى أنه على الرغم من سن الشباب التى كنا نجتازها ، فقد كانت الدنيا عندنا لاقيمة لها فهى عند الله الكريم المتعال لاتساوى جناح بعوضة . وعلى الرغم مما كانت تعانى منه مصرنا الخالدة من ألوان الظلم والعنف والطغيان والاستغلال المشين التى تصدر عن المستعمر أو تصدر عن بعض ابنائها ، فضلا عما كانت تعانيه ، بسبب ذلك من المشاكل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الرهيبة التى كانت تنهش كيانها نهشا وتوهن هذا الكيان وتهده هدا ـ كنا لانأبه قليلا أو كثيرا بمحاولة تغيير هذا الواقع الأليم الى الأفضل . وكانت حجتنا على ذلك ان الملايين من المصريين فى ذلك الحين قد استحقوا ماهم فيه لأنهم قد فسدوا وأفسدوا وحادوا عن السبيل السوية . وقد بدت هذه الحجة مقنعة لنا على الرغم من الضياع الذى كان يعيشه هؤلاء الملايين سواء كانوا أطفالا أو أحداثا أو شبابا أو نساء أو رجالا . لم يدر بخلدنا فى ذلك الحين أنه اذا صلح المجتمع صلح أعضاؤه

، وان الحياة الفاضلة هى نتاج المجتمع الفاضل ، المجتمع الذى لايوجد فيه ظلم واستغلال والذى لايوجد فيه فقر وجهل ومرض . لم يدر بخلدنا فى ذلك الحين أن العدالة كانت مفهوما قد صاغه المصريون لأول مرة منذ آلاف السنين وعاشوا به ومن أجله منذ أقدم العصور . وان العدالة كمفهوم قد صدرتها مصرنا الخالدة الى العالم بأسره منذ بدأ ضمير هذا العالم فى التكوين . وان الفضل هو فضل "من يتخذ العدالة نبراسا له فينهج نهجا" (بتاج حتب ٢٧٠ق م) وان العدالة "خالدة الذكرى فهى تنزل مع من يقيمها [illegible] القبر ولكن اسمه لايمحى من الأرض" (الفلاح الفصيح [illegible]ق م) ، وانه " هكذا قال الرب ، احفظوا الحق وأجروا العدل [illegible] قريب مجيء خلاصى واستعلان برى "(أش ٥٦ : ١) ، وان الرب يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالانصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه" (أش ١١ : ٤) ، وانه "واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعمًا يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا "(٤م النساء : ٥٨) و "ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" (١٦ك النحل : ٩٠)

لم يدر بخلدنا كل ذلك . ولم يدر بخلدنا كذلك اننا جزء من الحياة الفاسدة التى كان يواجهها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، وانها فاسدة لأننا نحن لانعمل على اصلاحها بما فى وسعنا من جهد ، وان صلاح اعضاء المجتمع لايكفى وحده لاصلاح المجتمع بل ان صلاح المجتمع ضرورى كذلك لاصلاح أعضاء المجتمع . وكنت أنا ومن نحا نحوى من شباب الجمعية الشرعية معذورين ، كنا ونحن الذين صنعت وجدانهم ثورة عام ١٩١٩ مكتوفى الأيدى مكبلى العقول . وبدا لنا نحن الذين كنا نهتف بسقوط الانجليز ونهتف بحياة مصر ونسمع الهتافات التى تؤكد ضرورة الخلاص من المستعمر الغاشم فى طفولتنا وفى فترة الصبى وفى فترة

الشباب التى نعيشها أنه قد كتب علينا أن نمحو كل ذلك من الذاكرة . فالجمعية الشرعية كانت ترى وهى تؤهل وعاظها وتقدمهم الى المجتمع دعاة لها أن يكون الواحد منهم "من المكانة الأخلاقية والعلمية مايؤهله لأن يجوب فدافد الأرض شرقا وغربا وجنوبا وشمالا يعظ المسلمين ، ويرشد الحائرين ، ويذب عن دين الله شبه الضالين والمارقين" . وهى إذ تسند هذا المنصب السامى اليه مع علمها بخطورته و وعورة مسالكه ترجو منه أن يتقى الله فيها وفى نفسه وفى المسلمين . فقد أصبح أمينا على دين الله ، مالكا زمام من يرشدهم ويقودهم الى حيث يريد . فجنتهم ونارهم بين لحييه . فيجب اذا أن يجعل مركزه فوق مركز الطبيب الحاذق الذى يعطى من الادوية لكل مريض مايناسبه بمقادير خاصة لاينقص ولايزيد عليها شيئا . وان الجمعية إذ تبيح له أن يغدو ويروح فى تعليمه ، واضعا نصب عينيه إفادة المسلمين ، فعليه أن يبتدىء بغرس العقائد فى نفوس من يباشر تعليمهم ، مراعيا مذهب أهل السنة والجماعة ، بعيدا عن المشاغبات الكلامية والبراهين المنطقية لصعوبتها على أفكار العامة من الناس . ثم يقوم بعد ذلك بتعليم مالابد منه من أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم يتبع هذا نهيهم عما هو فاش فى البلاد من المنكرات كترك أركان الاسلام وكالربا والزنا وشرب الخمر والقتل وتعاطى كل مسكر من الأنبذة والحشيش والمنازيل ، كما ينهاهم أيضا عن السرقة والغش والايمان الفاجرة والنميمة والغيبة وسم البهائم وشق بطونها وحرق المزروعات وتقليعها ، والحسد والحقد والكبر والعجب والمراء ... وعلى واعظ الجمعية أن يعلم الناس لباس النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وآكله وشربه وغير ذلك من كل خلق نبوى يتعلق بعادة أو عبادة . على أن يمنحهم منه مايطيقون ، ثم ينحدر الى مايخالف ذلك من البدع فينبه عليه حاثا على اجتنابهم إياها ، اقتداء بنبيهم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وحبا فى آداب نبيهم وبغضا لما سواه بعبارة يفهمها العام والخاص يصحبها

التأنى فان فى الناس الغبى والذكى .

كل ذلك وواعظ الجمعية يجب أن يكون رحب الصدر ، حلو اللسان ، طلق الوجه ، أزهد الناس وأبعدهم عن الفحش فى القول ، يسع السفيه والجاهل والمتعنت جاعلا محوره الذى يدور حوله الكلام ، قوله تعالى على لسان سيدنا لقمان عليه السلام إذ يقول لابنه " وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الأمور " (٣١ ك لقمان : ١٧) ، وقوله تعالى " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " (١٦ ك لقمان : ١٧) ، ثم تحذر الجمعية واعظها قائلة : " اياك ثم اياك أن يخطر ببالك أن تتكلم فى موضوع سياسى ، فان ذلك ليس من شأنك . وحسبنا فى ذلك حكومتنا السنية (حفظها الله وقواها) . ومعلوم أن الدين دين الله ، والهداية لدينه بيده لايملكها سواه . وليس علينا سوى أن نعرف والحمل على الأمور والتعب لتنفيذها خارج عن الواجب علينا . فلانتعرض له فمن سمع وعمل فالخير أراد لنفسه . ومن أعرض عنا وتركنا ومانأمر به فالخير أردنا ، وماعلينا الا البلاغ اتباعا لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ووقوفا على ماحده الله إذ يقول : " ان عليك الا البلاغ " (٤٢ ك الشورى : ٤٨) .

وبالاضافة الى ذلك فانه كان من تعاليم الجمعية الشرعية أن يتعاهد معها المنتسب اليها عهدا وثيقا يسلك عن طريقه أحسن طريق الى الهداية الرشيدة . ومن ذلك فانه لابد له فى كل أربع وعشرين ساعة من مجلس مخصوص فى الليل أو النهار ، والليل أولى ، بعد فراغه من الشواغل ، وذلك بأن يتوضأ إن أمكن ويصلى من النفل مايشاء واذا كانت عليه فوائت فانه يصلى منها بدلا عن النفل لأن فعل الفرض مقدم على فعل النفل . ثم عليه أن يستقبل القبلة إن أمكن ويقرأ ماتيسر من القرآن كالفاتحة وسورة تبارك الملك ان كان حافظا لها وسورة الكافرون ، ثم يستغفر الله بأى

صيغة مائة مرة أو أكثر ، ثم يجدد التوبة ويندم على مافعل من المخالفات ويحاسب نفسه على ذلك محاسبة حقيقية شديدة كأنها طفل بين يديه يريد تربيته وزجره بكل مايقدر عليه ، بمعنى أنه يذكر لها كل ماوقع منها طول النهار من المخالفات والتفريط والكسل وغير ذلك ، ويذكر له العذاب الذى جعله الله تعالى للعاصين والثواب الذى أعده تعالى للطائعين ، ومن ثم يحكم عليها أن تقبل على العبادة فى تلك الليلة بقدر ماارتكب من المعاصى أو أزيد إذ الحسنات تكفر السيئات . والمحاسبة المذكورة من أهم الأمور المطلوبة . ثم يصلى المنتسب الى الجمعية ويسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأى صيغة مائة مرة فأزيد وينبغى الاكثار ليلة الجمعة . ثم عليه أن يتجرد من الشواغل الدنيوية كلها إن أمكن أو بقدر مايمكن لأنه يريد الدخول فى حضرة الرب التى هى كناية عن الاقبال التام على الله عز وجل والاعراض عن كل ماسواه حتى عن نفسه ، ويكون جالسا فى مكان طاهر مظلم مطيب بالروائح الزكية كأنه يجلس للصلاة واضعا يديه على فخذيه مغمضا عينيه عما يشغل لأنه بتغميض العينين تنسد طرق الحواس الظاهرة ، وسدها يكون سببا لفتح حواس القلب . ويكون لابسا لثياب بيض حلال مطيبات الروائح البهية والفم والبدن مبعدا الروائح الكريهة لأن الروحانيين لايقبلون الروائح الكريهة وانقطاعهم عن مجلس الذكر علامة على انقطاع الخير . ثم يذكر فى الاسم الذى أذن الشيخ له فيه (ويكون هذا الشيخ الامام نفسه أو احد وعاظ الجمعية المقربين الى الشيخ الامام) بهمة تامة مستحضرا معنى ذلك الاسم فى قلبه حتى كأن قلبه هو الذاكر وهو يسمعه ، متباعدا عن تحريف الاسماء كما هو الواقع من أغبياء جهلة متصوفة الزمان حيث يخرجون فيما يسمونه ذكرا عن صريح كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويحرفون تحريفا يؤدى الى الكفر والعياذ بالله تعالى ان لم يكن كفرا صريحا ، ولايقبلون النصيحة ممن ينصحهم لاستحواذ الشيطان عليهم ... ولايختم

الذاكر حتى يحصل له نوع من الاستغراق بأن يحس من نفسه بحلاوة الذكر ويحصل له شوق وهيمان . ثم اذا ختم سكن واستحضر الذكر باجرائه على قلبه مترقبا لوارد الذكر فلعله يرد على القلب وارد ينشأ فى اللحظة من الثمرة مالم ينشأ عن مجاهدة نحو ثلاثين سنة . وهذه الوارد إما وارد زهد أو روع أو تحمل أذى أو محبة أو نحو ذلك ، تاركا للواردات الدينوية حابسا نفسه اذ ذاك ثلاث مرات أو خمسا أو سبعا هكذا بالافراد ، فلهذا السكتة ثلاثة آداب : مراقبة الله تعالى كأن الذاكر بين يديه ، وجمع حواسه بحيث لاتتحرك منه شعرة كحال الهر عند اصطياد الفأر ، وحبس نفسه مرارا حتى يدور وارد الذكر فى جميع عوالمه ويجرى على قلبه معنى الله . وعلى الذاكر أن يكف عن شرب الماء فى أثناء الذكر وبعد الفراغ منه ، لان للذكر حرارة تجلب الانوار والتجليات والواردات الجليلة وشرب الماء ربما أضعف تلك الحرارة . وأقل ذلك أن يصبر الذاكر نصف ساعة فلكية ، وكلما كثر كان احسن . بل ان الذاكر الصادق لايكاد يشرب الا عن ضرورة قوية لكون ترك شرب الماء من الآداب المؤكدة والحرص على هذا دلالة على الصدق . وهذه الآداب تطلب عند الامكان فلا يترك الذكر لفقدها .

وعلى الرغم من كل ذلك وغيره ، فقد تمردت كما ذكرت وذهبت الى مؤتمر الوفد فى يناير عام ١٩٣٥ ، ولم أوقف اطلاعى على الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ، أو شرائى للكتب غير الدينية . ولايمكن أن أنسى ثمار الاطلاع على هذه المجلات والكتب وآثارها على تفكيرى واتجاهاتى . ومنها مجلات الرسالة والرواية والثقافة والمصور ، ومن الصحف كنت أحرص على قراءة السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعى ، وكان لى نصيب من كتب المنفلوطى وشوقى ومصطفى صادق الرافعى والمازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وأحمد امين وفكرى اباظة وغيرها . وقد كونت مكتبة حوت العديد من الكتب والمجلات ، اضطررت فيما بعد الى بيعها بثمن بخس دراهم

معدودات . ولكن المكتبة تجددت مرة ومرة حتى أصبحت مكتبتى ـ وأنا اكتب هذه السطور ـ تستحق الاشادة بها لما حوت من كتب عربية وأجنبية فضلا عن كتبى التى استطعت عبر الايام أن أؤلفها وأنشرها .

أصبحت فى ضوء ظروفى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وفى ضوء الظروف السياسية فى شهر مايو عام ١٩٣٧ (شهر الغاء الامتيازات الأجنبية فى مصرنا الخالدة) ، فى حيرة من أمرى . وكدت أن أصبح شخصا هامشيا . فانا كنت فى تلك الفترة فعلا وحقا شابا متدينا . وكنت أرى فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة ، خبرات الحياة التى كنت أعيشها ، وخبراتى التى كنت أستقيها من الكتب والمجلات والمحاضرات ، ان التدين لايمكن أن يغمض عينيه عن الفساد الذى يستشرى فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين . وأن أعضاء المجتمع العاديين وهم الملايين ، فى ضوء ظروفهم الثقافية والاقتصادية ، لايمكن ان يكونوا وحدهم هم المسئولين عن هذا الفساد . واننا باسم الدين يجب ان نعمل عملا إيجابيا فى سبيل التغيير الى الأفضل ، وان هذا العمل الأيجابى لايمكن أن يكون المواعظ والذكر فحسب ، ولكن بالعمل فى محيط الناس ، بهم ومن أجلهم ، حتى يتحقق هذا التغيير . فالدين المعاملة كما هو معلوم ، معاملة الناس المعاملة الرشيدة من أجل أن يعيشوا حياة طيبة . أى أننا يجب أن نشتغل بالامور الدنيوية والسياسية منها على رأسها ، أى يجب ان نهتم بالامور العامة من أجل مواجهة المشاكل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا . واحسست فى ذلك الحين اننى مقيد معنويا وماديا معا . وعزمت على أن أصنع خطة جديدة لمستقبلى تتضمن بعض الأمور التى لابد لى من أن أحققها . ومادام هدفى أو مادامت أهدافى هى رفعة الدين ، فان تحقيق هذه الأهداف بالضرورة أمر مشروع . وفكرت انتهازا لما حدث لى فى غضون شهر مايو عام ١٩٣٧ أن أقدم على اعادة وجهى الى صورته الأولى . واعتقد أن رصيد

اعمالى بالجمعية الشرعية وأعمالى بفرعها بحى السيدة عائشة يشفع لى إزاء ماقمت به بل يؤكد أيضا حسن نيتى . فانا منذ أن حضرت مبايعة الشيخ أمين خطاب خليفة الأمام الشيخ محمود خطاب ، وأنا أعمل أعمالا متواصلة فى سبيل تقدم الجمعية وتثبيت أركانها ونشر دعوتها . ولم أكن قد فعلت المعجزات التى لايستطيع غيرى أن يقوم بأعظم منها ، ولكنى فى حدود قدراتى وامكانياتى أديت واجبى كعضو من أعضاء الجمعية بأمانة وشرف . واننى أذكر أننى وأنا أعمل سكرتيرا عاما لجمعية حى السيدة عائشة كنت أول من اقترح دعوة الشيخ أمين خطاب للخروج الى الشارع المصرى لعقد محاضرات دينية عامة خارج المسجد . وكانت المحاضرة الأولى فى حى الخليفة ، ثم بدأت أحياء مدينة القاهرة تفعل مثل مافعل حى الخليفة . ولم يمر أسبوع بعد صلاة الجمعة الا وتجدنى فى حضرة الشيخ أمين أمام الحاضرين بالمسجد أهب واقفا بينهم فألقى قصيدة شعرية تدعو الى تثبيت اركان الجمعية ونشر دعوتها . وكتبت فى الصحف المقالات وفى المجلات ، اذكر منها صحيفة "كوكب الشرق" ومجلة "الفضيلة" ، أؤكد هذه الدعوة وأرد على من كانوا يحقدون على الجمعية أو يحاولون النيل من رسالتها . وانتقلت المحاضرات خارج القاهرة فكنت أذهب اليها ألقى القصيدة تلو القصيدة تقربا الى الله تعالى . وكانت قصائدى على الرغم من "ركاكتها" وتكرار معانيها وصورها تنشر على صفحات المجلات الدينية التى تؤازر الجمعية ، بل كان بعضها يطبع . ومن هذا البعض قصيدة " يوم شبين " ألقيتها بين يدى الشيخ أمين فى جمع حاشد فى مدينة شبين الكوم فى شهر صفر عام ١٣٥٤ ـ (الموافق شهر مايو عام ١٩٣٥) . أى فى خلال عام شهداء دستور عام ١٩٢٣ . وفيه كان حصولى على شهادة البكالوريا وحصولى على وظيفة حكومية أيضا . ولعل تسجيل هذه القصيدة هنا أن يكون له دلالة صدق على ماأقوله ، ويكون شهادة على ماكنت أعتقد فى ذلك الحين .

بنـور الحـق أسمـو وينطـق كلمـى
والحـق يـرفـع قـدر النـاس والقلـم
قـم نـاد فـى الـعـالمـيـن مـرددا
حكـم الحقيقـة فـى بـهتـان منـهـزم
واسمـع لقلـب قـال مخـاطبـا
رجـالا فـى سمـا الـعليـاء كـالنجـم
والقلـب مـرآه ، والصـدق تـعكسـه
فـان أظلـم بيـت الشـر واللـؤم
والخيـر فـى قـول للحـق ينصـره
والبـر فـى تـرديـد المـرء ذا النـغـم
رفـع الامـام الـراحـل الـعلمـا
مـن غيـره يحمـى حـوزة الـعلـم ؟
خـاض المـعـارك صـابـرا ومظفـرا
جـاهـد الأغـراز ثـابـت القـدم
سـعـى لنشـر الـغـراء طـاقتـه
نـور النبـى خيـر الخلـق كلـهـم
كـم عـانـى مـن عنـت بنـى الـدنيـا
كثيـرا ، ولـم يـأبـه ولـم يصطـدم
قـد حقـق الـرحمـن اليـوم غـايتـه
فـى ظـل بطـل فـى الحـق كـالسـهـم
أميـن قـد رعـى لـلامـانـة حقـهـا
نـعـم الخليفـة رمـز النبـل والكـرم
للـه يسـعـى والحلـم رائـده
إن قـال درا كـالـعقـد منتظـم
نسـج علـى منـوال الحـق مجتـهـدا
أحيـا لنـا زمنـا كـان فـى القـدم
آل خطـاب بقيتـم لنـا ذخـرا
كـم أديتمـو لـلاسـلام مـن خـدم

انتم شموس الحق قد سطعت
أضياؤها بين الخلق والأمم
× ×　　× ×　　× ×
ان المعالى اليوم قالت مرتلة
اليوم عيد لأهل الفضل والحكم
سعى الينا النصر مبتسما
لما بدا ، بدا كل ثغر مبتسم
اليوم يوم شبين الذى
ضاهى يوم الفتح فى العظم
اليوم لنصر الشرع يفتخر
ومن البغاة له الخير منتقم
نصر الجليل فينا قد تجلى
والنصرآت لامحالة بالحزم
رجال الهدى هذا اليوم يومكمو
وشذاه يمحو سابق الحزن والألم
تبادلوا الفخر أنتم الألى
سعدوا وسادوا الناس بالهمم
ابيتم الحكم على النفس والهوى
ومن يرضى بحكم الذل والضيم ؟
كذا صفحة المجد بالنص قائلة
إن التقى سراج المجد والشمم
تجمعوا فى الحق أبدا وتكاتفوا
فالاعتصام قذى فى عين من ظلم
تذكروا الامام وصحبه الاخيارا
من جاهدوا الشر بالعفو والكظم
شادوا لمصر بنور العلم مفخرة
وهم للعلم أبدا أول الخدم
فالعلم نبت وراوى الدين يرويه

طبعا ، بالرى يحيا من العدم
جادت بهم أيام بالشح قد عرفت
بعثوا الحياة بروح الشرع فى الرمم
أصل السمو وكل له فرع
والحق يشهد والتاريخ للقلم
× × × × × ×
من لى بفئة الظلم الآن أرقبها
ويل لفئة السوء من غضب ومن نقم
باءوا بخزى الظلم وانصرموا
وكل باغ على الحق لم يدم

ولعل قارىء هذه القصيدة أن يرى مدى السذاجة والتناقض فيها ، وأن يرى أيضا مدى التكرار فى المعانى والصور التى توجد فيها ، فضلا عن الخلل الواضح فى وزن أبياتها ، والافق الضيق الذى كانت تحوم حوله . ولعل القارىء أيضا أن يجد النية الحسنة لكاتبها وأن يلاحظ حماسه الزائد على الحد لمؤازرة الجمعية الشرعية والعاملين فيها وعلى رأسهم رئيسها الشيخ أمين خليفة الأمام الراحل الشيخ محمود خطاب . وماأردت بتسجيلها هنا ، كما ذكرت آنفا ، الا أن أضرب مثلا لما كنت عليه وأنا فى سن الثانية والعشرين ، أو بعض ماكنت أفكر فيه ولجانب لما كنت أهدف اليه فى ذلك الحين . وأن أؤكد مدى ماواجهت من حيرة فكرية لم يخرجنى منها الا أن أصنع لنفسى خطة اسميتها لسذاجتى " خطة الغزو " فعند استلامى خطاب مصلحة الحدود الذى يتضمن مجازاتى بثلاثة أيام قطع ماهية للأسباب التى وردت فيه ، وكان ذلك فى يوم ٢٧ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، بادرت بوضع بنود هذه الخطة . قلت فيها :

"وقد عزمت - متوكلا على الله - على ماياتى :

أولا : أبقى بالمصلحة الى آخر سبتمبر عام ١٩٣٧ فقط . ثم أقدم أستقالتى من المصلحة ، احتجاجا على هذا الحكم غير

العادل . وفرارا من بيئة الوظيفة الملوثة .

ثانيا : اقتصد ماأستطيع فى كل انواع المصروفات فى خلال هذه المدة يونيو عام ١٩٣٧ - سبتمبر عام ١٩٣٧ .

ثالثا : أسعى جهدى لبيع نصف المنزل الذى أملكه ، وانى ارجو الله ان ييسر هذا البيع قريبا .

رابعا : التحاقى بكلية الصحافة بالجامعة الأمريكية فى موعد بدء الدراسة ، أو انتسب الى كلية الحقوق بالجامعة المصرية ان تيسر ذلك ، أو الى كلية الحقوق الفرنسية أن تعذر على الالتحاق بكلية الصحافة .

خامسا : اشترى ورقة يانصيب اذا ربحت ارصد هذا الربح لتعليمى فحسب ، على أن أنفق قيمته عند التيسير فى وجوه الخير .

وأنى أرجو الله مخلصا أن يبلغنى الآمال فى حدود الطرق الشرعية .

أمين

القاهرة فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٩٣٧ .

والقارىء لهذه الخطة ، خطة الغزو ! يلاحظ التعلق الشديد بمواصلة تعليمى تعليما عاليا . وقد يدهش وأنا الشخص المتدين إذ يجد فى هذه الخطة "شراء ورقة يانصيب" يخصص ربحها لتعليمى ، ويجد التناقض حتما فى طلب بلوغ الآمال فى حدود الطرق المشروعة على الرغم من التحفظ الوارد فى هذا البند من الخطة ويتعلق بانفاق قيمة ربح ورقة اليانصيب عند التيسير فى وجوه الخير . قد يدهش القارىء أو قد لايدهش ، ولكنى عندما وضعت الخطة كنت وخط التفكير الذى كنت أتبناه فى ذلك الحين على وفاق ، ذلك لأن حظ الشخص المتدين فى العادة مرهونا بمدى إيمانه بالقدر حلوه ومره وخيره وشره . والعبرة بالنيات . وكانت نيتى كلها كما كنت أراها فى ذلك الحين مشروعة وايمانى بالقدر فوق ذلك كان عظيما . وقد تأكد لى مدى صحة هذا الوفاق فى

التفكير عندما أشرفت على دراسة عن الأشخاص الذين يواظبون على قراءة موضوع "بختك اليوم" أو "حظك اليوم" فى الصحف اليومية . فقد اتضح ان هؤلاء يؤدون فريضة الصلاة وفريضة الصوم ، كما يزورون أضرحة الأولياء والقديسين ويؤدون لهم النذور ويوفون بها ، ونسبة كبيرة منهم يؤمنون بالاشباح ويمارسون عمليات البخور فى المناسبات وقراءة الفنجان والكف وحمل التمائم وفتح المندل .

ومن الصدف العجيبة ان بنود خطة الغزو المشار اليها قد نفذت جميعها فيما عدا بند "شراء ورقة اليانصيب" فلم أشترها ومن ثم لم أربح أو أخسر شيئا ، ولكن توقيت التنفيذ لم يكن بالدقة التى تضمنتها الخطة . وكذلك فانه بدلا من التحاقى بكلية الصحافة الامريكية أو انتسابى لكلية الحقوق بالجامعة المصرية أو التحاقى بكلية الحقوق الفرنسية فى موعد بدء الدراسة ، التحقت بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى يوم ١٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٧ . وكانت أستقالتى من مصلحة الحدود فى يوم ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ ، أما بيع نصف المنزل الذى كنت أملكه فقد تم بيعه فى يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٨ . ولامتلاكى لهذا العقار قصة . فالوكالة كانت جزءا من هذا المنزل وهو أحد البيوت التى كان يملكها جدى لأبى ، فلما ورثه عمى شقيق أبى ضمن ماورث ، أراد ان يؤجر الجزء الذى يضم الوكالة لى ولكنى عرضت عليه أن أشتريه فأبى الا أن أشترى البيت كله وساومته وساومنى وأنتهى الأمر بموافقة على شرائى لنصفه ولاأدفع لاحد ايجارا . وتم الشراء وأصبحت من ذوى الاملاك ولكن الى حين ، أى حتى تركت الوكالة لكى أتفرغ للدراسة وذلك فى يوم ٢٢ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، نفس اليوم الذى ذهبت اليها فيه تاركا مدرسة الخديوية الثانوية مضطرا منذ خمس سنوات .

وعندما أعدت وجهى الى صورته الأولى (أى قبل أن أحف شاربى وأن أعفى لحيتى) ، وكان ذلك بعد ان تسلمت خطاب

المصلحة مباشرة ، كان لما فعلته ردود فعل عديدة فى نفسى وفى الأسرة وفى المصلحة وفى الجمعية الشرعية جميعا . وانني أذكر جيدا أنني قبل أن أذهب الى "الحلاق" ذهبت الى "مصوراتى" لاحتفظ بصورتى ذات اللحية تذكارا ، ووجدتنى قد تغيرت سمات وجهى وأصبحت إنسانا آخر بعد أن تمت الحلاقة . فبعد ان كنت أشعر وكأننى شخص فى سن الستين من عمره رجعت شابا فى سن الرابعة والعشرين من عمرى ، وهو سنى الحقيقى . ومع هذا الشعور كان الأحساس بحرية الحركة يملأ على كيانى . فانا الأن أستطيع أن أعيش حياتى فى المجتمع . أستطيع أن أذهب الى أى مكان وأن أقابل دون ماحرج أى انسان . ولن يكون مصدر ثقافتى بعد اليوم قراءة الكتب والجرائد والمجلات فقط ، بل ستكون أمامى مصادر أخرى لاتقل أهمية عن هذا المصدر . ستكون أمامى المسارح والمتاحف ودور العرض السينمائى ، وسأنصت الى الموسيقى واستمع للاغانى ماشاء لى المورد والوقت ، وفضلا عن ذلك بل وقبل كل ذلك سأعيش بين أعضاء المجتمع ومعهم حرا طليقا لايعصمنى من الزلل سوى ضميرى ومبادئى ومثلى العليا .

وكان فرح أمى بما حدث عظيما . لم أرها فى هذه الحالة منذ زمن بعيد بعيد . ارتد اليها شبابها كما بدا لى ، وكانت ابتسامتها عريضة صافية تعكس الغبطة والحبور . وزوجتى كانت مثل أمى كما بدت لى فى حركاتها وقسمات وجهها . وقالت لى زوجتى بعد سنين أنها لم تكن لتنفر منى عندما كانت لى لحية ، ولكنها كانت تقول لنفسها كما كان يقول لها من حولها "إن أصغر من فى العائلة سنا أقدم على شىء لم يفعله اكبر من فى العائلة سنا" .

وفى المصلحة كنت وكأننى فى قفص حديقة الحيوانات ، يأتى الىّ الموظفون أفرادا وجماعات ليروا ماذا أصبحت بعد ان كنت . وكان دنيال أفندى ومعه جرجس وفؤاد وعلى من المتحمسين لما فعلت . أما الآخرين فقد كانوا يجيئون ويروحون وينظرون ولايقول أحد منهم شيئا . كنت حديث الجميع . وكأن ماحدث من تغيير كانوا

فى حاجة اليه ليتخذوا ذريعة الخروج من رتابة العمل وصرامة المناخ الثقافى والاجتماعى الذى يملأ المصلحة العسكرية التى مازال يعيش تحت سقفها الانجليز على الرغم من عقد معاهدة عام ١٩٣٦ . وقد أصبحوا فى ضوء بعض بنود هذه المعاهدة خبراء فى الجيش المصرى . وهاتون بك لم يصبح هاتون بك وجرين بك لم يصبح جرين بك ، ولكنهما ومعهما غيرهما من ضباط الانجليز كانوا يعيشون بيننا بلحمهم وشحمهم ، ومازالت هيبتهم هى هى لم تتغير عند موظفى المصلحة أوأغلبيتهم عبيد احساناتهم وأكلى فتات موائدهم .

ولعل من أهم ماانتجت عنه معاهدة عام ١٩٣٦ الاهتمام بتكوين جيش مصرى قوى ، والحاجة الى ضباط مصريين من الشبان من الحاصلين على شهادة البكالوريا . وكان "محمد" بن حافظ اسماعيل افندى صول المصلحة قد حصل على الشهادة ، وقد عين بالمصلحة منذ فترة قصيرة جدا قبل اعلان الحاجة الى ضباط مصريين من الشبان ، فكان أول من تقدموا لكى يلتحق بالجيش المصرى ليكون أحد هؤلاء الضباط . وسعى والده السعى المتواصل لدى المسئولين فى وزارة الحربية والبحرية فى ذلك الحين ونجح مسعاه والتحق محمد حافظ اسماعيل بالجيش تاركا الوظيفة بالمصلحة ، التى لم يشغلها سوى وقت قصير ، غير أسف . كنت فى سن الثالثة والعشرين عندما أعلن عن طلب شبان من الحاصلين على شهادة البكالوريا . أى أننى كنت قد تجاوزت السن المطلوبة ، وحتى إن لم أكن قد تجاوزتها فإننى فى ضوء وصايا أبى عن الفرار من الالتحاق بالجيش لخبرته بما كان يحدث بين جنباته ، فضلا عن خبراتى الذاتية وأنا أعيش مع ضباط مصريين تحت سقف واحد بالمصلحة ـ فاننى لم أكن أتصور أن أقدم طلبا كما فعل الكثيرون . إن هدفى أن اتعلم التعليم العالى الذى يؤهلنى لكى أعمل عملا صالحا . وكان هذا العمل الصالح عندى فى ذلك الحين أن أخدم أبناء الوطن ، أبناء مصرنا الخالدة

لكى يتغيروا الى الأفضل والى الأعظم . ولم أكن أعرف جازما كيف السبيل الى تحقيق هذا الهدف ، واذا كنت اعرف فلم أكن متأكدا إذا كنت استطيع . ولكن كان يبدو لى أن عدم معرفتى السبيل كان أولى بالجهد والمثابرة حتى أعرف ، فاذا عرفت فان الله جل وعلا قادر على أن يعيننى على تحقيق آمالى فى خدمة الوطن الغالى . ألم أغير اسم "ثريا" الذى اخترته اسما لابنتى الأولى عندما ولدت فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٦ ، واستبدلت به "آمال" وكنت أدعو الله الكريم المتعال مرددا كلما حملتها وهى رضيعة "اللهم بحبك لآمالى بلغنى آمالى" ! وكانت آمالى فى ذلك الحين أن أتعلم لكى أعمل عملا صالحا يرضى الله ويرضى الوطن العزيز .

وكنت على هذا الحال عندما أعدت وجهى الى صورته الأولى . وكنت اتوقع سوء فهم أعضاء الجمعية الشرعية لما أقدمت عليه . فلم يكن منهم واحد ، وكان هذا تصورى ، يمكن أن يبرر مافعلت تبريرا إنسانيا . ومن ثم فقد انسحبت من حضور مجلس ادارة الجمعية الشرعية . حيث كنت أشغل عمل سكرتير مجلس ادارتها . وقد دعيت الى شغل هذا العمل وكان لدتى وغيرهم يغبطوننى على هذا الاختيار ، فهأنذا سأجلس مع الصفوة من رجالات الجمعية الشرعية وعلى رأسها الشيخ أمين خطاب ومعه الشيخ على حلوة والشيخ درويش الجعبرى والشيخ ابراهيم عثمان وغير هؤلاء لااذكرهم الآن . وقد سعدت بهذه الدعوة واعتبرتها تكريما لشخصى الضعيف . ولم أدع لهذا العمل الا بعد ان خففت شاربى وأعفيت لحيتى . والآن وقد اعدت وجهى الى صورته الأولى فاننى رأيت أن لااتيح لواحد منهم أن يرى وجهى . ولم أرد لفرط حساسيتى أن أضع نفسى فى الحرج أو أن أضع غيرى فى الحرج . ووجودى بين هؤلاء الشيوخ وهم بعيدون عن الهالة التى تحيط بهم وهم بين الجماهير زاد من خبراتى عن النفس البشرية الشىء الكثير . وجدتهم مثل الآخرين ، فيهم نقاط قوة وفيهم نقاط الضعف كبشر . وكان يحز فى نفسى كثيرا عندما يهل علينا الشيخ امين

ليرأس الجلسة وأجد الشيخ على حلوة ماسكا "الفروة الصوف" بيديه ليهيأها لكى يجلس عليها الشيخ امين . وكان يبدو لى فى كل مرة ان الشيخ أمين ينتظر مايقوم به هذا الرجل الكريم ويتوقعه . ولكنى لم أكن راضيا أبدا عن العلاقة بين الشيخين . إننى متأكد ان الشيخ على حلوة كان يفعل ماكان يفعله غير مرغم بل هو راض وسعيد . ولكن موقف الشيخ أمين وتوقعه أن يفعل هو أو غيره ماكان يفعله لم اكن استسغيه . ولكنى كنت أكتم ذلك ولاأصرح به لاحد . ولايمكن أن أنسى أبدا عندما توفى أحد أعضاء الجمعية وكان رجلا ثريا وأوصى قبل وفاته بأثاث بيته تبرعا للجمعية . وفى احدى الجلسات أثير هذا الموضوع ، وتقرر أن يباع الاثاث على أن يورد ثمنه الى خزينة الجمعية . ولم تشكل لجنة للبيع ، ولم يقرر شىء عما اذا كان بيع الاثاث سيكون علنيا أو غير علنى . وفوجئت بأن طلب الشيخ امين حجز " السرير " لاهل بيته على أن يدفع مبلغا ذكره . وتمت الصفقة ولم يعترض أحد من الاعضاء على طلب الشيخ لانه كما قيل لى بعد ذلك إن طلب الشيخ يعتبر أمرا . ولم يكن من حقى أن أقول شيئا فأنا لست عضوا إنما أنا سكرتير جلسة فحسب . وأشياء أخرى وأمور أخرى كانت تحدث فى جلسات مجلس ادارة الجمعية الشرعية عندما كنت أحضر هذه الجلسات ، الكثير منها كنت راضيا عنه كل الرضا ، والبعض كان قليلا كنت لاأتوقعه أن يحدث . ولعل اعتراضى على القليل من الاشياء أو الامور التى كانت تحدث كان يرجع الى مثاليتى التى كان هؤلاء الصفوة من رجالات الجمعية يدعون اليها ويحاولون أن يغرسوها فى نفوس المريدين والاتباع . وقد بقيت هذه المثالية وأنا أواجه حياتى المستقبلية على الرغم من انسحابى من حضور مجلس ادارة الجمعية الشرعية وعدم ذهابى الى مقر الجمعية بعطفة الجوخدار بالمغربلين حتى كتابة هذه السطور .

وعلى الرغم من هذا الانسحاب وعدم ذهابى الى مقر الجمعية الشرعية ، فلم يكن فى نيتى أن أسلك نفس السلوك مع جمعية حى

السيدة عائشة التى اشتركت فى تأسيسها فى عام ١٩٣٤ . والجمعية الأخيرة تعتبر فرعا من فروع الجمعية الأولى . ومع ذلك فقد آثرت أن انسحب أيضا وكتبت الى مجلس الادارة كتاب الاستقالة ونصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الزملاء المحترمين رئيس وأعضاء الجمعية التعاونية الشرعية (حى السيدة عائشة)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ اما بعد ـ

فأقدم استقالتى من الجمعية .

أما من جهة وجودكم بالمنزل رقم ٦ شارع الزرايب قسم الخليفة ـ فهو على العين والرأس حتى أبيع نصيبى فيه .

أما من جهة : أوراق الجمعية فانى مستعد لتسليمها قريبا .

أما من جهة : ما على من دين شخصى فأرجو موافاتى بكشف الحساب حتى يمكننى تنظيم سداده .

أما من جهتكم : فانى لا أستطيع ، ولن استطيع وصف ما يكنه فؤادى ـ المريض ـ نحوكم من حب ووفاء دائمين مادامت الحياة .

أما من جهتى : فانسونى أو فاذكرونى ـ ولا ازيد ـ ورجائى اذا ذكرتمونى أن تذكرونى بخير . وأذكرونى بالدعاء المتواصل ، اذكرونى ولاتنسونى فذكركم اياى هو عزائى عن فقدكم الحسى لا الروحى ، وسلوتى فى وحدتى .

أما كلمتى الاخيرة لكم : فهى اعملوا ، اعملوا ، اعملوا متكاتفين ، والله معكم والله يتولاكم .

يوم السبت : ٥ / ٦ / ١٩٣٧

سيد عويس

وجاءنى الرد على كتاب استقالتى الذى امضاه رئيس مجلس ادارة الجمعية ونصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الهادى البشير النذير سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله ومن عمل بشرعه الى يوم الدين .

من رجال مجلس ادارة الجمعية التعاونية الشرعية بحى السيدة عائشة النبوية الى حضرة الاخ المحترم سيد افندى عويس لازال فى رعاية الله وتوفيقه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته _ اما بعد _

فقد تصفحنا استقالتكم التى عرضت علينا بجلسة ٢٧ ربيع الاول ١٣٥٦ وقد اسفنا أشد الاسف على السبب الذى من أجله قد سطرت تلك الاستقالة . ولكن هذا الحادث _ الداعى لذلك _ ليس الاول من نوعه بل قد حدث لكثير ولكن العاقبة كانت والحمد لله مرضية بالمواظبة على الجهاد . نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقك لما كنت عليه حتى تعود المياه الى مجاريها ونأمل ان يكون ذلك قريبا ان شاء الله تعالى .

وقد منعنا من مقابلتكم شفقتنا عليكم ورحمتنا بكم وانتظارا للخير الذى ينشده لكم الجميع وانا ننصح لكم بالمواظبة على حضور مجالس العلم والعلماء العاملين حتى تتبدل الحال غير الحال .

ان استقالتكم قد رفض قبولها بالاغلبية المطلقة واننا لمنتظرون تلك الفرصة السعيدة التى يلحظكم فيها الله برعايته فتعودون الى حصنه المتين فترجع الينا فرحا مسرورا جزلا صبورا فتتهلل الوجوه البشر والسرور فنهلل ونكبر على توفيقه اياكم ورجوعكم الى حزبه المنصور .

وفقنا الله جميعا للصواب وهدانا الله واياكم طريقا مستقيما

٣ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦

رئيس مجلس ادارة الجمعية

" زاد الدين نور الدين ""

وكان وقع مضمون هذا الخطاب على نفسى أليما . وبخاصة عندما قرأت بعض السطور التى تتضمن الشفقة على والرحمة بى . واحسست بأن مرسليه وكأنهم اقتنصوا الفرصة لكى يتخلصوا من وجودى . ولم اكن احمل لاحد منهم الا الحب والاحترام ولم اكن احمل لأيهم غلا ولا حقدا . صحيح كانت الجلسات التى نعقدها لاتخلو من المناقشات التى تبرز حدة المنافسة بين المتنافسين وكنت احدهم ، ولكننا كنا ، كما كنت اعتقد ، نخرج من الجلسة أصدقاء أصفياء لا تشوب نفوسنا شائبة ومع ذلك فلم استرح أو تهدأ نفسى الا بعد أن أعددت ردا على الخطاب المرسل الىّ من مجلس ادارة جمعية السيدة عائشة وكان نصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وآله .

حضرات الزملاء المحترمين رئيس وأعضاء الجمعية التعاونية الشرعية

بحى السيدة عائشة النبوية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ أما بعد :

فقد وصلنى كتابكم الكريم المؤرخ فى ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ ، يوم الخميس الموافق ٨ منه . اشكركم على ثقتكم بى أن رفضتم استقالتى من الجمعية بالاغلبية المطلقة . واعلن ـ مضطرا وآسفا ـ أننى مازلت حيث كنت فى كتابى السابق . ووضعا للأمور فى نصابها أقول مصححا بعض ما جاء فى كتابكم ، إن الاستقالة التى قدمتها فى كتابى المشار اليه كانت غير مسببة . اما سببها الحقيقى وأرجو ان توقنوا بأن لاسبب غيره ، هو عين السبب الذى من اجله استقلت من الجمعية الشرعية ، وهو انى عازم بمشيئة الله الكريم على أن التحق باحدى جامعات القاهرة لاتمام دراستى العالية بها . ولايمكننى ـ والحال هذه ـ القيام بالواجبين معا على وجه يكفل النجاح والاتقان جميعا .

والله يعلم انى ما أقدمت على ذلك الابعد ان تأكدت ووثقت تماما بمقدرتكم على الاضطلاع بمهام الجمعية وإدارة شئونها ، كما لو كنت فيكم واكمل . فكلكم بحمد الله تعالى سيد عويس ، وكلكم خير جندى يعرف الواجب عليه ، ويعرف كيف يؤدى .

أما السبب الذى أشرتم اليه بطرف خفى فى كتابكم فانى أسمو بكم وبالصلة الروحية المقدسة التى توطدت بيننا على أمتن أساس واكمله ، أن تتخيلوه أو تتوهموه سببا لبترها ، بترا حسيا كان أو معنويا .

ألا ان الصلة التى بيننا هى صلة الايمان المحمدى الراسخ ، هى صلة الروح الذى يسمو . فهل تقطعها شعيرات قطعت ؟ ألا ان الايمان الحقيقى ليس بيتا من الشعر ، وإن أوهى البيوت لبيت من الشعر ، ألا انه هو حصن الله المتين ، اذا دخله العبد كان آمنا .

ألا ان المبادىء السامية التى نعتنقها هى مبادىء الخير بمعانيه الخيرة تجمعنا - فى سبيل تحقيقها - تحت لواء الشرف والتضحية . وفى ميدان الشرف والتضحية متسع للجميع .

ألا اننى وان تركت الميدان الذى تعملون فيه اليوم ، فقد سبقتكم الى غيره من معدنه أمهد لكم السبيل اليه ، لتلحقوا بى غدا .

ألا ان شجرة الايمان التى وضع إمامنا الاكبر الشيخ محمود خطاب - رضى الله عنه - بيده الكريمة بذرتها فى قلبى ، والتى يسبقها دعاؤكم العذب الصافى ، والتى يرعاها الله تعالى بمحض فضله .. ستثمر حتما .. ولن تموت ..

والسلام

يوم الخميس : ٨ ربيع الثانى سنة ١٩٥٦

١٧ يونيو ١٩٣٧

سيد عويس

ولعل القارىء أن يلاحظ السخرية التى تبرز بين بعض سطور هذا الخطاب وقد تعمدت ذلك فقد شعرت بأن الرد على استقالتى كما سبق أن أوضحت قد ألمنى . ويبدو أن قولى فى الخطاب الاخير ، أقصد خطاب الاستقالة عبارة .. ولن استطيع وصف ما يكنه فؤادى - المريض - نحوكم من حب ووفاء .. الخ ، قد كان عاملا من عوامل القسوة فى الرد الذى دبجه يراع رئيس مجلس ادارة الجمعية . فقولى فؤادى المريض لم يكن فى حقيقة الامر الا وسيلة لكى أدعه وأعضاء مجلس الادارة يشعرون بالذنب ، وربما كان هذا القول يعبر ايضا عن شعورى بالذنب . وان كنت فى ضوء ماعزمت عليه فعلا أرجح التفسير الأول . فقد كان عزمى على مواصلة التعليم العالى عزما اكيدا مافى ذلك من شك .

وعشت حياتى بعد ذلك بين أعضاء اسرتى وفى مكتبتى أنهل من كتبها العديدة المتنوعة شهد المعرفة وعذبها ، وفى مصلحة الحدود فى قلم التوريدات مع دانيال أفندى برسوم وجرجس وفؤاد وعلى وأحسست بالحرية تملأ على كيانى وتغذى روحى ووجدانى . وعدت شخصا عاديا أواجه الامور دون ما تكلف أو تعسف أو ادعاء . أى كبشر لا يدعى الكمال ، فالكمال لله وحده ، وقد يتعمد الخطأ أو قد يهفو عفوا ، لكى يبتهل الى الله سائلا التوبة منه عما أخطا أو عما هفا ، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ووضح عندى المعنى الذى كان يقصده احمد شوقى من عبارته " وانبع مافى الحياة الألم " وكنا فى قلم التوريدات فى عزلة عن باقى موظفى المصلحة وكانت سياسة دانيال افندى لايدع انسانا يتدخل فى أى شأن من شئون القلم حتى لايفهم أحد اسرار العمل وكان من رأيه أن أجلس الى مكتبى اقرأ الجريدة وأشرب "القهوة" وأن أترك له العمل ومواجهة موظفى المصلحة بعامة ورؤساء الأقلام ومدير الادارة بخاصة . وكنت سعيدا بهذا الوضع الاجتماعى الجديد . وكانت سعادتى أكثر لأننى وجدت الوقت لكى أقرأ وألتهم ماأقرأ ، فكنت أحضر معى مايحلو لى من الكتب . وقد وجدت فى قلم

التوريدات كنزا من الكتب فى ركن من أركان القلم لايأبه بها أحد . وقد احضرتها المصلحة لكى توزع على أقلام الديوان العام أو على ادارات المصلحة فى طول الحدود وعرضها فى الصحراء الغربية وفى الواحات وفى الغردقة وفى سيناء والبحر الأحمر ، ولكن لم يهتم بتوزيعها أحد وبقيت قابعة فى ركن من الأركان فى احدى حجرات قلم التوريدات . وجدت كنزا . وجدت كتب "قبض الريح" و "حصاد الهشيم" و "فى المرآة" و "حياة محمد" و "آلام فيرتر" للمازنى وعبد العزيز البشرى ومحمد حسين هيكل وأحمد حسن الزيات ، ووجدت أخرى لغير هؤلاء . وقد قرأت هذه الكتب جميعها وأعدت قراءة بعضها . فالوقت لدى متسع . لأننى لاأعمل شيئا حتى لاأعرف أسرار العمل ولكى أثبت للملأ أننى لاأطمع فى رئاسة القلم أو أنافس دانيال أفندى فى مقابلة الحكام أقصد حكام مصلحة الحدود فى ذلك الحين .

ومرت الأيام الباقية من شهر مايو عام ١٩٣٧ ثم مر شهر يونيو ، وجاء شهر يوليو وفى غضونه طالعتنا الصحف اليومية المصرية والأجنبية بأخبار تأسيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وانشاء "مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة" ، ودعوة المصريات والمصريين الذين يستوفون شروط الالتحاق بالمدرسة الى ملء استمارات معدة لهذا الغرض فى أقرب فرصة ممكنة ، حيث إن افتتاح المدرسة قد تحدد فى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ .

وفى هذه الفترة قرأت، كما قرأ غيرى عن هذه الجمعية ، وعن هذه المدرسة . وكان معظم ماقرأته أمرا جديدا ، أمرا ملفتا للأنظار وللأذهان جميعا . وأعدت ماقرأته مرارا . فقد قرأت مثلا "ان الفقر ليس مجرد ظاهرة اجتماعية يمكن ان نواجهها بالاحسان فحسب ، ولكن الفقر هو عارض لظروف اجتماعية أكثر عمقا تحتاج الى الدراسة ثم الى العلاج" . و "أنه منذ سنين قليلة والحديث لاينقطع عن الحاجة الماسة الى الاصلاح الاجتماعى فى مصر ، ولكن الجهود نحو هذا الأصلاح الاجتماعى لايمكن ان تؤتى ثمارها

الا اذا أسست على دراسات متعمقة ودقيقة للظروف الاجتماعية كما هى موجودة فى المجتمع المصرى فضلا عن المشاكل والمساوىء التى يجب أن نواجهها . وليس كافيا أن نقرأ الاحصاءات والمقالات عن ازدياد الجريمة فى المجتمع . أو عن انتشار الفقر والامية فى محيط الملايين ، أو عن حالة الصحة العامة المنحطة على الرغم من الجهود الحكومية ، أو عن الاطفال الذين يهيمون عابثين بالأمن فى الشوارع ، أو عن مشكلة الطلاق .... الخ ، وذلك أن هذه الظواهر جميعا مجرد أعراض . انه من الضرورى أن نتعمق أكثر حتى نكتشف العوامل الكامنة لوجود هذه الظواهر" . و "ان الخطوة الأولى نحو الاصلاح الاجتماعى هى الدراسة الدقيقة للظروف الاجتماعية التى يقوم بها أشخاص قد تدربوا خصيصا لهذا الغرض ، وأن يكون حماسهم للعمل لايقبل أى شك" . و "ان دراسة احدى النظريات الاجتماعية مهما كانت ذا فائدة فانها غير كافية فى حد ذاتها . فليس يكفى أبدا أن يدرس الطالب فى كليته أو فى بيته ان عوامل مشكلة الفقر هى كذا وكذا . فان العوامل الحقيقية لمشكلة الفقر فى مصر مثلا قد تكون مختلفة تماما عن العوامل التى يقرؤها هذا الطالب ، لأنها قد تكون فى الغالب عوامل تتصل بظروف اجتماعية معينة فى البلاد الأمريكية أو فى بلاد الأوروبية . "ان الواجب الأول الذى يواجه الذين يهتمون بالاصلاح الاجتماعى فى مصر هو أن يتخذوا الخطوات الضرورية نحو انشاء مدرسة لتخريج اخصائيين اجتماعيين أكفاء لدراسة المسائل الاجتماعية من مصادرها الأصلية عن طريق الاتصال بالآباء والامهات فى بيوتهم ، أو بالعمل فى المستشفيات وفى الملاجىء وفى المحلات الاجتماعية وفى الاصلاحيات وفى أندية العمال ، وعن طريق دراسة المشاكل الريفية فى القرى وفى بيوت الفلاحين وبالعمل فى هذه الميادين للحصول على الخبرات المباشرة " . و "انه يوجد فى مصر فى الوقت الحاضر العديد من

الهيئات التى تعمل من أجل الاصلاح الاجتماعى . ولكن الملاحظ أن انجازات هذه الهيئات أقل مما يهدف العاملون فيها الى تحقيقه ، لانهم فى ضوء ظروفهم لم يعدوا للقيام بمهنة الخدمة الاجتماعية الاعداد الضرورى" . و "على ذلك فانه من المستبعد أن نتجه نحو الاصلاح الاجتماعى الا اذا انشئت مدرسة تقوم بتدريب الاخصائيين الاجتماعيين المهنيين . وانشاء هذه المدرسة لن يكلف مبالغ باهظة . وليس صعب المنال . ولن نحتاج من أجل ذلك الى دعوة أساتذة أجانب من الخارج ، أو الى بناء مبنى جديد" .

وقد بهرتنى هذه الأفكار كما بهرت غيرى . فهى أفكار تدعو الى اتخاذ العلم منهجا فى مواجهة مشاكل مصرنا الخالدة وأدوائها . وهى دعوة رائدة الى قيام المصريات والمصريين المؤهلين باجراء البحوث والدراسات الميدانية العلمية فى واقع المجتمع الحى ، جاءت فى ضوء ظروف هذا المجتمع فى أوانها . ولم تكن هذه الدعوة الى اجراء البحوث والدراسات الميدانية العلمية قاصرة على ذلك ، بل جاءت للتعرف على ماهو كائن موضوعيا ، من أجل الاصلاح الاجتماعى الواعى ، أى من أجل التغيير الواعى الى الأفضل .

وقد اشترطت المدرسة لقبول الطلبة الجدد بعض الشروط أهمها أن يكون الطالب حاصلا على شهادة البكالوريا المصرية أو مايعادلها . وقد توفرت فىّ هذه الشروط جميعا . ومن ثم كنت أول من ذهب الى مقر المدرسة الجديدة ، وملأت استمارة الالتحاق بها أملا فى أن أكون ضمن طلابها . وقد تحقق هذا الأمل لأن الدراسة كانت مسائية ، ولأن مصاريف الدراسة قد تيسر لى فى ضوء ماأحصل عليه من مرتب أن أدفعها ، ولأننى اجتزت امتحانا شفويا بنجاح .

وفى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ افتتحت الدراسة بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة . وكنت واحدا من ٦٥ طالبة وطالبا حضروا أول محاضرة ألقيت فى الفترة الدراسية الأولى . وكان يوما مشهودا . أذكره على الدوام . ولايمكن أن أنساه . ويذكره زميلاتى وزملائى على الدوام . ولايمكن أن ينسوه . كنا من جيل كان يملؤ قلوب أبنائه حب مصرنا الخالدة كما كانت تملأ قلوب أبنائه الرغبة فى النهوض بها . وها قد جاءت الفرصة النادرة . كنا من جيل أعضاؤه كانوا يرددون هتاف "نريد أن نتعلم" . يرددونه وهم صامتون أحيانا ، ويرددونه بأعلى أصواتهم أحيانا آخرى .

وجاء العلم إلينا يتهادى واستمتعنا ، واستمعنا لأساتذة مصريين ، أذكر منهم الآن الأستاذ اسماعيل القبانى ، والدكتور بن بهمان ، والدكتور حلمى السعيد ، والسيدة زاهية مرزوق ، والدكتور عبد الحميد جوهر ، والدكتور عبد العزيز القوصى ، والدكتور عبد الواحد الوكيل ، والدكتور على حسن ، والأستاذ فتح الله المرصفى ، والأستاذ كمال الدين فهمى ، والدكتور محمد خليل عبد الخالق ، والدكتور محمد عبد المنعم رياض ، والدكتور محمد عوض محمد ، والاستاذ محمد كامل النحاس ، والدكتور محمود أباظة ، والدكتور محمود عزمى القطان ، والدكتور منصور شوقى ، والاستاذ يعقوب فام .

وجاء العلم الينا يتهادى واستمتعنا ، واستمعنا لأساتذة آجانب أذكر منهم الآن السيدة إلزا ثابت ، والسيدة برتا فهمى ، والآنسة مارى ديفو نشير ، والدكتور ويندل كليلاند .

وفى يوم ٢٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٧ احتفل بافتتاح المدرسة رسميا . وأقيم لذلك سرادق كبير أمه عدد من المهتمين بالشئون الاجتماعية من كبار رجال التعليم والزراعة والاقتصاد

وأساتذة الجامعة المصرية وأعضاء مجمع اللغة العربية ولفيف كبير من السيدات والآنسات ، المصريات والأجنبيات . وقد افتتح الحفلة الدكتور محمود ماهر وكيل مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ورئيسها بالنيابة . وقد مثل فى هذا الاحتفال وزارة المعارف الأستاذ محمد حسن العشماوى وكيل الوزارة وألقى فيه كلمة بالنيابة عن وزارة المعارف كما ألقت السيدة حرم الدكتور منصور فهمى كلمة الجمعية . وألقى طالبة وطالب كلمتين بالنيابة عن طالبات المدرسة وطلبتها .

وأنا أذكر الآن هذه المناسبة كان اليوم يوم الخميس . وكنت وغيرى من الطالبات والطلبة أسرة تحتفل بأفراحها . وكان الاحتفال جادا ورائعا وعاما . ولكنه كان أيضا احتفالا لما نصبو اليه من آمال ومانعقد العزم عليه من أعمال وخدمات نؤديها من أجل مصرنا الخالدة . كانت الآمال آمالا شريفة نقية . وكان العزم عزما أكيدا . لقد تذوقنا بعض قطرات من محيط المعرفة الزاخر وعشنا كل معانيها ، وأحسسنا بأن القيود التى تكبلنا تتفكك ، وأن عقولنا الفتية تتفتح . وكان يوما عظيما ترك آثاره الطيبة ولايزال فى النفوس وفى العقول . قد بدأت فيه الخطوة الأولى للاعتراف بتعقيل العمل الاجتماعى فى سبيل التغيير الى الافضل ، تغيير مجتمعنا المصرى فى ذلك الحين الى الأفضل .

وقد تضمنت كلمة الأستاذ محمد حسن العشماوى فى هذه المناسبة الجليلة مايلى : " لعل الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية وأفضل تعريف اطلعت عليه هو تعريف وضعه مؤتمر دولى عقد فى السنوات الأخيرة لبحث وجود هذه الخدمة ففسرها بأنها هى مجموع الجهود التى يقصد بها المعونة فى النواحى الآتية :

- تخفيف الآلام التى تنشأ عن البؤس وهذه الناحية يمكن أن يطلق عليها ناحية " الخدمة المطلقة " .
- وضع الأشخاص والأسر فى ظروف تلائمهم : وهذه

الناحية هى ناحية " الخدمة الشاقة " .

- منع وقوع الويلات الاجتماعية : وهذه هى ناحية " الخدمة الوقائية " .
- تحسين حال المجتمع ورفع مستوى المعيشة : وهذه هى ناحية " الخدمة الانشائية " .

و" أنى لأرجو أن تقوم المدرسة التى نحضر اليوم افتتاحها الرسمى بما نؤمله فيها من تخريج اخصائيات واخصائيين فى الشئون الاجتماعية يسدون النقص الكبير الذى نشعر به الآن فى الميدان الاجتماعى " .

و" يسرنى أن أعلن اليوم أن الوزارة لم تقتصر على الترحيب الأدبى بل شفعته بتشجيع مادى إذ قررت منح الجمعية مبلغ ٣٠٠ جنيه لاعانتها على القيام بسد بعض نفقاتها وشراء ما تحتاج اليه من كتب فى الشئون الاجتماعية . كما قررت أن تدرج لها فى الميزانية مبلغا ثابتا يمنح لها سنويا . وستنظر الوزارة فى تقدير الدبلوم الذى تمنحه المدرسة . كما ستنظر فى وضع نظام لتفضيل الطلاب الذين يتمون الدراسة بهذه المدرسة وتتوافر لهم المؤهلات المطلوبة فى شغل وظائف الاشراف على النواحى الاجتماعية فى المعاهد والملاجىء وفى تلقين الطلبة بعض الموضوعات المتصلة بالدراسات الاجتماعية . وكذلك وافقت الوزارة على تمكين طالبات وطلبة معهدى التربية للبنات والبنين وبعض المدرسات والمدرسين المشتغلين بالنواحى الاجتماعية من حضور مقررات المدرسة كلها أو بعضها مقابل رسم تدفعه الوزارة عنهم لهذه المدرسة " .

وطالما تمنيت أن أقف مثل هذه الموقف بعيدا عن دائرة عملى الحكومى فى ميدان حر أرحب بمشروع حر كهذا المشروع الذى نحتفل به اليوم "

و" بمثل هذه المجهودات المثمرة يهيأ الشعب للاشتراك الفعلى فى الميادين الاجتماعية " .

أما السيدة حرم الدكتور منصور فهمى ، فقد تضمنت كلمتها فى هذه المناسبة الجليلة مايلى :

" أن النهضة المصرية العامة تناولت فى هذا العصر الحديث عدة نواح فى الاصلاح بفضل جهود الموفقين من ولاة الامور وبفضل الغيورين من أبناء مصر على مصلحة البلاد . لكن مهما بلغت بلادنا من الرقى فى النواحى الاقتصادية والصناعية وغيرها فان بعض النواحى الاجتماعية عندنا لايزال فى طور نشأته الأولى ، وفى مقدمتها رعاية الطفولة والأمومة ، ورفع مستوى الأسرة وتوطيد أركانها وتقوية روابطها ، والعناية بذوى العاهات ، والنظر فى أدوار المراهقة ومشاكلها ، وحماية الفتيات والفتيان من المفاسد والمغريات ، وتنظيم أوقات الفراغ ، وماشاكل ذلك من وجوه الاصلاح مما يحتاج الى العاملين الصادقين " .

و" ذكرت لكم نبذة قصيرة عن أول معهد للخدمة الاجتماعية نشأ فى القاهرة ، ويسرنى أنه أول معهد من نوعه فى البلاد العربية ، وأن فى بوادر إنشائه مايبشر بنجاحه ، ولربما يباح لنا أن نتطلع الى أمل مشروع ، ذلك أن تهيىء الحكومة إدارة قوية منظمة لرعاية الخدمة الاجتماعية أسوة بالحكومات التى اضطرتها شئون الحياة العصرية الى تنظيم الجهود لتتبع مشاكلها " .

وعشنا فترات الدراسة فى السنة الأولى عام ١٩٣٧/١٩٣٨ ، التى تضمنت علم الصحة الشخصية والاسعاف الأولى وعلم النفس العام وعلم الصحة العقلية . وعلم الصحة العامة وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والمشاكل الريفية . ثم أستأنفت الدراسة بالمدرسة فى أكتوبر عام ١٩٣٨ . ونقل الى السنة الثانية طلبة السنة الأولى الماضية البالغ عددهم ٦٥ طالبة وطالبا . وقد درسنا فى خلال السنة الثانية موضوعات شتى ، أذكر منها طرق الخدمة الاجتماعية ، ونظم الهيئات المشتغلة بالخدمة الاجتماعية ، ومشاكل العمال والتشريع الاجتماعى ، وأعمال الاندية والملاعب ،

القيادة ، ودراسات فى المسائل الريفية وفى الاجتماع والاقتصاد و فى مشاكل الاطفال المهملين والمتشردين وذوى العاهات ومن فى حكمهم . وقد اعد لدراسة هذه الموضوعات ٢٤٠ محاضرة .

وبالاضافة الى المحاضرات المدرسية اهتمت المدرسة بالدراسات العملية المتصلة بالامور النظرية . وكانت هذه الدراسات العملية عبارة عن زيارات وتقارير ومناقشات . ولتحقيق هذا الغرض كنا نقوم بزيارات الى المصانع والمستشفيات والمؤسسات الاجتماعية ودور الصحة العامة والملاجىء . وقد اشركتنا المدرسة مع السادة الأساتذة المحاضرين فى النشاط الاجتماعى حتى تقوى العلاقات الشخصية بيننا وبينهم من ناحية وبيننا وبين إدارة المدرسة وموظفيها من ناحية أخرى .

وفى صيف عام ١٩٣٨ اشتركت فى أول بحث علمى اجتماعى عن "مشكلة الفقر فى مصر فى عام ١٩٣٨" . وكنت ضمن ٥٦ طالبا أتموا الدراسة فى السنة الأولى بنجاح . وكانت المهمة التى قمنا بها مهمة العمل الميدانى لهذا البحث فى خلال شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر . وكان عدد الاستمارات التى ملأها كل طالب خمسين استمارة على الأقل ، تضم كل واحدة منها ٨٠ بندا . وقد صيغت استمارة البحث فى ضوء بعض الحقائق التى جمعت عن المجتمع المصرى فى عام ١٩٣٨ . وكانت هذه الحقائق تدور كلها حول عوامل الفقر فى مصر سواء كانت عوامل اقتصادية أو صحية أو ثقافية أو أخلاقية .

وقبل أن نبدأ عملنا الميدانى . فأننى أذكر أننا تدربنا تدريبا خاصا للقيام بهذه المهمة . ففى يوم ٩ من شهر يونيو عام ١٩٣٨ قام الدكتور "ويندل كليلاند" (استاذ علم الاجتماع بالجامعة الامريكية بالقاهرة) بالقاء محاضرة عن موضوع "الفقر فى مصر" وقد تضمنت هذه المحاضرة شرحا لمفهوم الفقر والنظريات التى تحاول تفسير الفقر فى المجتمعات الانسانية ، ثم ذكر بعض مايراه

من عوامل مشكلة الفقر فى مصر سواء كانت اقتصادية أو صحية أو ثقافية أو أخلاقية . وأذكر جيدا عندما تحدث عن العوامل الاقتصادية أنه ذكر أن الاجور فى الريف تتراوح مابين قرشين ونصف وأربعة قروش فى اليوم ، وأن أجور العمال غير المهرة فى المدن تتراوح مابين سبعة قروش وعشرة قروش يوميا . ولن أنسى ماذكره عندما تحدث عن الدخل القومى فى عام ١٩٣٨ ، فقد بلغ حوالى مائتى مليون جنيه مصرى فقط ، أى حوالى ١٢ جنيها مصريا للشخص الواحد فى السنة . وأكد الدكتور كليلاند فى محاضرته عندما تحدث عن العوامل الصحية أن نسبة الوفيات فى مصر فى عام ١٩٣٨ كانت ٣١ فى الالف ، وان حوالى ١٤ مليونا ونصف من السكان (عدد السكان فى نفس العام حوالى ١٦ر٣ مليون نسمة) كانوا مصابين بالتراكوما ، وان حوالى ١٢٠ الف من السكان كانوا من المكفوفين ، وأن حوالى ١٠ ملايين من السكان كانوا مصابين بالبلهارسيا والانكلستوما . كما أكد سيادته أن نسبة الذكور الاميين الذين بلغت أعمارهم خمس سنوات فما فوق كانت نحو ٧٧٪ ، أما نسبة الاناث الاميات فى نفس فترة العمر فقد كانت نحو ٩٥٪ .

وقد اشتركت فى خريف نفس العام فى بحث بعض حالات الاحداث الجانحين الذين يحاكمون أمام محكمة الاحداث بالقاهرة .

وكانت تجربتى فى المجالين السابقين (البحث العلمى الاجتماعى وبحث حالات الاحداث الجانحين) التجربة الواقعية الأولى . ولن أنسى ماحييت الخبرات الثمينة التى اكتسبتها فى خلال هذه التجربة . كنت فى خلال جمع الحقائق اتصل اتصالا مباشرا بالواقع الحي للمجتمع . وكنت على الرغم من نشأتى فى أحد أحياء القاهرة المتخلفة ، أرى عجبا ، وأعيش عن كثب حياة بعض المطحونات والمطحونين من بنات المجتمع المصرى فى ذلك الحين وأبنائه . ويالها من حياة ! كانت حياة لاآدمية ولا إنسانية ، فهى حياة الدرك الاسفل . ولن أنسى ماحييت ماحدث لى فى زيارة

لمسكن أحد الأحداث الجانحين وقد مكثت فيه نحو ساعة . وعندما عدت الى منزلى وجدت حشرات "البق" تجرى فى ملابسى وتمرح ، وأحسست بلذعتها فى جسدى وأطرافى . وكنت أدخل فى الصباح الى أحد المساكن والشمس فى الخارج ساطعة ولاأجد فيه الا الظلام الدامس ، وقد اجد نور مصباح الكيروسين مشتعلا أو لاأجد ذلك . وكنت أبحث عن عنوان المسكن فأجده بعد لأى ونصب "حوش قرافة" ولا أثاث فيه سوى الحصير . وأنا أذكر الآن نظرات الرجال والسيدات غير البريئة ، عندما كنت أدخل أحد المنازل سعيا وراء أهل الحدث الذى أقوم ببحث حالته . كنا الرواد فى هذا المجال . وكان الناس فى ضوء ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية يملأ الشك نفوسهم لأنهم لم يكونوا يتوقعون فى ذلك الحين خيرا من أحد .

وأننى أذكر أن الحدث الجانح الذى لم أجد عنوان مسكنه الا بعد لأى ونصب ، كان أول حدث قمت بدراسة حالته . كان ذلك الحدث أحد أبناء قسم الخليفة الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته حتى بلغت سن السابعة والعشرين من عمرى . وكان قسم الخليفة فى ذلك الحين المكان الوحيد الذى أعرف كل شوارعه وحاراته وأزقته ، بل كل شبر فيه . فقد كان المكان الذى مارست فيه تجاربى ، الحلوة منها والمرة على السواء ، طوال هذه الفترة من حياتى . وأننى أذكر ان الحالات التى كان على طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية أن يقوموا بدراستها كانت موجودة فى ملفات وكان كل ملف يحمل اسما لحدث وعنوانا لمحل إقامة أسرة هذا الحدث . وكنا ، الطلاب وأنا ، نذهب الى "ملجأ السيوفية" لنختار أسماء الاحداث وعناوينهم الذين نكلف ببحث حالاتهم . وقد اخترت أسماء الاحداث الذين يقيمون فى دائرة قسم الخليفة تيسيرا لى وللآخرين الذين لايعرفون عن قسم الخليفة شيئا . واننى أذكر أيضا اننى عندما أخذت الأسماء والعناوين كنت على ثقة من أننى سأقوم بواجب بحث حالات الأحداث على الوجه الاكمل . فقد درست على المستوى النظرى مبادىء "طريقة خدمة الفرد" التى

تتضمن ضمن ماتتضمن تقبل العميل (أى الحدث) والبدء معه حيث يكون واحترامه واتاحة الفرصة له لكى يقرر مصيره أو أن يبدى تصوره على الأقل عن هذا المصير ثم الاحتفاظ بسرية البيانات التى تجمع عن العميل . وكنت على وعى بان تطبيق هذه المبادىء تختلف دقته باختلاف الأشخاص الباحثين . أى باختلاف مدى تدريبهم ومستوى خبراتهم الموضوعية .

وذهبت حاملا هذه المبادىء وهذا الوعى الى عنوان أول حدث أقوم بدراسة حالته فى حياتى . وكان العنوان فى جهة مامن "الخارطة الجديدة" حيث يقع مقام "سيدى التونسى" . وأذكر انى ذهبت فى أحد الايام حيث أجد هذا العنوان فى الساعة العاشرة صباحا ، وعدت الى منزلى فى الساعة الثالثة بعد ظهر . وكان يوما مشهودا فقد مكثت أبحث عن العنوان ساعات وساعات ، ولم أشأ أن أعود وأنا ابن قسم الخليفة بخفى حنين . وأننى أذكر أيضا أننى ذهبت من شارع الى حارة الى زقاق ولم أجد للعنوان أثرا . ولكن لم يفت ذلك فى عضدى . كنت أواجه التحدى الأول فى العمل التطبيقى فى ميدان مهنة الخدمة الاجتماعية أو بالأحرى فى مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد . ولم أتوان فى السير على الاقدام فى كل مكان فى الخارطة الجديدة . ولم آتوان فى سؤال كل شخص فى المكان . وعندما عثرت على المكان حيث تقيم أسرة الحدث وجدته "حوش قرافة" . وكانت مفاجأة . أسرة بأعضائها وأثاثها تعيش مع الأموات ! لم يكن يدور بخلدى أن ذلك كان يحدث فى ذلك الحين . كنت فى ضوء خبراتى أعلم أن تعيش أم أرمل فى حوش قرافة "ابنها الوحيد" الذى مات وهو فى عنفوان شبابه . تعيش معه تؤنس وحدته أو تؤنس وحدتها تاركة الدنيا من وراء ظهرها وتعيش على أمل واحد هو أن تموت وتدفن معه فى يوم من الآيام . ولكن أن تعيش أسرة (زوج وزوجة وأطفال) فى حوش قرافة تتخذه مسكنا لها فى خريف عام ١٩٣٨ لم يكن فى الحسبان . وبقدر

مافوجئت فاننى فجعت . فهأنذا أواجه الحياة التى يعيشها بعض أبناء وطنى وجها لوجه . وعلى قدر ماكان فى جعبة خبراتى من حالات فقر مدقع واجهتها من قبل فأننى لم اجد مستوى من الفقر أقل مما وجدت عندما كنت أقوم بدراسة حالة أول حدث جانح متهم فى احدى الجرائم أمام محكمة الاحداث بالقاهرة . كان الاثاث وكانه شبح " أثاث " لم اتبين من محتوياته الا الحصير الذى ينام عليه أعضاء الأسرة . وكانت الوجوه هى ايضا أشباح وجوه ووجوه ...لفال لاتبين ملامحها فالقذارة تملأ كل محتوياتها ، والذباب ... فتحاتها وكانت سذاجتى تدعونى الى طرد الذباب من على ... بيدى ، وكررت ذلك مرارا ولكنه كان يعود ! وتركت إقامة ا... الحدث الذى قمت بدراسة حالته بعد أن أديت واجبى والعصة تعتصر وتملك على حواسى . واننى أذكر أن المرارة فى فمى لم تبرحه الا بعد أيام . كانت تجربة ويالها من تجربة عاشت معى أذكرها على الدوام ، وذلك لاننى عندما خرجت من حوش القرافة ، حيث تسكن فيه أسرة الحدث وتعيش حياة الاشباح بين الاموات ، الى شوارع الخارطة الجديدة ومنها الى شوارع الامامين (الامام الشافعى والامام الليثى) الى الشوارع التى تؤدى الى بيتى مرورا بحى السيدة عائشة وبعض الحوارى والأزقة ، كنت شخصا أخر أحسست بأن عينى قد استبدلت بهما عينان أخريان . وأحسست بأننى لاأرى أشياء أو أناسا وانما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية . وكان شعورى بالضآلة أمام ما أرى جارفا . ومنذ ذلك الحين أيقنت بأن المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم أو هو موسوعة اجتماعية لا أول لها ولا أخر . وعلى الرغم من الشعور بالضآلة الذى جرفنى فى ذلك الحين فقد ولد فى نفسى الحب الجارف لكى أرصد بأسلوب جديد يختلف عن الاسلوب الذى كنت أرصد به فى الماضى ، عشوائيا ، تجاربى الاجتماعية ، وأصبحت أرصد عن وعى ، فى ضوء التغيير الذى حدث لى ، بعض ظواهر هذا المجتمع أو بعض المواقف الاجتماعية

التى بدأت أن أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجدها أمامى على الدوام . ومنذ تلك اللحظة أيقنت أن طموحى لن يقف عند هذا الحد بل سيتجاوزه الى محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى والى محاولة تفسير بعض ماأقرأ .

وأنا أترك للقارىء أن يتصور حالتى الفكرية فى ضوء الخبرات السابقة وغيرها عندما اشتركت مع طالبات المدرسة وطلبتها فى الزيارات الى قرية "بهناى" لنعرف على الطبيعة كيف تعمل جمعية تعاونية ناجحة ، وعندما زرنا ملجأ الابناء غير الشرعيين بشارع "منصور" بالقرب من باب اللوق ، وعندما زرنا مصنع الزجاج الذى أنشأه العصامى " محمد السيد يسن " وعندما زرنا محلة الرواد بالطيبى ، وعندما تمت زيارة " مؤسسة الزفاف الملكى " التى كانت تقع أمام إدارة المرور بالعباسية . كانت الخبرات الجديدة فى ضوء الخبرات السابقة على التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة خبرات واقعية واضحة لاضباب فيها يطمس معالمها . وكانت خبرات تهز العقل هزا فهو أمامها يعقلها ويحاول أن يحللها ليعرف عوامل وجود القبيح منها لكى يغيره الى ما هو جميل .. الى ماهو رشيد .. الى ما هو خير من أجل الانسان المصرى رجلا كان أو أمرأة أو شابا أو صبيا أو صبية أو طفلا أو طفلة لكى يكون جميلا رشيدا خيرا . لقد كانت الصدمات الفكرية التى انبعثت من هذه الخبرات صدمات يسرت لى أن أفيق على الواقع الحى المصرى . أراه كما هو ، بحلوه ومره ، وكان على بالضرورة أن أغير منهج تفكيرى . بالفهم الموضوعى وبالعمل فى ضوء هذا الفهم . وانتهيت الى بعض الحقائق منها أن خير مافى الانسان هو البذل فى سبيل الآخرين على أن يكون هذا البذل على أساس موضوعى . والبذل أو العطاء الانسانى الموضوعى لن يثمر الا اذا حرصنا على كرامة الانسان المتلقى ويسرنا له أن يسهم فى ضوء قدراته فى كسر القيود التى تكبله وتمنع هذا الاسهام سواء أكانت قيودا ثقافية اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية . أنظر إلينا

نحن الشباب الذين يزورون قرية بهناى لنرى ماغرسه الفلاحون من أبنائها بالتعاون مع غيرهم من المتخصصين من بذور غير بذور الارض التى تعودوا أجيالا متعاقبة على أن يغرسوها ، بذور تؤكد التضافر والتآزر وتثمر الثمرات المعنوية المادية جميعا . تلك الثمرات التى يسرت لهم الافتخار بذواتهم التى بالفهم الموضوعى والعمل فى ضوء هذا الفهم وجدوها بعد أن ظلوا يبحثون عنها أجيالا بعد أجيال .

وعندما زرنا ملجأ شارع منصور كان الوقع أليما حقا ، وكان الواقع يبشر بالخير مع ذلك . كان الدكتور "على فؤاد" المسئول عن رعاية الطفولة فى مصر فى ذلك الحين ، يصحبنا ليرشدنا . ودخلنا نحن طلاب المدرسة باب الملجأ فماذا وجدنا ؟ وجدنا الأطفال واقفين صفين ، ولم يزد سن الواحد منهم على سنتين أو ربما زاد على ذلك قليلا . كان من بيننا الطلاب الذكور وكانت من بيننا الطالبات الاناث . ومشينا بين الصفين . واذا بكل طفل يتعلق برجلى كل واحد منا صائحا "بابا .. بابا" ، وكان يختار الطفل أرجل الطلبة ويترك أرجل الطالبات . فالاطفال فى هذا الملجأ كانوا لايرون الا الممرضات والحكيمات والطبيبة اللاتى كن يشرفن على رعايتهم . لم يكن يرون الذكور فما أن رأوهم حتى تعلقوا بأرجلهم صائحين "بابا .. بابا" . وأنا أذكر مافعلت فى أثناء هذه الزيارة وبعد هذه الزيارة . بكى قلبى وأنا بين أطفال ملجأ شارع منصور ، وعندما ذهبت الى منزلى بكت عيناى مع قلبى ماشاء لهما أن تبكيا . وكنت أقارن بين ماكان يفعله ، ومازالوا يفعلونه ، زملائى السابقون من أعضاء الجمعية الشرعية أو جمعية السيدة عائشة ، من الاعمال الصالحة كما يفهمونها وبين مايفعله المسئولون على أطفال ملجأ شارع منصور من الأعمال الصالحة كما يفهمونها . ورأيت الفرق بين هذه الأعمال الصالحة وتلك ، وكان الفرق شاسعا . لقد أصبحت بقلبى وعقلى مع الاخيرين . وتأكد لى أن الدين لايرى الا أن يعمل العاملون المخلصون من أهله من أجل تكوين المواطن

الصالح أولا وأخرا . أى أن الاهتمام بهؤلاء الأطفال اهتماما عاقلا رشيدا لكى يكونوا فى مستقبل حياتهم أعضاء نافعين يؤدون أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها منهم المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون خير من أن يقوم رجل طيب ، مثلا ، بجمع الأوراق من شوارع القاهرة وحاراتها وأزقتها لكى يحرقها بعد ذلك لان المكتوب فيها مكتوب باللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم .

وسأذكر على الدوام ذلك الرجل العصامى "محمد السيد يسن" لقد نظمت المدرسة الزيارة الى مصنعه المعروف فى يوم محدد وفى ساعة محددة . وذهبنا فى الموعد المحدد وكانت تصحبنا السيدة "برتا فهمى" عميدة المدرسة . فاذا بالرجل يسمح للطالبات والطلبة بالدخول ويرفض السماح للعميدة . فهى أجنبية . ويبرر مافعل بقوله أنه ساح فى الأرض فى البلاد الاوربية حيث يشتهر بعضها بصناعة الزجاج ، فرفضت ادارات المصانع السماح له بزيارة مصانعها عندما رغب فى ذلك . وهاهى ذى الفرصة قد واتته ليرد الصاع صاعين ، وليرغم العميدة الأجنبية أن تنتظر فى مكتبه حتى تنتهى زيارتنا للمصنع . أصر الرجل على ذلك ، وصدعت العميدة بما أمرت . وشاهدنا ماحدث وسمعنا مادار من مناقشات وأكبرنا الرجل الذى وأن أكد لنا عصاميته فانه لم يؤكد لنا مع الاسف معنى واحدا من معانى الوطنية الرشيدة .

وعندما زرنا "محلة الرواد بالطيبى" التى توجد بجوار "السلخانه" ، وكانت الزيارة فى خلال نفس العام أى فى خلال عام ١٩٣٨ ، وجدنا أنها أنشئت فى خلال عام ١٩٣٠ (أى فى العام الذى توفى فيه والدى واضطررت من أجل ذلك الى ترك مدرسة الخديوية الثانوية اضطرارا) . وانها ثمرة جهود جماعة مصرية أطلقت على نفسها "جماعة الرواد" .وكنت لمست جهود هذه الجماعة لأول مرة فى عام ١٩٣٥ . وكان زيارتى فى ذلك الحين عابرة . ولكنها تركت فى نفسى بعض الآثار الطيبة . وعندما زرنا "المحلة" فى عام ١٩٣٨ علمنا ، الطلاب وأنا ، ان جماعة الرواد

قد تألفت على يد نخبة من الشباب المصرى المثقف من الذين عادوا من بعثاتهم فى الخارج وقد أصبحوا بعد عودتهم من قادة المجتمع المصرى الثقافيين . وعندما أحسوا بالمشاكل التى كان يعانى منها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، استقر رأيهم على أن هدف الأهداف هو تكوين المواطن الصالح الذى يؤمن بالمثل العليا الروحية والفكرية والخلقية ، ويعمل على تحقيقها ، ويشعر بواجبه نحو المجتمع ، ويبذل الجهد فى سبيل خدمته - وفى ضوء شعار اتخذوه نبراسا لهم وهاديا هو "قوة الوطن فى قوة الفرد" . ولتحقيق هذا الهدف رأت جماعة الرواد إقامة "محلات" فى بعض الأحياء المحلية فى مدينة القاهرة باعتبارها مراكز اجتماعية فى هذه الاحياء تعمل على خدمة أهل الحى وتوجيههم ليكونوا مواطنين صالحين . وذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمواطنين الأقل حظا فى المجتمع للتعرف على ظروفهم ومشاكلهم الاجتماعية وازالة العوائق التى تقف فى سبيل تنميتهم وتقدمهم . ولم تكتف جماعة الرواد بذلك بل وجهت نشاطها نحو الشباب الجامعى ومن فى مستواه بقصد تحقيق نفس الهدف أى ليكون أعضاؤه مواطنين صالحين .

وعلى الرغم من الآثار التى تركتها هذه الزيارة فى نفوسنا ، وكانت آثارا عميقة عميقة . فقد كان احساس زميلاتى وزملائى أن كل الخدمات التى كانت تؤدى فى المحلة خدمات جاءت من متطوعين .فكنت ترى أستاذ الجامعة وهو يلاعب ابنا من أبناء حى الطيبى "لعبة تنس الطاولة" ، وقد ينتصر عليه هذا الابن الفقير وقد لاينتصر ولكن الروح الرياضية كانت هى السائدة فى كل الاحوال . وكنت ترى المهندس المرموق وهو يشترك فى "لعبة كرة السلة" أو يقوم بدور "الحكم" والسعادة بأداء الواجب تشع من عينيه وتبدو ساطعة فى كل ملمح من ملامح وجهه . ومع ذلك ، وعلى الرغم من اعجابنا ، فقد كنا نرى أن الاخصائى الاجتماعى "المحترف" كان الاولى بأن يشترك مع جماعة أعضاء المحلة و يقودهم . اننا كنا نرى ، الطلاب الزائرون وأنا ، ان التطوع وان

كان فى ضوء ظروف المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، والى أن يحين الحين ، ضروريا ، فاننا كنا ومازلنا نحبذ التطوع غير المشرف . ولكن التطوع فى محلة الرواد كان هو التطوع المشرف .

وبحكم كونى أحد طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فقد علمت بانشاء "مؤسسة الزفاف الملكى" عند حدوثه فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٣٨ . وقد أقيمت هذه المؤسسة بالمال الذى تم جمعه بوساطة لجنة الاحتفال بذكرى الزفاف الأولى "للملك فاروق" الذى وافق يوم ٢٠ من شهر يناير عام ١٩٣٨ . وكان الملك فاروق قد اعتلى عرش مصر عقب وفاة والده "الملك فؤاد" الذى مات فى يوم ٢٨ من شهر ابريل عام ١٩٣٦ أى قبل امضاء معاهدة عام ١٩٣٦ (التى أمضيت فعلا فى لندن يوم ٢٦ من شهر اغسطس عام ١٩٣٦) . واننى اذكر أنه ماأن أمضيت هذه المعاهدة حتى ارتفعت الاصوات بالمطالبة بنصيب الفلاح من حماية القانون ، وباصلاح القضاء ، وبتنفيذ القرية النموذجية ، وبالحاجة الى سياسة قومية ثابتة تتناول جميع وجوه الاصلاح ، وتنظيم البيت بعد ابرام المعاهدة . ودعا "طه حسين" الى ثورة عقلية فى كلية الآداب فى يوم ١٧ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٦ . وعقد مؤتمر الطفولة فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ . ثم تكونت فى كلية الحقوق فى يوم ٢١ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ "لجنة اسبوع المعاهدة "لكى تنظم سلسلة من المحاضرات . وقد حضرت هذه المحاضرات جميعا . ولايمكن أن أنسى ماتركته هذه المحاضرات فى نفسى من آثار . فانا أذكر حتى الآن بعض ماقاله طه حسين : "يسألوننى عن واجبنا الادبى بعد المعاهدة . وأقول لكم : واجبنا الأول والثانى والثالث والأخير هو أن نكون أحرارا" و"اذا كنا فى عصر جديد قوامه النهضة والنشاط والحرية فلا أقل من أن يعلن المظلومون ماتجيش نفوسهم من الخواطر والآلام" .

ولم يتيسر لى زيارة " مؤسسة الزفاف الملكى " فى خلال الفترة من شهر ديسمبر عام ١٩٣٨ (شهر افتتاحها) حتى يوم ٢٠

من شهر مايو عام ١٩٣٩ (يوم استقالتى من مصلحة الحدود لأعمل بها كاخصائى اجتماعى محترف) سوى مرة واحدة وكنت وحدى . واحسست فى أثناء هذه الزيارة ، وكان هذا الاحساس الهام . بأن بعض مصيرى قد ارتبط بهذه المؤسسة والملاحظ ان انشاء « الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية » فى شهر مايو عام ١٩٣٧ قد سد فراغا كانت تشعر به مصرنا الخالدة . ومما يدل على ذلك ان كثيرين قد التجأوا اليها يطلبون النصح والارشاد فى كثير من الشئون الاجتماعية الهامة . وفى خلال عام ١٩٣٧ اهتم مجلس ادارة الجمعية بدراسة « مشكلة الأطفال المشردين فى مدينة القاهرة » بناء على طلب جمعية أنشئت لانقاذهم تسمى « جماعة انقاذ الطفولة المشردة » برئاسة « الدكتور على ابراهيم » ، إذ وضعت هذه الجماعة اقتراحا بانشاء مؤسسة لايواء الأطفال المشردين وقدمته الى محافظ القاهرة فى ذلك الحين (عبدالسلام الشاذلى باشا) الذى وعد بالعمل على تنفيذه . فدرس مجلس ادارةالجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية هذا الاقتراح دراسة عميقة ، ووضع بشأنه تقريرا وافيا ، كما وضع الميزانية التى يراها صالحة لتنفيذ هذا المشروع المفيد .

وعندما قدم الدكتور « ويندل كليلاند » تقريره عن البحث العلمى الاجتماعى لدراسة « مشكلة الفقر فى مصر عام ١٩٣٨ » الى اجتماع الجمعية العمومية للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية المنعقد فى يوم ٢٩ من شهر ابريل عام ١٩٣٨ ، ذكر محافظ القاهرة وكان حاضرا ، ان هذا البحث متصل اتصالا وثيقا باحد المشروعات التى يهتم بها وهو مشروع « جمع اولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة » ثم ارسالهم الى المزارع التى قد تنشأ خصيصا لهذا الغرض حيث يدربون فيها على الاعمال الزراعية وبعض المهن الأخرى المتعلقة بفلاحة الارض التى تكفل لهم إكتساب رزقهم من طرق شريفة وتحميهم من التشرد . وقد بلغ اهتمام المحافظ بمشروع هذا البحث الى الدرجة التى دفعته الى التبرع فى اجتماع الجمعية العمومية المشار اليه فى الحال بمبلغ

خمسين جنيها مصريا تشجيعا للقيام به .

ومن الملاحظ ان الاهتمام بمشكلة « أولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة » كان احد الاهتمامات الرئيسية « لاتحاد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية بالقاهرة » (شهر يناير عام ١٩٣٧ - شهر فبراير ١٩٣٨) قبل ان يصبح شهر فبراير عام ١٩٣٨ جزءا من الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، وجعل قسما خاصا سمى « قسم الاخصائيين الاجتماعيين » . فقد قام هذا الاتحاد فى خلال شهر يونيو عام ١٩٣٧ بمساعدة رجال الشرطة ، بدراسة ٥٠ طفلا كانوا ينامون فى شوارع محافظة القاهرة فيما بين الساعة الثانية عشرة (منتصف الليل) حتى الساعة الثالثة صباحا . وكان يجمع هـؤلاء الأطفال فى كل ليلة ثم يودعون فى قسم الشرطة حتى الصباح حين يتناول طعام الأفطار ، ثم يقوم المشرفون على هذه الدراسة بمقابلة كل طفل على حدة للتعرف على مشاكله وعنوان اسرته التوجيهية او على عنوان اقاربه او جيرانه للتأكد من البيانات التى يدلى بها . وقد تبين ان كل هؤلاء الأطفال يتامى ماعدا طفلا واحدا ، كما تبين ان بعض هؤلاء الأطفال قد ارسلهم ذووهم الذين يعيشون فى مدن محافظات الوجه القبلى وقراها ليكونوا تحت رعاية بعض الأقارب الذين يعيشون فى محافظة القاهرة ، اما باقى الأطفال وهم الأغلبية فقد جاءوا من اسر تعيش فى محافظة القاهرة . وقد لاحظت هذه الدراسة ان العوامل التى دفعت هؤلاء الأطفال الى الحياة فى الشوارع ، سواء كانت مباشرة او غير مباشرة ، عديدة . ومن اهم هذه العوامل كما رأت الدراسة مايلى :

- الطلاق المتكرر فى الأسر التوجيهية . وتكرار زواج الابوين او احدهما . فقد تبين ان هذا العامل موجود فى محيط ثلث الأطفال الذين تمت دراستهم .

- عجز الآباء او الأقارب عن القيام بتربيتهم . فقد تبين ان هذا العامل موجود فى محيط ثلث آخر من الأطفال الذين تمت دراستهم . وكان اهم عوامل هذا العجز وفاة الوالدين او احدهما ،

وسوء سلوك احد الابوين ، وتشغيل الطفل فى سن مبكرة وتحت ظروف عمل صعبة ، فضلا عن الجهل بالقيام بتنشئة الطفل .

وفى صيف عام ١٩٣٨ حقق عبدالسلام الشاذلى محافظ القاهرة مشروع « جمع اولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة ، فجمع هؤلاء الاولاد ولم يكن من وراء جمعهم مآرب الا ان يرسلهم . كما سبق ان اوضحت ، الى المزارع التى انشأها لهذا الغرض كمزرعة « السرو » ومزرعة « كفرسعد » و « معسكر كوم امبو » ، حيث يدربون فيها على الاعمال الزراعية وبعض المهن الأخرى المتعلقة بفلاحة الأرض والتى تكفل لهم اكتساب رزقهم من طرق شريفة وتحميهم من التشرد ، وقد تكدست جموع الأطفال المجموعين ، وكثرت اعدادهم ، واختلط حابلهم بنابلهم ، واجتمع البرىء مع غير البرىء ، والمريض مع السليم ، والعاطل مع العامل ، ورافق الشرير البار ، والطيب الخبيث ، وزامل الصالح الطالح ، وعاش ضعيف العقل مع الذكى ، كما عاش الصغير مع الكبير ، واصبح الأطفال فى مجموعهم تشكيلة من كل صنف ، تشكيلة آدمية عجيبة وضعت في اماكن لاتقل عنها غرابة ولا شذوذا . فوضع عدد لايستهان به من هؤلاء الاولاد المجموعين ، عدا من ارسل منهم الى المزارع ، فى ملاجىء العجز والعجزة فى محافظة القاهرة .

ولايمكن ان انسى مارأيت عندما قام طالبات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وطلبتها ، وكنت معهم ، بزيارة هذه الملاجىء ومنها « ملجأ السيوفية » و « ملجأ درب الحجر » و « ملجأ الهياتم » وكلها ملاجىء قد خصصت للعجز والعجزة من النساء والرجال ، رأينا البنات والاولاد المجموعين من شوارع القاهرة وقد عاشوا بينهم جنبا الى جنب فترة طويلة من الزمان . رأيناهم إذ يحيون هذه الحياة وكأنهم قد صبوا فى قالب آخر وحولوا الى عقول أخرى . فقد خرجت بهم هذه الحياة من عالم ودخلت بهم فى عالم آخر . وبدا لنا ان الفترة التى عاشوها بين جدران هذه الملاجىء .

قد ايقظت فى نفوسهم البريئة معانى غير بريئة ، معانى الاستهتار والشره ، ومعانى الرذيلة بأنماطها ، ومعانى الفجور والعادات المستقبحة ، ومعانى المعاملة الشاذة القاسية . كانت فترة من الزمان زادت فى امراضهم الجسمانية كما ضاعفت امراضهم النفسية ، وجعلت مافى داخلهم من معالم حسنة خرابا ويبابا .

ومما يعزز هذا الوصف وينفى عنه المغالاة والتهويل ماكانت تنشره الصحف السيارة فى تلك الفترة ، من حين الى حين ، عن الحوادث التى كانت تحدث فى هذه الملاجىء ، وأذكر فى هذا الصدد مانشرته جريدة الاهرام فى يوم ٢٠ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٩ تحت عنوان « لاجىء يصنع المخدرات ويتجر بها فى الملاجىء » :

> تلقى بوليس السيدة زينب امس بلاغا من ملجأ الهياتم بأن الممرض ... وجد بحالة ذهول ولا يستطيع النطق ، ورجحت إدارة الملجأ انه تعاطى مادة مخدرة يوزعها لاجىء يدعى .... فانتقل ضابط المباحث الى الملجأ ، ونقل المصاب الى المستشفى ، ولما فتش اللاجىء ، عثر معه على مادة مخدرة ، قال اللاجىء إنها مكونة من جوزة الطيب وبعض مواد العطارة . وتبين ان بعض الممرضين يجلبون هذه المواد للاجىء فيعدها للتناول ويتجر فيها بداخل الملجأ .

ووضع هؤلاء الاولاد : اولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة ، فى هذه الاماكن الموسومة لان المزارع لم تكفهم وقد اراد صاحب المشروع زيادة عدد هذه المزارع ولكنه اصطدم بعقبة تدبير المال اللازم للتوسع فى هذا المشروع بحيث يشمل فائدته اكبر عدد ممكن من الاولاد المجموعين . وقد اسقط فى يده . فهو قد بدأ عملا دون ان يخطط له التخطيط العلمى السليم . لقد تصور هذا الرجل انه بمجرد جمع الاولاد من الشوارع ، فان المشكلة قد حلت . لم يدرس مثلا حجم هؤلاء الاولاد حتى يتأكد من انشاء مايكفيهم من مزارع . او لم يتصور ابدا ان الحدث ذا

العشرة السنوات ، او اكثر ، من العمر الذى عاش فى المدينة وولد فيها وترعرع ، وعرف الشوارع الفسيحة ودور اللهو وبخاصة دور السينما لايمكن ان يتوقع ان يستأنف العمل فى مزرعة من المزارع بعد مرور هذا الزمن وهو يعيش فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى يختلف اختلافا كبيرا عن المناخ الثقافى الاجتماعى فى القرية او القرى حيث توجد (او تنشأ) هذه المزارع . لقد فعل المحافظ فى ذلك الحين ماكان يفعله العديد من ذوى السلطان والسلطة من قبله ، ويبدو ان مافعله استمر فى ضوء هذا الاسلوب من التفكير من بعده . ولكى يواجه المحافظ المأزق الذى وجد نفسه إزاءه أخذ رأى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، فاقترحت ادارة المدرسة عليه إنشاء مؤسسة تؤدى وظيفة « دار الملاحظة » حيث تدرس فيها حالة الاولاد المجموعين قبل ارسالهم الى المزارع ، حتى اذا وجد منهم من يمكن الحاقه بمعهد تربوى صالح ألحق به ، او من يمكن اعادته الى اهله او الى مدرسته او الى عمله اعيد بعد ان يعالج صحيا ونفسيا ، ولم يتردد صاحب المشروع فى الاخذ بهذا الاقتراح . اقام هذه المؤسسة بالمال الذى كان قد جمعه بوساطة لجنة الاحتفال بذكرى الزفاف الأولى للملك فاروق . واطلق على هذه المؤسسة « مؤسسة الزفاف الملكى » ، على ان يدبر المال اللازم للصرف على المؤسسة من التبرعات التى كانت تجمع لارسال ابناء الفقراء الى المصايف (وتم افتتاح المؤسسة) . كما ذكرت من قبل ، فى غضون شهر ديسمبر ١٩٣٨ . وعهد الى « السيدة الزا ثابت » بالاشراف عليها وادارتها ، وهى اخصائية اجتماعية تخرجت من مدرسة الخدمة الاجتماعية بسويسرا ، وجاءت الى مصر فى اواخر عام ١٩٣٤ . ومنذ أن وطئت قدماها ارض مصر وهى تعمل فى ميادين مهنة الخدمة الاجتماعية وفى مجالاتها حتى كتابة هذه السطور . وقد جاءت السيدة الزا الى مصرنا الخالدة فى ذلك التاريخ لكى تنشىء « دار الحضانة الدولية بالقاهرة » للعناية باطفال الامهات العاملات ، واستمرت تعمل فى هذا المجال حتى

أخر شهر مارس عام ١٩٣٥ . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ عملت السيدة الزا فى « مكتب العمل بالقاهرة » التابع لجمعية الشابات المسيحيات بالقاهرة . واستمرت فى عملها هذا حتى يوم ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٦ . وفى أثناء عمل السيدة الزا بجمعية الشابات المسيحيات بالقاهرة ، اتصلت بالسيدة « برتا فهمى » حرم الاستاذ كمال الدين فهمى (عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فيما بعد) وهى اميريكية الجنسية ودرست مهنة الخدمة الاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية ، واقترحت عليها فكرة انشاء مدرسة للخدمة الاجتماعية لتدريب المصريين انفسهم ، بنات البلاد وابنائها ، ليصبحوا اخصائيين اجتماعيين مهنيين . وتكون « اتحاد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية بالقاهرة » فى اول يناير عام ١٩٣٧ لدراسة ايسر الطرق لتحقيق هذه الفكرة . وعهد الى السيدة الزا بسكرتارية هذا الاتحاد . وكان اهم الاعضاء الذين يضمهم الاتحاد السيدة الزا ثابت والسيدة برتا فهمى والانسة مارى ديفونشير (انجليزية ومولدة بحكم المهنة وعضو الاتحاد الدولى لرعاية المرأة والطفل بالقاهرة) والدكتور ويندل كليلاند ، وكلهم اشخاص مهنيون ، وكانوا بدورهم اعضاء فى مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية الاول الذى انشأ « مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » التى تحدد موعد افتتاحها فى يوم ١٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٧ .

وقبل ان تنشأ مؤسسة الزفاف الملكى تحددت أغراضها . وكان أهم الاغراض التى انشئت من أجلها فى ذلك الحين مايلى :

- تهيئة بيئة صالحة لجمع شتات الاطفال (الذكور) الذين يقبض عليهم رجال البوليس من الشوارع والحارات بمدينة القاهرة .
- بحث حالة كل ولد من هؤلاء الاولاد بحثا اجتماعيا .
- علاج المرضى من الاولاد علاجا طبيا .
- كتابة تقرير عن كل ولد ، فى ضوء المعلومات التى تجمع ،

يقترح فيه التوجيه الصالح له وكان هذا التوجيه لايعدوا إرسال الولد الى المزارع أو إلحاقه بمعهد تربوى أو بأحد المصانع أو بتسليمه لذويه .

- اتباع الاساليب التربوية الحديثة فى معاملة الاولاد .

وقد كان لانشاء هذه المؤسسة صدى بعيد الأثر . فقد جاء تصريفا لعدد كبير من الاولاد المودعين بملجأى درب الحجر والهياتم ، وهما المعدان للعجز والعجزة من الرجال ، كما جاء انقاذا لهم من بيئة هم أولى المخلوقين بالبعد عنها .

وقد أبلغنا نحن طالبات وطلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة أنه من أجل أن تتمكن المدرسة من رفع مستوى التدريب وتوفير الوقت الكافى له مدة فصل الشتاء ، جعلت مدة الدراسة عامين وسبعة أشهر بدلا من عامين فقط . وجعلت المدة الأخيرة للتفريغ للنواحى العملية وتحضير "رسالة" عن مشكلة من المشاكل الاجتماعية فى مصر . وجاء العام الثالث فى حياة المدرسة . وكان عاما على جانب عظيم من الأهمية والخطر لابالنسبة الى المدرسة وحدها بل بالنسبة الى مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصرنا الخالدة . ففى ١٨ من شهر اغسطس عام ١٩٣٩ قام "على ماهر باشا" (رئيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية فى ذلك الحين) بتأليف وزارة جديدة . ولأول مرة أنشئت وزارة للشئون الاجتماعية فى مصرنا الخالدة . وكان يعنى إنشاء هذه الوزارة ببرنامجها الواسع الشامل للاصلاح الاجتماعى ، واهتمام الجمهور بالمشاكل الاجتماعية ، ان الحاجة الى اعداد اخصائيين مهنيين أصبحت أشد وأعظم مما كانت عليه من قبل . وقد ادركت الوزارة الجديدة هذه الحاجة تمام الادراك . وأكد وزيرها "عبد الرحمن عزام باشا" فى محاضرة ألقاها عن الأغراض التى ترمى اليها وزارة الشئون الاجتماعية فقال :

"نظرا لأن الخدمة الاجتماعية عمل جديد شاق ومعقد فى آن واحد ، فان سياسة الوزارة متجهة الى استخدام الاخصائيين الاجتماعيين فى جميع المشروعات والمعاهد الاجتماعية حتى نستطيع أن نسدى الى الافراد الذين نريد مساعدتهم أفضل الخدمات وأنفعها . وفى عزم الوزارة أن تشجع تعليم الاخصائيين وتمرينهم التمرين الكافى لكى تصبح الخدمة الاجتماعية حرفة يتخصص صاحبها لدراستها والتفوق فيها . وكذلك لابد من تشجيع المتطوعين الذين يميلون الى أداء تلك الخدمات" .

وبينما كنت فى حياتى الجديدة فى خلال هذه الفترة الحاسمة من حياتى ، والتى بدأت فى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ وحتى منتصف العام الدراسى الثانى ، أى فى غضون شهر ديسمبر عام ١٩٣٨ ـ واجهت موقفا اجتماعيا لم أكن أتوقعه . كنت منذ ان تركت "الجمعية الشرعية" (الأم) ومنذ ان استقلت من مجلس ادارة "جمعية حى السيدة عائشة" (الفرع) ، أقابل أعضاء جماعتى المرجعية القديمة أو بعضهم مرة فى كل أسبوع . وكانت تجمعنا صلاة يوم الجمعة عادة . وكنت أؤدى هذه الصلاة فى "الزاوية" التى أسهمت فى إنشائها . وذات يوم بعد صلاة الجمعة خرجنا كجماعة من الزاوية الى بيوتنا ، ودعانا أحدهم الى بيته وكان قريبا من بيتى . ولم تمر لحظات حتى وجدت نفسى بين عشرة من الشبان او ربما اكثر من ذلك عددا . كنا بعد الصلاة وكان على كل واحد منا ان يذهب الى حال سبيله ، ولكنى وجدت نفسى وهؤلاء من حولى نجلس فى احدى الغرف فى الدور الأرضى من البيت الذى يملكه ابو الداعى . وبدأ احدهم يوجه الكلام الى . بدأ معاتبا ثم اشتدت لهجته وصار مؤنبا ، ثم صاح صيحة نكراء يندد بى ، وبدأ الآخرون واحدا بعد الآخر يفعلون ما فعله الأول ، يعاتبون ويؤنبون ويندددون . وكنت صامتا . لم استطع ان اقول شيئا . ولم اعط الفرصة لكى ارد على احد . وكانت المعاتبة وكان التأنيب وكان

التنديد ، كما قالوا ، لأنني خرجت على الجماعة . لم يدر احد منهم ماكان يدور فى خلدى ، ولم يحاولوا ان يعرفوا ماذا كانت اهدافى ؟ إنهم كانوا يعيشون ولا يرون شيئا حتى مابين اقدامهم او ماهو على مرأى منهم . إن حياتهم الفكرية كانت ضيقة ضيق افقهم . او ان ضيق افقهم كان ينبثق من ضيق حياتهم الفكرية . ولكنى لم استطع ان اقول لهم ذلك . كنت كالفار الذى وجد نفسه فى « مصيدة » لقد نصبوا هم هذه المصيدة لى دون ماسابق اعلان او انذار . اننى لم اوذى منهم احدا . ان مافعلته كان امرا يحكم عليه إله الاسلام وحده ، ولكنهم كان قد نصبوا انفسهم حكاما . ووضعونى فى قفص الاتهام لاننى اعدت وجهى الى حالته الاولى . ولم يروا انماط سلوكى التى بقيت كما كانت وان تغير شكل وجهى . كانوا أشخاصا ظالمين . ومن اجل ذلك انتزعت نفسى من بينهم والبكاء يخنقنى . وسرت فى الشارع الى بيتى وانا لا أرى شيئا . كنت وكأننى اعيش كابوسا مروعا . كانوا هم هذا الكابوس ، او بالاحرى كانت كلماتهم وعباراتهم التى قذفوها فى وجهى . ولم يروا أن من حقى أن يسمعوا ما أدافع به عن نفسى من كلمات أو عبارات ، عوامل هذا الكابوس ، وذهبت الى البيت ، ورآتنى أمى ، كما رآتنى زوجتى ، ولكنى تحولت الى كتف أمى وأنا أجأر بالشكوى باكيا . وعندما قلت لامى ماحدث ، دقت باحدى يديها على صدرها الحنون وقالت لى محذرة « لاتراهم ياسيد بعد اليوم » ثم أردفت معقبة « إنها الغيرة التى تأكل صدورهم المظلمة بالحقد » وبسذاجة الحكيم لخصت الموقف قائلة « لو كان عندهم ايمان مافعلوا ذلك » ثم رفعت يديها الى السماء داعية « روح ياسيد يا ابن بطنى يجعل جسمى وشعر بدنى راضى عليك » . وشاركتها زوجتى الافكار كلها . ورأيت نفسى وقد هدأ روعى أن أصر على أن لاأرى عضوا من هذه الجماعة بعد اليوم .

ولم تمر أيام قليلة حتى جاء صديقى « محمد بدر » يستأذن لاحد مشايخ الجمعية ليحضر الى منزلى ليقابلنى . ولم أشأ أن

أرفض ذلك . فهو شيخ جليل أولا ثم هو سيكون ضيفا عندى ثانيا .
وعندما جاء هذا الشيخ أستنكر كل مافعله هؤلاء وندد بتصرفاتهم وأبلغنى بأن مندوبين عنهم سيحضرون ليعتذروا عما بدر منهم . وقال ضمن ماقال « انما الاعمال بالنيات ولكل أمرىء مانوى » و « كل ابن أدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . ثم استطرد وهو يقول « عن الحسن عن ابى الحسن عن جد الحسن أن أحسن الحسن الخلق الحسن » . وقال كلاما كثيرا وكان كلاما كريما .
وجاء الاخوان وعادت المياه الى مجاريها . وافسحت لهم صدرى وذكرت لهم بعض ارائى ومايجب نحن الشبان ان نقوم به . كانت خبراتى الجديدة المتجددة التى اكتسبتها من مدرسة الخدمة الاجتماعية ومن الزيارات الميدانية فى الريف وفى الحضر ومن قيامى باجراء البحوث والدراسات عن الواقع الحى للمجتمع المصرى ، كلها وغيرها ، وهى التى املت ماذكرته لهم . لقد قلت ماقلت ان العمل الصالح هو ان نسهم فى تكوين المواطنين الصالحين ، وان تكوين المواطنين الصالحين لايمكن ان يقوم به جهاز واحد من اجهزة التنشئة الاجتماعية التى يعدها المجتمع لهذا الهدف العظيم . فهذه الاجهزة عديدة منها الاسرة ومنها الجيرة ومنها المدرسة ومنها المنظمة الدينية ومنها منظمة شغل الفراغ ومنها جهاز الثقافة (الصحافة والمجلات والكتب فضلا عن المسرح والسينما) . وانه لكى نفيد من هذه الاجهزة او من بعضها لابد لنا من دراسة المجتمع المصرى المعاصر اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا . وانه لكى نفعل كل ذلك فلنبدأ فى تكوين جمعية تتحدد اغراضها من اجل تحقيق هذا الهدف العظيم .. هدف تكوين المواطنين الصالحين . وكانت مهمتى صعبة للغاية . ولكننى لم ايأس . وتحدثت مع بعض الأعضاء ، وكانوا من الصفوة بينهم ، طويلا حتى اقتنعوا . وقد اصررت على ضرورة العثور على مقر لائق للجمعية اولا . ووجد المقر بالحلمية الجديدة . ولم يبق الا الأثاث . فتبرع العديد منا بالنقود من اجل ذلك . وكان تبرعى عبارة عن اثاث

حجرة المائدة المكون من « ترابيزة » وستة كراسى من المصنوعة من الجلد ليكون اثاث حجرة الاجتماعات ، فضلا عن مكتب من الخشب الزان وكرسى خاص به ، وكان اثاث حجرة المائدة ضمن أثاث زوجتى المسجل فى قائمة وقعت عليها عند زواجنا بالاستلام . أما المكتب فقد كان من مخلفات الوكالة ، وتكون مجلس ادارة الجمعية الجديدة وعينت « سكرتيرا » له ، ثم وضع برنامج لافتتاح الجمعية وافق عليه مجلس ادارة الجمعية الشرعية (الأم) . وتحدد يوم الافتتاح فى غضون شهر مارس عام ١٩٣٩ . وكان يوم الافتتاح يوما مشهودا حضره اعضاء الجمعية الشرعية وفروعها من كل مكان . وقد ضاق مقر الجمعية الجديدة على اتساعه او كاد . وكنت ترى الحاضرين وهم فى ملابسهم الزاهية وجوههم مستبشرة ويبادلون بعضهم بعضا المحبة والحنان والسلام . ولم يدخل واحد منهم الا وقد دفع تبرعا . وكنت ترى النقود الفضية تملأ الاوعية والأوانى التى يحملها المسئولون عن جمعها . وعندما ملئت الأوانى جعل هؤلاء المسئولون من أذيال جلابيبهم اوعية واوانى فتراها وقد امتلأت وهى تلمع عاكسة انوار الثريات الكهربائية التى تبرع بالاشراف على تركيبها بعض الاعضاء الحرفيين . كان يوما وكأنه يوم فرح للجماعة بل فرح لكل عضو فيها . استبشروا بالجمعية الجديدة خيرا . رأوا ان يخرجوا الى المجتمع واعضائه لكى يتعرفوا عليه عن كثب ويتعرفوا عليهم عن قرب . أن الهدف من الجمعية الجديدة هو الهدف الكبير هدف تكوين المواطنين الصالحين فى ضوء الخبرة المنتظمة الشاملة لا المحدودة ، خبرة الواقع الحى فى ظل هداية الدين الاسلامى السليم ، الدين الخالص (كما كان يردد ذلك الامام الشيخ محمود خطاب رحمه الله) وفى ظل هدى هذا الدين . كان الحاضرون على الرغم من الزحام الشديد يجلسون او يقفون دون ان يحدث مايعكر الصفو ، كانوا ، وكأنهم يعزفون سمفونية ، منظمين منسقين ينظرون الى امام الى المستقبل المشرق .

وحضر الأمام « الشيخ امين الخطاب » ومعه صاحبه ومن بينهم كما أذكر الآن جيدا « الشيخ درويش الجعبرى » وجلسوا على مقاعد مخصصة لهم . وصمتت الافواه . وماتت الهمهمات ، وكأن الحاضرين على رؤوسهم الطير . وبدأ البرنامج ، وقد كلفت من مجلس ادارة الجمعية الجديدة كسكرتير له ان القى كلمة الافتتاح الأولى . وهى كلمة ترحيب تؤكد الولاء ، كما تؤكد الامل . الولاء للأئمة القدامى والامل فى الشباب الجديد المتجدد . وكنت قد أعددت هذه الكلمة وقرأتها على اعضاء مجلس الادارة الذين اقروها . وكانت كلمة قصيرة موجزة . وما ان بدأت ، وماكدت أن أفتح فمى لأقول :

« سيدى الامام ، سادتى أصحاب الفضيلة .. باسم أخوانى ... »

ماكدت أن أفعل ذلك حتى انبرى الشيخ درويش الجعبرى صائحا غاضبا ساخطا وموجها الخطاب الى : « ابدأ ببسم الله الرحمن الرحيم : ان كل أمر ذى بال لايبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر أو هو أقطع أو هو أجذم » .

وكانت لحظة رهيبة ويالها من لحظة . ارتج الكلام فى فمى وذهبت نفسى شعاعا . وخفق قلبى حتى كدت أن أختنق . ولكنى واصلت قراءة ماكنت كاتبه أو بعض ماكنت كاتبه . ثم أنزويت فى أحد الاركان . وتمنيت لو أننى كنت قد اعتذرت عن إلقاء الكلمة . فاذا كنت أنا المفكر من وراء الستار ، فانه كان ينبغى على أن أبقى وراء الستار . أن مهمة المفكر أن يصلح المصلح ، ولايمكن أن تكون هذه المهمة أن يكون هو مصلحا . ومهما كان رأيى فى فقه هذا الرجل وما وصل اليه من مستوى علمى ودينى أو ثقافى فقد كان يذكرنى دائما بمأساة فلسطين . فقد كنا على الرغم من تحريم الدعوة السياسية على الجمعية الشرعية فى ضوء قانونها ، نعيش المأساة الفلسطينية . وانا اذكر كعضو فى الجمعية الشرعية أننى كنت أصلى مع المصلين ، وكان الامام يدعو قبل السجود أى ونحن

فى الصلاة دون أن يخرج منها دعوات ضد « اليهود » وكنا نحن من ورائه نردد كلمة « أمين » . كان يقول مثلا : « اللهم عليك باليهود » و « اللهم شتت شملهم » و « اللهم فرق جمعهم » وكنا بعد كل دعوة نردد نحن المصلين بصوت مدوى يخرج من أعماق الاعماق « أمين » ولم نكتف بالدعوات هذه فى كل صلاة . ولكن أعضاء مجلس ادارة الجميعة كانوا يدعون أيضا الى التبرع من أجل الفلسطينيين المطحونين . وكنا لانزال فى الثلاثينات (قبل نشوب الحرب العالمية الثانية) عندما كان القرش صاغ الواحد يكفل للرجل إفطاره أو غداءه أو عشاءه وزيادة . وكان الاعضاء يتبرعون بدافع من الضمير ودون مأربا . وأذكر من هؤلاء « الشيخ ابراهيم عثمان » وكان يعمل فى المطبعة الاميرية ، عندما قام بعد صلاة الجمعة فى مسجد الجمعية الشرعية بعطفة الجوخدار وتبرع بمبلغ خمسين جنيها . وكان بهذا التبرع حديث الناس اياما وشهورا . قال وهو يمد يده بورقة ذات الخمسين جنيها مصريا ان هذا المبلغ هو كل ما استطاع ان يوفره واذا كان لديه اكثر منه لدفع هذا الاكثر .

وبقيت منزويا وحدى فى احد الاركان . ولم اعرف الكثير مما حدث فى تلك الليلة . لعل الشيخ امين قال حديثا دينيا ، ولعل صحبه الذين جاءوا معه قالوا احاديث دينية ايضا . لم ادر شيئا من ذلك . ولكنى فوجئت بوجود « الشيخ حسن البنا » ، وجدته يقوم بين يدى الشيخ امين ليقول كلمة . اننا لم ندع الشيخ حسن البنا الى الحضور . ان الجمعية الجديدة هى جمعيتنا . وان الفرح بافتتاحها هو فرحنا نحن . ونحن نعلم رأى الشيخ حسن البنا فى جماعته . كنا على خلاف . كانوا يدعون الى امور كنا نراها تأتى بعد الدعوة الى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع . وكانوا يصرون على موقفهم . وكنا نصر على موقفنا . ونحن فى هذه الجمعية الجديدة نرى ان الاولى ان يكون الهدف العظيم هدف الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين فى ضوء الخبرة المنتظمة ، الخبرة الشاملة لا المحدودة ، خبرة الواقع الحى فى ظل هداية الدين

الاسلامى الخالص وفى ظل هدى هذا الدين . وكانوا يسعون الى السلطان فبالسلطان يحققون الاهداف ، كنا نرى ان فى التأنى السلامة وتحقيق المآرب . وكانوا لايجدون فى التأنى السلامة وان الحق معهم اذا ركبوا الامواج لكى يصلوا الى تحقيق اهدافهم . كانوا يرون ان اهدافنا حالمة (بل طوباوية) ، وهى ايضا اهداف اصلاحية معتدلة ، اما اهدافهم فقد كانت فى رأيهم ثورية وليست اصلاحية (وقد شغلنى حضور هذا الرجل ، وشغلنى اكثر مضمون الكلمة التى ألقاها . انها تتضمن المديح والثناء للشيخ امين الذى نعته بأنه « شيخنا وابن شيخنا » . ولم ينس ان يذكر اسمى فى كلمته ، ولم ينس ان يثنى على جهودى . وكان لبقا حقا . ذكيا حقا . وتحققت بما قال الاهداف التى اقحم نفسه وجاء الى حفلة الافتتاح بلا دعوة من أجلها . لقد كسب الجولة من الاسد وهو فى عرينه ، ونال الحظوة عند مجموع الحاضرين .

وخرجت من الدار الجديدة وحدى وعزمت على أن لاأعود اليها أبدا . وبررت بعزمى . وكان درسا لايمكن أن ينسى ، وظللت أذكره على الدوام كلما واجهت بعض المواقف المشابهة لما واجهت فى ذلك الحين . ولكنى كنت أذكر أن الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين هدف يستحق الرعاية والعناية منى ، كما يستحق البذل والعطاء . كنت مع رأى " الشيخ محمد عبده " الذى كان يرى أنه فى انشاء " مدرسة الزعماء " الخلاص كل الخلاص . ولم أكن مع رأى " السيد جمال الدين الافغانى " الذى قال للشيخ محمد عبده عندما أبدى هذا الرأى " إنما أنت مثبط " .

ولم يمر يومان على حفلة افتتاح المقر للجمعية الجديدة حتى حضر الى منزلى الشيخ امين خطاب . ولكنى لم أقابله وأرسلت من أبلغه اننى غير موجود فى المنزل " وشغلت فى نشاطاتى العديدة ، فى مصلحة الحدود صباحا وفى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة مساء . وقد منعتنى هذه النشاطات من أن أشعر بالاحباط أو أن أركن الى اليأس أو التشاؤم من الحياة . كنت فى دنيا الواقع

أعيشها بكل كيانى ولايشغلنى عنها الا أن أنظر الى أمام ، الى المستقبل الذى أراه فى ذلك الحين أنه سيكون بفضل الله مرموقا . وعندما علمت أن مقر " جماعة الاخوان المسلمين " قد نقل بعد بدء اندلاع الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ من ميدان العتبة الخضراء الى ميدان الحلمية الجديدة ، لم استغرب كثيرا . ولعل موقع دار جمعيتنا الجديدة فى الحلمية الجديدة قد صادف هوى لدى الشيخ حسن البنا ، ولعل ذلك لم يكن صحيحا . الله وحده يعلم فانه جل وعلا يعلم السر وأخفى . كنت على كل مشغولا بما رأيت أنه اجدى وانفع . وكنت فى ضوء الحياة التى عشتها فى مصلحة الحدود بالمقارنة بالحياة التى كنت أعيشها فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فضلا عما وصلت اليه من خبرات أكاديمية وغير أكاديمية مثمرة على استعداد كبير للتغيير . اننى تغيرت فعلا ورأيت انه قد آن الآوان لكى أغير . رأيت أننى إذ تأثرت بالخبرات التى اكتسبتها من حياتى المزدوجة والواقع الحى للمجتمع المصرى فى ذلك الحين فانه لابد وأن أؤثر أنا أيضا . ومادمت قد وصلت الى هدف فمن حق هذا الهدف على أن أحققه . وإذ أفعل ذلك فانى أفعله فى سبيل رفعة الدين الاسلامى عن طريق الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين فى ظل هداية هذا الدين وفى ظل هديه . وانا أذكر انه فى أواخر شهر ابريل عام ١٩٣٩ فاتحتنى السيدة إلزا ثابت فى موضوع العمل فى " مؤسسة الزفاف الملكى " ولم أتردد أبدأ . وقبلت هذا الشرف للتو والساعة . وقابلتنى السيدة برتا فهمى (عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة) وتحدثت معى فى نفس الموضوع . وأذكر أنها طالبتنى بالاستقالة من عملى الحكومى الذى التحقت به فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ ، فلم اتردد كذلك . كنت مؤمنا بمصرنا الخالدة وضرورة تغييرها الى الافضل ، وكنت مؤمنا بأن عملى فى المؤسسة لن يكون فقط واجبا وطنيا بل هو أيضا واجب دينى . وهاهى ذى فرصتى لكى أحقق فى حدود قدراتى فى محيط بعض

أبناء مصر المحرومين هذا الواجب الوطنى وهذا الواجب الدينى . وافقت على ترك الوظيفة الدائمة مغامرا لكى أؤدى عملا صالحا يرضى الله الكريم المتعال ، كما يرضى الوطن العزيز الخالد . لم يصرفنى عن ذلك شىء أبدا حتى عندما ظنت السيدة عميدة المدرسة خطأ أننى من عائلة تملك الاطيان والعمارات ! ولم يقعدنى عن الموافقة على الوظيفة غير الدائمة لهجة المحافظ السخيفة عندما قابلته مع السيدة إلزاثابت قبل استلام عملى الجديد فى المؤسسة . كانت لهجته فى أثناء المقابلة أمره دون مامبرر ، وفيها استعلاء ممقوت ويشوبها الكبرياء الكاذب . فهو لم ير أبدا مدى التضحية التى تقدمت بها بكل تواضع عن رغبة وطواعيه . وظن متعجرفا ، أو لعله لم يظن ذلك بل كان على يقين من ذلك ، أنه يمد يده الى بلقمة العيش وكأننى أمامه شخص يتسول ! كان أمامى هدف شريف أسعى بكل الشرف الى تحقيقه ، وأحاول بكل الشرف أن يتحقق . كنت بكل الحب العظيم أسعى جاهدا لكى أؤدى عملا صالحا يرضى الله الكريم المتعال ، كما يرضى الوطن العزيز الخالد .

وكنت على وعى تام بأن " المؤسسة " فى ضوء أهدافها غير " مدرسة الزعماء " الذى كان يدعو الشيخ محمد عبده إلى إنشائها ، وأن العمل فيها لن يرقى الى العمل فى هذه المدرسة . ولكنى كنت مؤمنا بأننى كمصرى متدين على أن أؤدى واجبى فى محيط أبناء المؤسسة المحرومين . وأنه اذا كان لدى علم نافع فان من واجبى أن أعلمهم فن علم يجب أن يعلمً . ولأكن كشخص يحيا بينهم قدوة حسنة لهم . ولعل وجودى بينهم أن يزيد من خبراتى وأن يحل ماأصبح لدى ، فى ضوء ظروف حياتى السابقة ، من عقد نفسية أشعر بها ولاأعرف كيف أواجهها أو أوجهها . وكنت واثقا من أننى إذ أعطيتهم فاننى سآخذ أيضا منهم . وكنت على يقين من حب أبناء المؤسسة لى لانهم ، بالضرورة ، كبشر ، سيبادلونى حبا بحب . والحب فى قلبى بما أفاضت علىّ به أمى كان ومازال يكفينى وزيادة . أى أنهم إذا كانوا فى حاجة الى الحب الانسانى فعندى

مايحتاجون اليه من هذا الحب ، وفى جعبتى لهم أيضا الكثير من الاحترام . ألم يقل نبى الاسلام ﷺلعلى بن أبى طالب رضى الله عنه " يوم خيبر " " ... فو الله لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم " ؟

وحديثى عن " الشيخ حسن البنا " لايجُب الاعتراف بفضله أبدا . فقد عرفنى وعرفته قبل ذلك . وكان لى معه حديث طويل . كنت أذهب الى مقر " الاخوان " ، حبا فى الاستطلاع ، فى ميدان العتبة الخضراء أحيانا . وعندما استمعت اليه لأول مرة أعجبت بحديثه وبهرنى فيض علمه وغزارته ، فضلا عن أسلوب إلقائه العذب وشخصيته الجذابة . وعندما ذكرت له عجبى من أن دعوته توجه الى طلبة الجامعة (العلمانية) ولاتوجه الى طلبة الجامعة (الازهرية) وهم أحق بحمل الراية من الاولين وأولى ، لم ير فى كلامى مايستسيغه . كان رده مهذبا نعم ولكنه لم يقنعنى . كان يرى أن طلبة الازهر ليسوا فى حاجة الى الدعوة على عكس طلبة الجامعة العلمانية . فالاخيرون بعيدون عن الدين الا من رحم ربك . أما الاولون فهم يأكلون ديناً ويشربون دينا . وكان هذا الرد على عكس ماكان يدعو اليه الامام الشيخ محمود خطاب وخليفته الشيخ أمين . وكنت أميل فى ضوء مستوى نضج خبراتى فى ذلك الحين الى رأى مؤسس الجمعية الشرعية وخليفته . ولم أكن أميل الى رأى الشيخ حسن البنا ، ومن ثم كان عجبى من اهتمامه الشديد بطلبة الجامعة العلمانية وكان عدم اقتناعى برده . وكانت هناك أحاديث أخرى لى مع الشيخ حسن البنا ومع العديد من مريديه ومنهم صديق الطفولة والصبى " محمد بدر " ولكن الزمان لم يترك لها آثارا اذكرها . ولعلها أن ترسبت فى أعماق نفسى فلا أستطيع الغوص اليها .

ولم يمر أسبوعان على حديثى مع عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة الخاص بعملى بالمؤسسة حتى وجدتنى أخطو

الى مرحلة جديدة من مراحل حياتى . ولم تكن خطواتى وئيدة ولم تكن أيضا مغامرة . وهأنذا أستقبل هذه المرحلة وأمالى المشرقة فى المستقبل تداعب خيالى . وكان القرار الخاص بالعمل بالمؤسسة قرارى وحدى . لم أشرك معى فيه أحدا . واذا كنت قد بلغت سن السادسة والعشرين من عمرى ، فقد كان القرار الخاص بترك الوكالة ، وكان قرارا خطيرا ، قرارى وحدى أيضا ، ولم أكن قد بلغت بعد سن الثانية والعشرين من عمرى . لم أتحدث فى موضوع العمل بالمؤسسة مع أمى أو مع زوجتى . وحتى إذا كنت قد فعلت ذلك مع أيهما فلم أكن أتوقع أن تقف واحدة منهما فى سبيلى . إن ثقتهما فى سلامة تفكيرى لم تكن تشوبها شائبة . ولم أتحدث فى هذا القرار مع شخص آخر سواء كان قريبا من الأقرباء المقربين أو من غير المقربين أو كان من الغرباء . لم يكن لى صديق صدوق أركن اليه فى ذلك الحين . عزلنى أعضاء جماعتى المرجعية ولم أجد من أثق فيه لاتحدث معه فى هذا القرار . ولم أحزن كثيرا لذلك . فأنا كنت فى ذلك الحين أنظر الى أمام ولم أكن أرى شيئا الا أن أتفاءل على الرغم من أننى كنت أعى القرار كان خطيرا مثله مثل قرارى الخاص بترك الوكالة والتفرغ للدراسة . واذا كان الله جل وعلا قد أخذ بيدى فى المرة الأولى فهو جل وعلا قادر على أن يأخذ بيدى فى الثانية .

٨ ـ بداية العمل من أجل تكوين المواطن الصالح أنشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر

وما أن جاء يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ الا وأنا أخطو خطواتى الاولى فى ربوع المؤسسة . واصارح القارىء بأن بصمات هذا اليوم قد تركت ، ومازالت ، آثارها فى نفسى . اننى الآن أعمل فى محيط مائتين من الاحداث من أبناء المجتمع المصرى . منهم من أبناء محافظة القاهرة وهم الاغلبية ، ومنهم من

جاءوا الى محافظة القاهرة ومازالوا يحملون ثقافة أهل الريف وهم أقلية . وأحسست فى اليوم الأول من وجودى بين هؤلاء الاحداث أن المجتمع المصرى قد جاء الىّ واصبح أقرب الىّ عن ذى قبل . فهؤلاء الاحداث وذووهم وان لم يمثلوا عينة ممثلة لابناء المجتمع المصرى وبناته فى ذلك الحين فهم يمثلون عينة أحد قطاعات سكان هذا المجتمع . القطاع المستضعف الذى لاحول له ولاقوة . القطاع الذى يتضمن الذين لايعملون الاعمال الشريفة واذا كانوا يعملون اعمالا شريفة فقد كانت اعمالهم هذه الاعمال الدنيا فى المجتمع .

ذهبت الى المؤسسة فى الصباح . ذهبت وقلبى مفتوح وعقلى أيضا مفتوح . ذهبت لكى أعطى قبل أن آخذ . وتأكدت منذ الوهلة الأولى أننى لن أعطى الا اذا أخذت ولن آخذ الا اذا اعطيت . كان أبناء المؤسسة كلما تقربت اليهم ابتعدوا . فأنا كشخص حديث العهد بهم مازلت عندهم تحت الاختبار . حاولت ان اعرف الأسماء فلم أوفق فى التعرف على الكثير . فلم يكن فى سجلات المؤسسة أسماء : الاراجوز والزير وبلوظة والعورى وحسن العجوز ووزة والمقزقز وعطية أبو دقة والاكس وغيرها . إنها أسماء لايعرفها الا الابناء وبعض موظفى المؤسسة . ومن الآخريين أم شحاته الغسالة والست عطيات الممرضة وعم جوده الطباخ والامباشى على والامباشى احمد نجم . لقد عرفوا بالطبع أسمى "سيد افندى" وصار عندهم بعد فترة لم تكن طويلة "أبو عويس" ولكنى لم أتعرف على أسمائهم الا بعد مرور فترة لم تكن بالقصيرة . فترة لم تحسب بالزمن ، ولكنهم حسبوها بالتأكيد من حبى لهم وثقتى فيهم فبادلونى حبا بحب وثقة بثقة . ولم يكن لدى خيار . فهم أبناء وطنى ، وكنت أرى فيهم بعض أقاربى ، وكنت أرى فيهم أيضا بعض من كنت ألعب معهم فى الحارة فى حتتنا بحى الخليفة سواء كان ذلك فى المنطقة التى كان يقع فيها بيت أسرتى أو فى المنطقة التى كانت تقع فيها "وكالة أبى" التى أصبحت بعد وفاته فى يناير

عام ١٩٣٠ وكالتى . لم أكن أملك الا الحب والاحترام لهؤلاء الابناء فضلا عن خبراتى الاكاديمية والعملية التى اكتسبتها على مر الأيام حتى بلغت السن التى بلغتها عندما ذهبت الى المؤسسة فى يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ .

وأود أن أؤكد للقارىء اننى اذ أقول أن المجتمع المصرى أو أحد قطاعاته قد جاء الى وأصبح أقرب الى عن ذى قبل ، فان ذلك لايعنى ، ولايمكن أن يعنى ، اننى كنت بعيدا عن هذا المجتمع . فأنا كنت ، ومازلت ، أعيش فيه وأعمل من أجله فى ضوء محاولتى فهمه فهما موضوعيا عن طريق البحث والدراسة . ولكن مجرد وجودى بين أبناء المؤسسة كجماعة ، واحتكاكى بهم عضوا عضوا ونظرتى الى سماتهم التكوينية ومحاولتى التعرف على محددات شخصياتهم الثقافية والاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية . كل ذلك جلب الى النفس الاحساس بالقرب . فها هم امامى يمرحون ويلعبون ، وها هم امامى يتعاركون ويسبون بعضهم بعضا ، وها هى ذى "أم" قد جاءت بقصد زيارة ابنها فتقابل من ابنها بالترحاب وقد تجىء أم أخرى لنفس الغرض فتقابل من ابنها بالسباب . وأنا ارى كل ذلك فتزداد خبراتى وتتغير نظراتى نحو الحياة ونحو علاقات الناس بالناس . وعندما كنت أرى ماكنت أرى كانت الخبرات الجديدة تضاف الى الخبرات القديمة وكنت أحس اننى فى كل يوم أصبح شخصا أخر . وسعدت بهذه النتيجة سعادة كبيرة على الرغم من الثمن الذى كنت أدفعه من حين الى حين . فأنا أذكر مثلا التحذير الملح من موظفى المؤسسة من مخالطتى بأبناء المؤسسة حتى لاأصاب بمرض معد القراع أو الجرب ، فلم أبال بهذا التحذير حتى بعد أن أصبت بمرض الجرب فعلا فى يدى بين أصابعى وفى أجزاء من زراعى يدى . كنت أعيش فى دنيا المؤسسة ، البيئة الجديدة ، دنيا أبنائها المائتين ، ولم أبال شيئا أخر . دنيا الاطفال من بعض أبناء مصرنا الخالدة غير المحظوظين كنت أسمع ضحكاتهم فيفرح قلبى ، وكنت أسمع انين بعضهم

فأحزن كثيرا . وكان الانين يبدو فاقعا فى أغانيهم العديدة ولاول مرة سمعت قصيدة "ادهم الشرقاوى" يغنيها أحدهم . ومواويل الريف جاءت الى أذنى تسعى وكانت تهز كيانى هزا ، كانت تنم عن الاسى والحزن والشجن ولعلها كانت قنوات للتنفس عما فى صدور هؤلاء الابناء من أسى وحزن وشجن . فهم جميعا قد قبض عليهم رجال الشرطة وهم يسعون فى سبيل رزقهم الحلال أو غير الحلال . وهم جميعهم مودعون فى المؤسسة تحت حراسة رجال الشرطة . وحتى اذا ماخرجوا الى المستشفى لمرض آلم ببعضهم فقد كانوا تحت الحراسة أيضا . وكثيرا ما ألم المرض ببعضهم وكثيرا ماادعى بعضهم المرض وبخاصة مرض "الغدة النكفية" . لقد علم ابناء المؤسسة ان " مجرد " الاشتباه فى اصابة احدهم بهذا المرض فانه يرسل الى المستشفى للتو والساعة . وبالممارسة عرفوا أعراض هذا المرض . ارتفاع درجة حرارة الجسم وانتفاخ يبدو ظاهرا تحت الاذنين . وعرفوا أن قطعة من " حلاوة الطحينة " ممزوجة بالشطة " اذا ماأكلها احدهم فان حرارة جسمه ترتفع آليا ، واسلوب انتفاخ ماتحت الاذنين جاء بالتجربة وذلك بأن ينفخ مدعى المرض بكل مافى وسعه وهو يضم شفتيه ويكرر النفخ مع ضم الشفتين فيبدوا الانتفاخ ظاهرا تحت أذنيه . ومن ثم يذهب الى " الست " الممرضة فلا تنتظر حتى يراه الطبيب فتأمر بارساله إلى المستشفى فهو مصاب " بالغدة النكفية " وحتى اذا تصادف وجود طبيب المؤسسة ورآه على هذه الحال فلا يتردد فى الامر بارساله الى المستشفى . ويذهب عضو المؤسسة وحده أو معه أخرون من أبنائها ممن فعلوا فعلته تحت حراسة الشرطة ، ويمكث الجميع أياما فى المستشفى تحت الحراسة التى كانت تتيح لهم أن يمرحوا ويروحواويجيئوا فى داخل المستشفى أو فى خارجه كيفما شاءوا . يتسول من يتسول منهم من المارة الذين يصادفونهم فى الشوارع المجاورة للمستشفى . ويجمع أعقاب السجاير من يحلو له ذلك ، ثم يرجعون الى المؤسسة تحت الحراسة وهم

محملون بما لذو طاب وبأعقاب السجاير التى قد يبيعون بعضها أو يلعبون بالبعض الآخر لعبة القمار فى داخل المؤسسة .

وكنت أعرف كل ذلك وأقف فى سبيل انتشاره ماستطعت الى ذلك سبيلا ، ولكنى كنت منشغلا بمعرفة عوامل وجود هذه الانماط من السلوك البشرى . ولم يطل انشغالى فقد كان الامر واضحا . فاعضاء المؤسسة على اختلاف شخصياتهم مقيدون ومضغوط عليهم الى درجة القهر . والسبيل الوحيد الى رفع هذه الضغوط هى خلق الحاجة عندهم الى الشعور بالانتماء الى المؤسسة . ومن ثم تصبح المؤسسة بيتا لهم ومدرسة لهم وهم اعضاؤها التى يفخرون بها . ولم يكن تحقيق هذا الهدف ـ فى ضوء الظروف التى بدأت حياتى بالمؤسسة فيها ـ سهلا أبدا .

كان يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ ، اليوم الأول الذى ذهبت فيه الى المؤسسة لكى أعمل فيها لأول مرة ، يوما حاسما فى حياتى مافى ذلك من شك ، فقد أصبحت من أوائل الذين احترفوا مهنة الخدمة الاجتماعية من المصريات والمصريين . وكانت هذه المهنة فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، أحد الأدوار الاجتماعية الجديدة فيه . وكانت هذه المهنة ، كدور اجتماعى جديد ، تواجه ادوارا اجتماعية قديمة راسخة . وكان عليها ان تسارع هذه الادوار كى تصرعها . وفى هذه المرحلة من حياتى ارتبطت بالسيدة إلزا ثابت . بدأ هذا الارتباط بالعمل بالمؤسسة واستمر حتى كتابة هذه السطور ، أى بعد اكثر من أربعين عاما . وعملى بالمؤسسة اتاح لى أن أكون أول مصرى محترف يعمل فى محيط الاحداث الجانحين . كنت بالمؤسسة وبعدها بمعسكر "كوم امبو" ثم "بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة" اعمل عملا تطبيقيا . كنت مع زميلاتى وزملائى أساهم فى علاج هؤلاء الاحداث . وعندما أتيحت الفرصة لى لكى أعمل "بالمعهد القومى للبحوث الجنائية" الذى أصبح بعد ذلك "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" مارست العمل فى محيط الاحداث

الجانحين على المستوى النظرى الميدانى مستوى البحوث والدراسات .

واذا كنت بدأت عملى بالمؤسسة رائدا لأبنائها المائتين . فان أعباء العمل كانت عديدة . وفضلا عن ذلك فقد كان لى النصيب فى العمل الادارى . وتبلور عملى مع مرور الوقت الى محاولة دراسة شخصية كل ولد من أولاد المؤسسة . ومع ذلك فلم أتمكن من القيام بهذا النشاط الهام مع ضرورته لاستكمال البحث الاجتماعى عن كل ولد الذى كان يقوم به الزميل المغفور له الاستاذ ابراهيم المنوفى بمعاونة بعض المتطوعين من طالبات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وطلبتها .

وكان بالمؤسسة غير من ذكرت من قبل مدرسو المدرسة (وكانوا تابعين لوزارة المعارف العمومية فى ذلك الحين) فضلا عن الحراس من رجال الشرطة (الذين كانوا يتغيرون فيما عدا الاومباشى على والاومباشى احمد نجم) .

وكان العمل بالمؤسسة تحت اشراف السيدة الزا . فهى المديرة . وكانت للسيدة الزا عند موظفى المؤسسة مكانتها وعملها وروحها وشخصيتها وتجاربها مما يهون على ممثلى مهنة الخدمة (الزميل ابراهيم المنوفى وانا) كل صعب ، ويعود على الاولاد بالخير والصلاح . كانت هى رأس المؤسسة والمحور الذى كانت تدور حوله الفكرة التربوية الايجابية فى توجيه الاولاد . وكنت تراها تعمل ليلا ونهارا فى سبيل تحقيق هذه الفكرة مااستطاعت الى ذلك سبيلا . ومع كل ذلك فقد كانت تدير المؤسسة وكأنها بيتها . كانت تعلم عن أحدث الافكار التربوية فضلا عن النظريات الشىء الكثير . ولكن علمها كان نظريا . فهى لم تمارس ماكانت تعلمه نظريا من قبل . لم تمارسه فى سويسرا بلدها أو فى باريس عندما كانت تعمل فى مجال " طريقة خدمة الفرد " فى ميدان الاحداث الجانحين . وكانت معرفتها بالمجتمع المصرى : تاريخه وثقافاته ومصادرها ولغة أعضائه ضئيلة . فهى لم تكن قد مكثت فى هذا المجتمع اكثر

من أربع سنوات . ولكنها كانت مبهورة بالمجتمع المصرى وباعضائه : تقاليدهم وعاداتهم وأساليب معاملتهم . أحبت الشعب المصرى حبا ملك عليها روحها ونفسها واعتبرت مصر بلدها الثانى أو بلدها الاول وعاشت فيه منذ عام ١٩٣٤ فى الوقت الذى تركوه من بدأوا معها العمل الاجتماعى فى مصر (ويندل كليلاند وبرتا فهمى ومس ديفونشير وغيرهم مصريون واجانب على السواء) وكان كل من فى المؤسسة يحترم هذه السيدة ، ويعنى الاحترام هنا أنهم كانوا يكنون لها المحبة والخشية معا . كانت قدوة صالحة ، تعمل ولاتكل من العمل . تعمل فى كل شىء . كانت أما لابناء المؤسسة ، وكانت مديرة لموظفيها وكانت صديقة مخلصة محبة لمصرنا الخالدة . كان عملهاالاساسى ممارسة طريقة خدمة الفرد ولم يكن ممارسة طريقة خدمة الجماعة . إن نياتها نحو رفعة المؤسسة كانت فوق الشبهات . ولكن النيات وحدها فى العمل الاجتماعى التربوى فى بلد أجنبى لم تكن كافية . كانت السيدة إلزا وكنا ، نحن ممثلى الفكرة التربوية الايجابية ، معها نواجه الشياطين الذين يقفون عادة فى سبيل تحقيق الاعمال الصالحة فى ذلك الحين ممثلين فى رجال الشرطة الذين يحرسون أبناء المؤسسة . ويعدون على كل موظف حركاته وسكناته بل وأنفاسه . ومن وراء هؤلاء المدعو " الصاغ " احمد حسان احد ضباط محافظة القاهرة ، رئيسهم فى ذلك الحين . كانوا يعيشون الافكار القديمة التى لايمكن ان ينهض بها مجتمع كمجتمعنا ، وكنا بدورنا نمثل الافكار الحديثة التى تجعل التغيير الى الافضل لها هدفا . وكان الصراع محتوما وكنا واثقين من النصر . ولكننا كنا ومعنا السيدة إلزا نعيش فى سراب . كانت الافكار القديمة لها جذور فى أرض الواقع لاتزال . ولكننا كنا مؤمنين بالنصر على كل من يقف فى سبيل عقيدتنا . ان ابناء المؤسسة هم أبناء مصر . من حقهم علينا أن نعيد تربيتهم لكى يكونوا مواطنين صالحين . لقد خذلهم المجتمع فأصبحوا كما كانوا أو كما كان يقول عنهم ضابط المحافظة المذكور " زبالة مصر " إن زبالة مصر هؤلاء قد صنعها

المجتمع باشراف قادته فى ذلك الحين . وضابط المحافظة ماكان الا احد عبيد هؤلاء القادة . لم يجد هؤلاء شيئا فينا يحط من كرامتنا . فنحن نعمل ونحن نشع المحبة والاخاء . ونحن نهدف الى تحقيق التعاليم الدينية التى يتعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى . ولم نأخذ شيئا من المؤسسة لانستحقه بل على العكس كانت التضحية بكل أنواعها ديننا . وكانت السيدة إلزا القدوة الصالحة والمثل الاعلى . ولم نخذلها أبدا وهى لم تخذلنا أبدا . ولم تكن علاقتنا بها الا علاقة المحبة والاحترام . كانت سيدة أجنبية نعم ، وكانت الاحكام العرفية مسلطة على العباد بعد اعلان الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ وكان من حق محافظ القاهرة وبخاصة بعد أن أصبح وزيراً لاول وزارة للشئون الاجتماعية فى وزارة على ماهر فى يوم ١٨ من شهر اغسطس عام ١٩٣٩ فى ضوء سلطاته ان يأمر بطرد أو أن يأمر باعتقال أى أجنبى ولايعقب عليه أحد . وكان هذا الحق سيفا مسلطا لا على رقبة السيدة إلزا فحسب بل على رقابنا أيضا . ومع ذلك فلم يثن السيدة إلزا أو احد منا ، عما نحن بصدده ، سلطان المحافظ ولاسلطات الوزير التى كان يتشدق بها "ضباط محافظة القاهرة" ومن كانوا يختفون تحت عباءته مثل الاومباشى على والاومباشى احمد نجم . ولكن السيدة إلزا لم تكن أجنبية فحسب بل لم تكن أيضا مسلمة . كانت مسيحية تعمل فى محيط المسلمين . وقد تغلبت على كل عقبة تقف فى سبيلها من أجل ذلك بسلوكها الذى لم ينم الا على التسامح والايمان بان "الله محبة" ولم يكن غريبا أبدا أن أؤازر هذه السيدة "وأنا المسلم التقى" !! الذى ماجئت لاعمل بالمؤسسة فى محيط أبنائها الا بدافع تعاليم دينى القويمة دين الاسلام دين الاخاء والعدالة والعمل الصالح . كانت رئيستى وتقبلت ذلك عن طواعية فقد كانت المثل الذى يحق للعاقل الناضج فضلا عن المؤمن الصادق والوطنى الغيور أن يتبعه . إنها أول مرة فى حياتى أعمل تحت إمرة "امراة" وأنا اذكر عندما توجهت الى مدرسة الخدمة

الاجتماعية بالقاهرة فى أول يوم فى الدراسة فى يوم ١٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٧ لاحضر أول محاضرة ان وجدت بين الحاضرين بعض الطالبات . وكانت تجربة أمارسها لاول مرة فى حياتى ، تجربة وجودى مع غريبات تحت سقف واحد . صحيح كان بين الحضور شبان اكثر عددا ، وكان معظم المدرسين من الذكور ، وكنت متزوجا ولى من زوجتى طفلان "أحمد وأمال" ومع ذلك فلم أشعر بالراحة ، وكنت مضطربا وحريصا على ان لا أنظر الى وجه طالبة . كن اناثا كريمات . لاتشوب الواحدة منهن أية شائبة . ولكننا كنا جميعاً من المصريين الذين لاتفتر ألسنة الذكور منا القول والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن . وبمرور الزمن تعودت وتعود زملائى الذكور على وجود الطالبات فى محيطنا . وتعودن هن أيضا على وجودهن بيننا . وفى عام ١٩٤٠ عندما تخرجت الدفعة الاولى من الاخصائيين الاجتماعيين المصريين المحترفين (٢٠ اخصائيا اجتماعيا) كان من بينهم ثلاث خريجات اصبحن للذكور زميلات مهنة واحدة . وانا اذكر اسماءهن واحدة واحدة على الرغم من مرور السنين الطوال : تيودورا رمزى ومحاسن يوسف ونبيلة عبدالحميد . ولكننا ونحن فى المؤسسة مازلنا جميعا من المصريين الذين لاتفتر ألسنة الذكور منا عن القول والتقول على كل بادرة تبدر من أم شحاته الغسالة والست عطيات الممرضة والسيدة إلزا المديرة والحديث عن المرأة (مصرية كانت أو غير مصرية) بالحق وبالباطل يطيب عند الذكور المصريين . ان هذا الحديث كان ولايزال له حساسية ما فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى . وعلى الرغم من أخطاء الذكور المهنية المتكررة التى يتشدق بها المخطئون علانية ، فان أية اشاعة خطأ ضد أنثى يصدقها الآخرون ويثيرون حولها الغبار وهذا أمر متوقع فى ضوء قيم مجتمعنا المصرى وبخاصة قيمة "العرض" وقيمة "الشرف" . ان قيمة العرض وقيمة احترام "الام" وقيمة احترام "الدين" وقيمة احترام "الموتى" قيم عزيزة

ندافع عنها نحن المصريين بالنفس والنفيس . ومن ثم فهى أقرب الى الايذاء اذا مادنست وأهينت بالحق أو بالباطل على السواء .

وكما لم تسلم تيودورا ومحاسن ونبيلة وغيرهن من الطالبات من الخوض فى أعراضهن منذ اكثر من اربعين عاما لاتسلم زميلاتهن فى الوقت الحاضر من ذلك وكما لم تسلم تيودورا ومحاسن ونبيلة من اللمز والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن فى عام ١٩٣٧ لم تسلم أم شحاته الغسالة والست عطيات الممرضة والسيدة إلزا المديرة فى نفس الفترة الزمنية تقريبا (ديسمبر عام ١٩٣٨ - نوفمبر عام ١٩٣٩) من اللمز والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن .

وعشنا فى المؤسسة نعمل من أجل التغيير الى الافضل . وكان مفهوم "التغيير" عندنا واضحا وكان مفهوم "الافضل" عندنا واضحا أيضا . وبدأنا من حيث يجب أن نعمل . وكنت أول من بادر بالرأى وشجعنى الزميل ابراهيم المنوفى وأيدنى ورحبت السيدة إلزا بالرأى وأيدته . ورأينا أن يكون اهتمامنا الاول هو التعرف على "المشكلة" والمشكلة الملحة كانت فى ذلك الحين التعرف موضوعيا على أبناء المؤسسة عن طريق إجراء البحوث الاجتماعية لهم . وجمعت البيانات عن هؤلاء الابناء وكانت مصادرها عديدة . الابناء أنفسهم وأسرهم ومدارسهم ان وجدت وأصحاب العمل ان كان منهم عاملون قبل القبض عليهم وقد أسهم طبيب المؤسسة فى تزويدنا بالبيانات الصحية عنهم . وفى ضوء البيانات التى تضمنتها البحوث الاجتماعية المشار اليها وجدنا أن أعمارهم كانت تتراوح مابين السادسة والثامنة عشرة سنة . وكانت نسبة الذين بلغت أعمارهم اثنتى عشرة سنة أو أقل نحو ٦٦٪ ونسبة الذين بلغت اعمارهم اكثر من اثنتى عشرة سنة نحو ٣٤٪ . وكانت نسبة المسلمين منهم نحو ٩٦ر٧٪ ونسبة المسيحين نحو ٣ر٣٪ وكان اكثر من نصف الاولاد من محافظة القاهرة بنسبة نحو ٥٦٪ . أما الباقى فقد كانوا من محافظات جرجا والجيزة والقلوبية والمنوفية

وأسيوط والشرقية والغربية وبنى سويف والفيوم والبحيرة والاسكندرية والمنيا وقنا والدقهلية واسوان ثم السويس على التوالى . وفى ضوء الفحص الطبى كانت نسبة الاصحاء من الاولاد نحو ٥ر٨٪ فقط ، وكانت نسبة المرضى نحو ٥ر٩١٪ وكان المرضى مصابين بأمراض شتى . وكانت عدد الاصابات التى يعانى منها مائتان من الاولاد ٤٤٥ اصابة منها البلهارسيا والقراع والجرب وتضخم اللوز وأمراض الاسنان وأمراض العيون والنزلة الشعبية والانكلستوما والاسكارس واللغط والانيميا وامراض الحلق والبلاجرا والزهرى ! وأمراض الاذن والكبد ونقص الغدد والانيميا . وهى امراض تنم على المستوى الاقتصادى الاجتماعى المنخفض الذى كان يعيش أولاد المؤسسة بين جنباته ويؤكد ذلك أن نسبة الاميين من الاولاد كانت نحو ٨٤٪ ، ومن كان يعرف منهم القراءة والكتابة كانت نسبتهم نحو ١٦٪ وكانت نسبة الذين كانوا من المتعطلين من الاولاد نحو ١٧٪ ومن كانوا يعملون نحو ٨٣٪ ، وكان معظم أعمال الذين كانوا يعملون اعمال خدمات ، وكان من هؤلاء من يعمل فى بيوت الدعارة التى كان ينظمها القانون فى ذلك الحين وقد وجد من بين الاولاد تلميذان قبض على احدهما وهو ذاهب لكى يكمل امتحان الشهادة الابتدائية . ومن الذين كانوا يعملون تبين أن نحو ٣٥٪ منهم كانوا يعملون بلا أجر . وكان متوسط الاجور الشهرية للاولاد الذين يعملون بأجر حوالى ٢١٣ مليما . وقد تبين ان متوسط عدد أعضاء الاسرة الواحدة بما فيهم الولد خمسة أعضاء وأن متوسط دخلها الشهرى بالقروش حوالى ٢٠١ من القروش فقط . وفى ضوء نتائج البحوث الاجتماعية التى أجريت وجد أن نحو ١٠٪ من الاولاد لهم سوابق فى قضايا حالية أو سابقة ، وان الباقى ونسبته نحو ٩٠٪ من الاولاد المقبوض عليهم والذين كانوا مودعين بالمؤسسة تحت حراسة الشرطة لم تكن لهم سوابق . اى انه قبض عليهم ظلما وعدوانا . أى أن القبض عليهم لم يكن له سند من القانون ، وقد بدأ هذا الظلم وهذا العدوان

واضحا فى تصرفات أبناء المؤسسة وكانوا كما ذكرت من قبل يجدون فى الغناء الحزين ملاذا أحيانا ، وكانوا يجدون فى العراك الذى ينشب بينهم بسبب معقول أو بلا سبب معقول متنفسا . والسباب والشتائم كانت تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى للمؤسسة . كانوا يسبون ويشتمون بعضهم بعضا ، وكانوا يسبون ويشتمون المسئولين على المؤسسة وبخاصة من كان واجبهم أن يحرسوهم . ومع الحزن الدفين الذى كان يبدو فى الغناء ومع العراك واسبابه الواهية وغير الواهية ومع الشتائم والسباب التى كانت تملا المناخ الثقافى الاجتماعى للمؤسسة ، كنت تجد بعض أنماط السلوك الداعر . فقد كانت القوة الغاشمة هى القانون السائد فى المؤسسة فى بعض الاحيان . وقد لعبت "العزوة" دورا كبيرا فى تأكيد هذه القوة فأولاد حى بولاق يتضافرون ويحمى بعضهم بعضا ، واهل محافظة المنوفية يفعلون ذلك أيضا . وهكذا .. كل يسعى الى الجماعة التى يحتمى فيها ويشعر بين أعضائها بالامن والامان . و "النفاق" فى ضوء بناء المؤسسة الاجتماعى والثقافة بقيمها التى كانت تسود فيه قد لعب دورا بارزا . فالضعيف لكى يعيش ينافق الاقوى أو من يعتقد أنه الاقوى . وكان حظ رجال الشرطة الحراس ورؤسائهم من النفاق حظا كبيرا . وكان حظ عم جوده الطباخ من هذا النفاق الحظ الأوفر . فهو الشخص الذى يستطيع بطريقة أو بأخرى أن يملأ البطون من اللحوم وغير اللحوم . ومن ثم كانت لعم جودة الطباخ ولرجال الشرطة "الحكام المستبدين" فى أحيان كثيرة ، عند اولاد المؤسسة الحظوة ، وكانت لهم الطاعة العمياء التى لايمكن أن تهدف الى الصالح العام . والامثلة على ذلك كثيرة كثيرة . اذكر منها ماأذكر ونسيت منها مانسيت واذا كانت المؤسسة قد بنيت حديثا (افتتحت فى شهر ديسمبر عام ١٩٣٨) فان معاول الهدم بدأت فيها منذ اليوم الاول . كانت معاول الهدم الاولى أيادى أبناء المؤسسة التى كانت مع صغرها تحطم ماتستطيع أن تحطم من أبواب وشبابيك وزجاج

وحنفيات مياه وغيرها وكانت عوامل التعرية المعاول الاخرى مما كان يؤكد لنا عدم أمانة المقاول الذى بناها والمهندسين والمشرفين الذين أشرفوا على هذا البناء .

ولعلى أن أذكر الآن أننى وكل من كان يدخل من "بوابة" المؤسسة كنا نصطدم بحجرة الحرس الشرطى . وكان مؤلفا من اومباشى وأحد العساكر نهارا ومثلهما ليلا . وقد وجد هذا الحرس كما ذكرت من قبل لحراسة المؤسسة خشية أن يهرب احد من الاولاد ، وحرصا على أثاثها ، وأنواعه شتى ، وحفاظا على كل ما كان يؤكل أو يقدم كشراب لاولاد المؤسسة وموظفيها . وعلى الرغم من أن هذه الوظائف كانت من الممكن أن يقوم بها أناس ليسوا من رجال الشرطة ، فان هذه الوظائف لم تكن تؤدى بأمانة على الرغم من دفاتر الاحوال التى كان يسجل فيها ما يمكن أن يقال عنه "حركة الحياة فى المؤسسة" وقد واجهت وأعضاء أسرة المؤسسة من العاملين على التغيير الى الافضل ، منذ اللحظات الاولى ، مشكلة التعامل مع رجال شرطة المؤسسة . كنا ومعنا السيدة إلزا مديرة المؤسسة نقوم بأدوار اجتماعية جديدة تهدف الى فهم أبناء المؤسسة فهما موضوعيا حتى يتقرر مستقبلهم المشرق فالمؤسسة كانت كما سبق أن ذكرت مجرد "دار للملاحظة" ولم تكن فى ذلك الحين "مؤسسة ابداع" وكانت الاغلبية الساحقة من الابناء يقبض عليهم جزافا كما ذكرت سابقا بلا سند من القانون بقصد تطهير شوارع محافظة القاهرة منهم ، وكانوا يودعون بالمؤسسة حتى يتم بحث حالة كل واحد منهم اجتماعيا ليتحدد مصيره ولم يدر بخلد المسئولين عن عملية القبض على الاولاد من الشوارع أن هناك مصانع اجتماعية "تعمل ليل نهارا فى سبيل" "انتاج" غيرهم ، وانه مادامت هذه المصانع قائمة فى المجتمع فالشوارع لن تخلوا من اولاد ومن بنات هم فى مسيس الحاجة الى الرعاية والعناية والحماية . وهذا ما كان يحدث فعلا . كان رجال الشرطة يمرون فى شوارع القاهرة وحاراتها

وأزقتها ويجمعون من الاولاد ومن البنات من يجمعون وتخلو الشوارع يوما أو اسبوعا من الاولاد ومن البنات وسرعان ما تمتلىء الشوارع بآخرين غير من قبض عليهم قبل ذلك . ان مصانع أبناء مصرنا الخالدة فى ذلك الحين كانت لا تغلق أبوابها وكانت تعمل ليلا ونهارا فى سبيل انتاج أولاد وبنات يكون من حظهم العاثر أن يعثر عليهم رجال الشرطة فيقبضون عليهم دون ماسند من القانون ثم يودعون تحت الحراسة فى المؤسسة ومنها الى المعسكرات - "السرو" و "كفر سعد" و "كوم امبو" حيث يعيشون حياة الريفيين التعساء لا يرون لهم مستقبلا مشرقا أو غير مشرق ، ولم يكونوا فى ضوء ظروف تنشئتهم الاجتماعية فى المدينة يستسيغون حاضرهم ، ويا ويلهم عندما تغرب الشمس فتغرب فى نفوسهم أمالهم فى الحياة الآدمية . أى الحياة التى عاشوها ومارسوها فى المدينة ، حياة الانوار الساطعة التى تملأ الشوارع من أقصى المدينة الى أقصاها ان غروب الشمس عندهم وبخاصة فى فصل الشتاء كان يعنى الحياة فى القبور . وكان رجال الشرطة "الحراس" فى المؤسسة أو فى المعسكرات يمثلون أيضا أدوار اجتماعية اخرى ، وكانت هذه الادوار الاجتماعية كما ذكرت من قبل أدوارا قديمة راسخة . كنت تراهم فى هذا الضوء أنهم المهيمنون على المؤسسة والمعسكرات وكنت ألاحظ وأنا أعمل فى المؤسسة أنهم المرجع الاول والاخير فى أمور عديدة لا يمكن أن تكون من اختصاصهم . وقد بدا لى ولزملائى أن بعض ولاة الامور فى محافظة القاهرة وكان على رأسهم ذلك الضابط الذى أشرت اليه سابقا ، لاسباب مجهولة (أصبحت فيما بعد معلومة) ، كانوا يشجعون هؤلاء الحراس على الاسترسال فى غيهم ولو أنهم كانوا يقومون بواجبهم الحقيقى دون ما تدخل فى حياة المؤسسة لهان الامر وإن كان مرا . ولكنهم بتدخلهم هذا كانوا يعملون كمعاول هادمة لاتفتا أن تنهال على كل أساس سليم يؤخذ بمقتضاه أولاد المؤسسة لتبنى عليه شخصياتهم بناء سويا . وقد أبى هؤلاء

الحراس على الرغم من المحاولات العديدة أن يتعاونوا على البر والتقوى ولكنهم تمادوا فى غيهم فكان تعاونهم على الاثم والعدوان ، الاثم فيما يفعلون والعدوان على الابناء التعساء ، أقصد أبناء المؤسسة . كانوا يعمدون دواما على معاكسة زملائى وأنا وعلى رأسنا السيدة إلزا ، وكانوا يحاولون وينجحون أحيانا فى تنفير الاولاد منا بالزور والبهتان . بأساليب دنيئة منها إغراؤهم بالنقود أو بأعقاب السجاير . وكانوا يحاولون الافتراء علينا وكادوا أن ينجحوا فى ذلك لولا فضل الله ورحمته ورضوانه . وما أيسر أن يفعلوا ذلك كما ذكرت فقد كنا أصحاب أفكار حديثة ، وقد كنا ذكورا واناثا ، وكان منا المسلم التقى ، وكان منا المسيحى الذى يعمل أو يحاول أن يعمل فى محيط أبناء الوطن الواحد عملا صالحا ، وكانت السيدة إلزا مديرة الجمعية سيدة شابة أجنبية (كان عمرها عندما جاءت الى مصر فى عام ١٩٣٤ تسعة وعشرين عاما) . ولها زوج أجنبى ولها ابن أجنبى . فما أيسر أن يفترى المفترون وأمامهم كل هذه السمات التى قد تبدو متباينة وان كانت الاهداف الصالحة تجمع أشخاصهم . ولكننا كنا فى محيط الافتراء نحن ومن كان على شاكلتنا بالضرورة ضحايا سهلة فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى الذى كان يسود المجتمع المصرى وخاصة ومصرنا الخالدة كانت تعانى فى ذلك الحين ويلات وويلات . منها ويلات المستعمر (الاجنبى) وأذنابه من المصريين والمتمصرين ، ومنها ويلات الحرب العالمية الثانية التى بدأت ولم تكن مصر على استعداد لها ، فقد كانت حربا لا ناقة لمصر فيها ولا جمل . ومنها ويلات المستوى الثقافى الاجتماعى والاقتصادى الذى وصلت اليه مصر فى ذلك الحين . ويلات وويلات وويلات . وكان هؤلاء الحراس ممن بلغوا سن الكبر ، وعاشوا فى ضوء تربيتهم فضلا عن اثار بصمات مهنتهم التى كان يكرهها كل مصرى أصيل يعتقد بحق أنه اذا كان « أصبعك عسكرى اقطعه » ـ لا يقوى أحدهم على التذرع بالصبر على أعمال الاولاد ولا يتسع صدره لتحمل ماقد يصدر عنهم ولو

كان بريئا .

وبقدر ما أحببت أولاد المؤسسة أحبونى وزيادة . وقد فتحوا لى صدورهم فعرفت الكثير عن كل واحد منهم . وكانت حصيلة نتائج البحوث الاجتماعية التى أجريت لكل واحد منهم ضوءا كشافا لأعرف مالم اكن اعرف عن أعضاء أسرتهم : امهاتهم وابائهم وبديلات الامهات وبدائل الآباء واخوتهم واخواتهم . كان يسر الىّ الواحد منهم أسراره التى لا يجرؤ أن يذيعها أو يقولها لاحد . وكنت أؤدى دورى كأب وكأخ وكصديق فضلا عن دورى كرائد تربوى . عرفت نقاط الضعف فى شخصية أبناء المؤسسة كما عرفت نقاط القوة . ولم أكتف بالمعرفة بل حاولت أن أعرف العوامل . وما أصعب ذلك لشاب قد بدأ حياته العملية التربوية فى محيط الأحداث الجانحين . كنت قد بلغت سن السادسة والعشرين . وكانت تجاربى فى هذا الميدان ضئيلة . ومع ذلك فقد كنت أشعر بأننى قد تجاوزت هذه السن . وكان من يرانى يشعر نفس الشعور . عرفت من كان من الاولاد "طفلا غير شرعى" لا يعرف أما حقيقية له ولا أبا حقيقيا وان توهم ان السيدة "الحاضنة" التى كانت تأويه عندما كان رضيعا واستمرت بعد تسليمه الى المسئولين بعد بلوغه سن السنتين متصلة به وهو متصل بها - أنها أمه الحقيقية . وأن أباه قد توفى أو لا يعرف أحد عنه شيئا . وعرفت من الاولاد من كانت امه تمارس الدعارة وكان يعلم ذلك ولكنه كان يخفيه فى أعماق نفسه ، وعرفت "عبد الملاك" المسيحى الذى عاش مع الاولاد باسم "حسن على" وأخفى هوية عقيدته خشية ، كما كان يتصور ، بأسهم وعدوانهم عليه . الامر الذى لم يحدث قط عندما علم أولاد المؤسسة هذه الحقيقة . وكان درسا لى تعلمته منهم كان درسا عن "التسامح" الذى يعطر المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى على مر الايام والسنين . وعرفت "عبد الله محمود" (الاخرس) الذى مارس "دور الاخرس" مع الاولاد وأمام موظفى المؤسسة شهورا ، ولم يكشف عن خبيئته سوى الاولاد عندما

جاءنى جمع منهم ليقولو لى "الواد الاخرس اتكلم" وعندما سألته لماذا مثل هذا الدور كان جوابه انه فعل مافعل ليستدر عطف من كان حوله من الابناء الكبار والصغار فضلا عن موظفى المؤسسة . وكان أسلوب اكتشاف الاولاد لهذا الاخرس المزيف اسلوبا طريفا . فقد جاءت أم لزيارة ابنها واعطته قطعة نقود فضية قيمتها عشرون قرشا . وكان صاحب النقود إذ يظهر سروره أمام الملأ يقذف بقطعة النقود على "بلاط" عنبر النوم مستعذبا سماع رنينها . وتصادف عبد الله محمود الاخرس المزيف ان كان حاضرا وفوجيء برنين قطعة النقود فالتفت نحو مصدره ولفت اليه انظار الحاضرين فتأكدوا أنه يسمع وأخذوا يضربونه حتى "نطق" وحضروا الىّ لابلاغى بالخبر أما "عبد الله الفلاح" الذى انقطعت أخباره عن أهله عشر سنوات فقد نجحنا عند بحث حالته الاجتماعية فى الجمع بينه وبينهم وإلتآم الشمل بعد أن كان مقطوعا . تجارب جديدة كنت أخوضها فى كل يوم وأنا فى المؤسسة فى ذلك الحين ، بل فى كل ساعة كنت أعرف جديدا . وكان مناخ المؤسسة عاملا كبيرا فى علاج ماكان عندى من عقد نفسية تراكمت فى نفسى على مر الايام فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية والاقتصادية منذ أن ولدت حتى أصبحت شابا . وكنت أذهب الى البيت متعبا ولكن ما أن أصبح إلا وانا استمتع بنشاط متجدد . لم أكن أرى ولدى احمد وأمال عندما أذهب الى المؤسسة فقد كانا فى العادة نائمين ، وعند العودة كنت أجدهما نائمين كذلك . واستمر حالى على هذا المنوال عندما شرفنا بالحضور أبنائى "سمير" ثم "تيسير" ثم "مسعد" كنت لا أراهم الا نائمين ، وكنت أمتع نظرى بل عقلى ووجدانى عندما أقف وأنا أنظر اليهم وكأنهم ملائكة ينعمون بالاحلام الوردية ويشعون الاحلام الوردية فى النفوس . كان أبنائى فى حضن أمى الذى كان حضنا يضمنى وأنا طفل . كانوا فى امان الحب الانسانى المنقطع النظير حب أمى الذى كان ومازال حبى . وكانوا أيضا فى رعاية زوجتى أمهم وكانت شابة فى الثلاثين من عمرها عندما

وضعت أخرهم تستطيع أن تقوم بأعباء لا تستطيع أمى أن تقوم بها . وكانت المؤسسة وبيتى دنياى التى أعيش لهما . والحق أن المؤسسة قد ملكت على كل أو معظم مشاعرى . وعلى الرغم من سحابات الحزن التى كانت تجىء ثم تذهب لحرمانى من مواصلة التعليم العالى لان الوقت المناسب لم يكن له وجود فى حياتى فى ذلك الحين ، فقد كنت سعيدا بأن أعبد الله جل وعلا فى شخص رعاية أبناء المؤسسة ، كما كنت مقتنعا بأن ما أفعله كان يمثل أنبل مشاعرى الوطنية . فالوطن ، مصرنا الغالية ، كان ولا يزال فى مسيس الحاجة الى الرجال الذين يصنعون الرجال .

ومع ذلك فقد اضطررت الى ترك المؤسسة فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ أى بعد ستة شهور من إلتحاقى بها . وقد تركت المؤسسة مرغما . اننى لم اتركها وحدى . فالسيدة إلزا قد انتدبت للعمل بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة مشرفة على ميدان التدريب العملى لطالبات المدرسة وطلبتها . والزميل المغفور له الاستاذ ابراهيم المنوفى بدأ فى شهر اكتوبر عام ١٩٣٩ عمله فى قرية "شطانوف" ليقوم مع المغفور له الزميل الدكتور محمد محمد شلبى الذى عهد اليه بالعمل فى قرية المنايل بأول تجربة علمية لاصلاح الريف المصرى . أما مصيرى فقد طلب منى تقديم استقالتى من المؤسسة لكى أعمل مديرا (ناظرا) لمعسكر كوم امبو . واننى أذكر اننى قد صدمت بالامر فالعمل سيكون هو العمل وان ثقلت المسئولية . وبعدت البيئة التى كنت سأعمل فيها "كوم أمبو" وإننى أذكر أيضا اننى عندما سئلت عن مكان هذا البلد أننى استعنت بخريطة القطر المصرى لأعرف المكان . وعندما عرفت اننى سأكون بالقرب من مدينة أسوان على بعد عشرين دقيقة اذا ركبت قطار الاكسبريس خفق قلبى ولكنى لم أجفل . وبقدر ما أدمى ذلك قلبى فان قلبى تجلد أيضا . وأصبح همى الاول وكنت قد بدأت الدراسة فى العام الثالث من حياة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، أن اكمل موضوع الرسالة التى بدأت جمع مادتها وكان

موضوعها "بيوت الملاحظة للاولاد المحرومين" وكنا فى شهر رمضان . وتفرغت لهذا العمل تفرغا كاملا . ونجحت فى اكمال الرسالة مكتوبة بالحبر وتعهدت ادارة المدرسة ، بعد الموافقة على تسلمها منى كما هى ، بنسخها على الآلة الكاتبة . فقد كان على أن استلم عملى الجديد قبل بدء شهر ديسمبر عام ١٩٣٩ . وأنا لم أكن قد اخترت هذا العمل الجديد . لقد اختارته لى عميدة المدرسة السيدة برتا فهمى وانني أذكر أنني ذهبت معها الى ادارة شركة كوم امبو بالقاهرة التى أقامت المعسكر الذى عينت له مديرا . ذهبت مع السيدة العميدة وقابلت معها "رينيه قطاوى بك" (وهو ابن يوسف قطاوى باشا الذى كان وزيرا للمالية فى عام ١٩٢٤) مدير الشركة الذى وافق توا على التعيين بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيها مصريا (كنت أحصل وأنا بالمؤسسة على مرتب شهرى قدره ستة جنيهات مصرية . أى اقل مما كنت أحصل عليه من مصلحة الحدود الحكومية بنصف جنيه مصرى) لم أكن أعلم شيئا عن شركة كوم امبو ولم أعلم شيئا عن المعسكر الا اسمه . وحدد موعد السفر وسافرت الى كوم امبو تاركا أمى وزوجى وأبنائى احمد وأمال وسمير الذى كان قد ولد فى يوم ١٩ من شهر يونيه عام ١٩٣٩ .

وهكذا على الرغم من ثقتنا ، نحن الاخصائيين الاجتماعيين أصحاب الافكار الحديثة التى تجعل التغيير الى الافضل لها هدفا ، بالنصر ، فقد كنا كما ذكرت نعيش فى سراب . كانت الافكار القديمة لها جذور فى الواقع لاتزال . ونجح الافتراء ولكن الى حين . فقد كان هذا النجاح جولة وكم فى الحياة من جولات . ولكن بكل الصدق أقول إنه بقدر مأدمى قلبى تجلد أيضا . وكأنما لى قلبان أو كان لى قلب مزدوج يواجه الحلو كما يواجه المر وينظر دائما الى أمام .

واذا كنت قد ذكرت ان المغفور له الامام الشيخ محمود خطاب كان استاذى الأول فى دراساتى شبه المنتظمة ، فان السيدة إلزا

أصبحت فى ضوء الرابطة التى تربطنى بها منذ دراستى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وفى المؤسسة ومابعد ذلك ، كما سيعلم القارىء ، استاذتى الاولى فى دراساتى المنتظمة . كنت عندما عرفتها فى دنيا غير الدنيا التى كانت تعيشها . كانت نظراتها نحو الحياة واتجاهاتها نحو الامور متباينة عن نظراتى وعن اتجاهاتى . ولكن لم يزد هذا التباين بينى وبينها إلا قربا . كنت أرى أنماط سلوكها وكنت اتعلم . وكنت أقارن شخصيتها بشخصيات من كنت أعلم من النساء المصريات وأقربهن الىّ كانت أمى وزوجتى وزوجة عم أبى أم حسين سكينة وزوجة شقيق أبى أم على زينب ثم غيرهن وغيرهن . وعلى الرغم من الاطار المرجعى النظرى الدينى الذى كان يحيط بتصرفاتى فانى كنت اعتقد أن شخصيتها هى الارجح وأن مصرنا الغالية فى مسيس الحاجة الى أمثال السيدة إلزا . وكنت وانا أقارن هذه المقارنة أتذكر حديث السيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة عن السيدة إلزا . كانت العميدة تقول إنه لو وجدت ثلاث نساء مثل السيدة إلزا فى مصر لتغير المجتمع المصرى فى ذلك الحين الى الأفضل والى الاقوى والى الاعظم . وأنا لاأحاول أن أمدح السيدة إلزا فاعمالها منذ ان وطئت قدماها أرض مصر فى أواخر عام ١٩٢٤ وحتى كتابة هذه السطور شاهدة على ماأقول . ان تاريخ مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر يكتب للسيدة إلزا سطورا من النور . ولعل من الادلة الساطعة على هذه الحقيقة انها لاتزال تعمل فى الميدان على الرغم من حالتها الصحية وكبر سنها وان كل من أقام عقبة فى سبيل أداء واجباتها أصبح جزءا من زبالة التاريخ الاجتماعى المصرى . اين عبد السلام الشاذلى الذى كان يملك الحول والسلطان ؟ اين الصاغ "احمد حسان" تابع هذا المحافظ وأحمد عبيده الذى ارتقى بعد ذلك الى رتبة حكمدار العاصمة ؟ أين أتباع هذا العبد من عبيده الشرطيين أمثال الامباشى على والامباشى احمد نجم ؟ أين غيرهم من صغار موظفى وزارة الشئون الاجتماعية ومن كبار هؤلاء

الموظفين ؟ لقد ذهبوا جميعا وذهبت اعمالهم الدنيئة أدراج الرياح . واننى ألتمس العذر من القارىء وقد ذكرت بعض الاسماء لان أصحابها فى حقيقة الامر لايستحقون الا الاهمال ، فقد كانوا لعوامل لاإنسانية يقفون فى سبيل إزدهار الاعمال الانسانية ، وانا أذكر أسماءهم فان الذكرى تنفع العاملين الخيرين وتحط من شأن المعوقين الآثمين . وانا الآن اتذكر ماارتجله أحد أبناء المؤسسة واسمه "سيد سلامه" عندما أقيمت الحفلة الاسبوعية بالمؤسسة ، حيث كان يسمر الأبناء ومن يكون حاضرا من موظفى المؤسسة . فاجأنا سيد سلامة وارتجل مترنما وهو فى حضرة السيدة إلزا موالا يقول فيه :

يافايت على باب المؤسسة ياأبو صباح نادى ،

سلم لى على الست إلزا وقبل لى الايادى ،

دى نجمة فى السما العالية يحرسها الكريم الهادى ،

واذ أكتب ماأكتب الآن يرن فى أذنى صدى غناء سيد سلامة وتكراره لفقرة "دى نجمة فى السما عالية" كان يقولها من القلب لانها دخلت فى كل قلب . ولعل هذا ان يكون دليلا على بعض آثار غرس السيدة إلزا ومن كانوا يحتذون بافكارها التربوية الايجابية ويعتنقون القيم الانسانية التى كانت تحاول أن تغرسها فى نفوس الجميع . وليغفر لى القارىء ماسطرته من قبل عندما ذكرت أننا ، السيدة الزا ومن كانوا يحتذون بأفكارها التربوية الايجابية التى تجعل التغيير الى الأفضل لها هدفا ، كنا نعيش فى سراب ومع ذلك فإن النتيجة كانت ماخطر ببالنا فى ذلك الحين لأول وهلة قبل أن تعلمنا الحياة ان البقاء حتما للاصلح وانه لايصح الا الصحيح ، وانه "ماعلى التبر من عار فى النار حين يقلب .. "

واستقبلنى على محطة "كوم امبو" الاخ حسين عرفى الذى كان يمارس مهنة الخدمة الاجتماعية فى محيط فلاحى وعمال وموظفى شركة كوم امبو . لم يتخرج حسين عرفى فى مدرسة أو فى معهد أو كلية للخدمة الاجتماعية ، ولكنه ذهب فى بعثة الى الهند تدرب فى

أثنائها على العمل فى محيط الفلاحين فى بعض ولايات الهند . ومن ثم فإنك تجده يتقن الانجليزية وبعض الفرنسية ولكن خبراته عن مهنة الخدمة الاجتماعية لم تكن خبرات منتظمة . ولعل أهم مؤهلات هذا الرجل كان ولاؤه للمسئولين عن الشركة وعلى رأسهم المفتش "مزراحى" . ولأول مرة عرفت ان شركة كوم امبو شركة يديرها يهود متمصرون وان السيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة هى يهودية أمريكية . واذا كنت قد تعاملت مع المصريين المسيحين فى مصلحة الحدود معاملة مباشرة فهأنذا أبدأ المعاملة المباشرة مع اليهود المتمصرين فى مدينة كوم امبو . تجربة جديدة واجهتها فى ذلك الحين . وكان قلبى مفتوحا وكان عقلى أيضا مفتوحا . وكانت اسلحتى أن أجعل التسامح رائدى وان تكون معاملتى مع الجميع معاملة حسنى . وكان حسين عرفى الشاب غير المتزوج فى ذلك الحين (أخر شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ بعد قيام الحرب العالمية الثانية) شخصا ملء السمع والبصر . فهو مصرى غير متزوج ورشيق وتجرى فى عروقه الدماء التركية ومن ثم كان وسيما . تراه فى مقر عمله وكان النادى الرياضى الاجتماعى لموظفى الشركة محط أنظار النساء من زوجات العاملين بالشركة وفتياتهن . وكن من اليهوديات المتمصرات يعرفن العربية ولكنهن يتحدثن باللغة الفرنسية أو باللغة الانجليزية . وبقى حسين عرفى ملء السمع والبصر وسط هذا الجمع من النسوة صغيرات السن وكبيرات السن . وكن بسبب حالة الطقس لايلبسن الا ماخف من الثياب . ولابد ان منظرى وأنا أراهن أو أرى الواحدة منهن كان منظرا مضحكا . فقد كنت إذ أفتح عينى أفتح فاهى فى نفس الوقت . وكنت فى بعض الحالات أغمض عينى خشية الفتنة . واذا خلوت الى نفسى ، وقد اصبحت أعزبا ، أتساءل عما كان يرا بى . وكان يريحنى إن انتهى الى أن الله جل وعلا يمتحننى . وأن نجاحى أو فشلى يتوقف على ماأملك من إرادة إنسانية . ومهما يكن

من الامر فانا قد جئت لاعمل فى معسكر الاطفال لا لاعمل فى النادى الرياضى الاجتماعى لموظفى شركة كوم امبو . أى أننى سأكون بعيدا عن الفتنة . وعلى كل حال فإننى فى ضوء قدراتى المالية لايمكن أن أكون محط الانظار . ففتنة بنات اليهود ونساء اليهود غالية الثمن . وكان الجميع يعلم مقدار ماأحصل عليه من المرتب الشهرى الذى كان لايكفى رهان يحصل عليه من يغلب فى "ماتش" لعبة التنس السائدة هناك . وكان من يغلب فى هذه المتشات عادة الاناث ، وكان المغلوب دائما من المصريين المسلمين من أصحاب الدخول العالية وكانوا فى العادة من المهندسين الذين بلغوا سن المعاش أو كادوا . وبدا لى أن ما تدفعه الشركة من اجور أو مرتبات تحصل عليه بطريقة أو بأخرى . فهى تملك مدينة كوم امبو وقراها تملك البيوت والحوانيت والشوارع وتملك الفندق الوحيد الذى يوجد فيها ، وهى أى الشركة تدفع أجوراضافية للمأمور ولمفتشى التعليم ولامام المسجد ومن كان فى حكمهم من موظفى الحكومة السنية . وكنت ترى مزراحى اذا سار فى الشارع ، ويندر مايحدث هذا ، يسير وحوله الحراس العمالقة وهم يحملون بنادقهم خشية أن يرديه أحدهم قتيلا كما حدث لغيره من مفتشى الشركة من قبل . كانت الشركة حكومة داخل حكومة . وكانت حكومة الشركة هى الأقوى فالارض أرضها والفلاحون لايملكون الا أجورهم التى لايأخذون منها أخر الشهر بعد أن يدفعوا ديونهم التى لاتنقطع الا القليل القليل . ويكفى أن يعلم القارىء عن "قصر الباشا" شيئا . إننى لم أدخل هذا القصر لاننى لم أستطع ذلك فهو أرض محرمة ، لايدخلها الا اسماعيل صدقى اذا كان خارج الوزارة . واذا شرف دولته تهافتت عليه النساء اليهوديات المتمصرات زوجات المسئولين عن الشركة وعلى رأسهن زوجة مزراحى ، ان الهدف الاول اذا ماحضر "الباشا" أن يكون "مبسوطا" وأنا لاأغالى فيما أذكر فان مالم أذكر كان أعظم .

كان همى الأول أن أذهب الى المعسكر . وكان حسين عرفى

يؤخر ذهابى يوما بعد يوم . لعله كان يريد أن يعلم الآخرين أو يعلمنا جميعا أننى أعمل تحت سلطانه . أو لعله كما كان يقول لى "ياراجل انت مستعجل على أيه هى الدنيا طارت" إنه فعلا كان يصدق هذا القول . ومهما كان الامر فالكتاب قد استوعبت عنوانه . ولكن ذلك لم يفت فى عضدى أبدا فقد نذرت نفسى للاطفال لأعمل معهم وأكون قدوة صالحة بينهم . ولن يضيرنى شىء آخر . ان المبادىء التى اعتنقها ثابته لاتتغير ، وهى حتى الآن لم تتغير . وكل ماأراه أو أسمعه إن هو الا تجربة جديدة . وقد يرجع كل ماهو جديد من تجارب منذ أن عملت فى ميدان الخدمة الاجتماعية حتى ذلك الحين . اننا نحن الطالبات والطلبة ، وأنا ، كنا نسمع فى المحاضرات فى معظم الاحيان مايجب أن يكون لا ماهو كائن . والفرق فى ضوء تجاربى بين ماهو كائن أى ماأراه فى واقع المجتمع وبين مايجب أن يكون أى ماكنت أسمعه فى المحاضرة وأدونه فى مذكراتى وامتحن فيه فرق شاسع . ولعل ذلك فى ضوء المناهج التعليمية فى ذلك الحين وحتى الآن ، كما يبدو هو مايسود . ولعل تغيير هذه المناهج التعليمية أن يحدث سريعا حتى يمكن القضاء على ظاهرة الازدواجية التى نواجهها فى أمور عديدة فى محيط الثقافة السائدة فى المجتمع المصرى .

وذهبت الى معسكر كوم امبو بعد اسبوع من مجيىء الى كوم امبو . وكنت فى أثناء هذا الاسبوع فى الفندق أعيش وأتناول وجبات الطعام ، ولم أكن أمكث فى الفندق كل الوقت بالطبع ، ولكنى فى خلال ساعات النهار وبعض ساعات المساء كنت مع حسين عرفى أمكث معه فى النادى الرياضى الاجتماعى حيث يعمل . وكنت أصحبه أحيانا حيث يعمل موظفو الشركة وكان الحديث يدور بينه وبينهم لا باللغة العربية بل باللغة الانجليزية أحيانا أو باللغة الفرنسية أحيانا أخرى . وتأكد لى اتقانه للغة الانجليزية وضعفه فى اللغة الفرنسية . كان شابا ولعله كان يكبرنى ببضع سنوات . ومهما يكن فلم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره . إننى فى سن

السادسة والعشرين من عمرى فى ذلك الحين . وكان حسين عرفى على الرغم من قصر قامته يجتذب الانظار . وكنت أعيش بالفندق وهو الفندق الوحيد كما ذكرت الذى يوجد فى كوم امبو وكان ملكا للشركة . كنت أعيش وأدفع المبلغ الذى تحدده الشركة سواء كان هذا أجرا للمبيت أو كان ثمنا للوجبات التى أتناولها . وكنت لاأدفع دانقا . فالحساب يدفع آخر الشهر فيخصم ماعلىّ من مرتبى الذى أتقاضاه . وكان من المميزات التى تخصص لموظفى الشركة وكنت واحداً منهم أن كانت لى عربة يجرها حصان ولها "عربجى" خاص أركبها فى المواعيد التى أحددها ولايمكن أن يركبها غيرى دون أن آذن له . أى أن العربة والحصان والعربجى جميعا كانوا تحت تصرفى فى المكان الذى أشاء وفى الوقت الذى أشاء . ميزة جديدة علىّ وهى أن رفعت من معنوياتى فانها لم تزدنى شرفا أو رفعة أو منعة .

وركبت عربتى فى الموعد المحدد أى الموعد الذى حددته أنا ، وكان عندما خرجت من الفندق بعد تناول طعام الافطار . ولم أكن أعرف أين كان المعسكر فلم أدرك الزمن الذى تستغرقه العربة لكى تصل اليه إلا بعد أن وصلت اليه . وقد علم موظفو المعسكر سلفا بحضورى فاستعدوا لذلك . ولاحظت قبل أن أنزل درجات العربة أن ثلة من رجال الشرطة واقفون امامهم شرطى برتبة الاومباشى يقودهم وينادى بأعلى صوته تحية لمقدمى . ولبى رجال الشرطة النداء ووقفوا كحرس شرف احتراما واجلالا . وفى سرعة مذهلة خطر ببالى أن أفعل أمرا . تقدمت الى الاومباشى وسلمت عليه بيدى ثم الى رجال الشرطة المصطفين أسلم على كل واحد منهم بترتيب وقوفهم من اليمين الى الشمال . ولم يتوقع أحد أن أفعل ذلك ولكننى فعلته لكى أقضى على هذه التمثيلية قضاء مبرما . وقد حدث ذلك فعلا فلم يقف رجال الشرطة ولارئيسهم لى عند حضورى الى المعسكر أو عند خروجى من المعسكر لتحيتى بعد اليوم . لقد قبلت العربة والحصان والعربجى للضرورة فالمسافة من الفندق

الى المعسكر مسافة طويلة فلا داعى لأن أقطعها مرتجلا . أما حرس الشرف فأنا منه براء لان وجود رجال الشرطة لحراسة أبناء المعسكر كفكرة كانت فى ضوء ثقافتى الاكاديمية المنتظمة مرفوضة رفضا نهائيا . إن معظم أبناء المعسكر كانوا من مدينة القاهرة . وأين مدينة القاهرة من مدينة كوم امبو والمسافة يقطعها قطار الاكسبريس فى ذلك الحين فى أربع عشرة ساعة . والحراسة فى شخص رجال الشرطة تعنى القهر . والقهر لايمكن ان ينشىء التنشئة السوية . وأنا فى المعسكر قد جئت لكى أربى وأسهم فى هذه التنشئة السوية . ان علاقتى برجال الشرطة فى معسكر كوم امبو فى ضوء خبراتى بالمؤسسة كانت منذ اللحظة الاولى علاقة عداء . ولكن لم أجاهر بهذا العداء فقد جئت لكى أؤدى عملا انسانيا ينتظره الجميع لكى يحكموا له أو عليه . ولم يكن هدفى الصراع بينى وبين غيرى ومنهم رجال الشرطة . ان الصراع كان آخر ماكنت افكر فيه وبخاصة عندما أبلغنى حسين عرفى بأن المدير السابق كان ضابطا وأحيل الى الاستيداع وهو من أهل مدينة كوم امبو . أى أن له من أعضاء مجتمعها أقارب ومعارف يشاهدون ماأفعل عن كثب أحيانا أو عن بعد أحيانا أخرى . لم أبال لذلك كثيرا وان كنت قد وضعته فى حساب تفكيرى . ذلك لان المدير السابق لم يكن له اقارب ومعارف فحسب بل كان من بين أولاد المعسكر من يكنون له الولاء . وهذا أمر واقع . ذلك لاننى وأنا المدير الجديد لم أفعل لاولاد المعسكر حتى الآن شيئا طيبا أو شيئا سيئا . وانا فى نظرهم مازلت غريبا وشخصا تحت الاختبار . وكنت أعرف ذلك كله بل كنت أتوقعه كذلك . وكان عدد الاولاد لايزيد على ١٢٠ ولدا ، وكان يوجد بالطبع طباخ ومساعد للطباخ فضلا عن أحد السعاة كلهم من اهالى كوم امبو وكان يوجد ايضا "معلم" الموسيقى الذى لم يحضر عندما ذهبت لاول مرة الى المعسكر وعندما سألته بعد ذلك ذكر انه لاعمل له وذلك لان المعسكر لاتوجد به آلات موسيقية ، وقد طلب هذه الآلات منذ ان

حضر أى منذ أكثر من ستة شهور ولم تلبى الشركة طلبه حتى الآن . وقد أكدت عليه ضرورة حضوره الى المعسكر سواء كانت آلات الموسيقية موجودة فى المعسكر أو غير موجودة . وذلك لان كل اهتمامنا ، هو وأنا ، أن نعمل فى محيط الاولاد كل فيما يخصه ويختص فهو يستطيع أن يعمل مع الاولاد فى أوقات فراغهم باقامة حفلات سمر يغنى فيها من يستطيع منهم الغناء فرديا أو يغنى الاولاد جميعا غناء جماعيا . وما أكثر الاغانى فى مجتمعنا المصرية الفردية منها والجماعية . ومن الغريب أن "ابراهيم افندى" وهذا اسم معلم الموسيقى لم يرضخ لاوامرى . لقد كان اكبر منى سنا ربما كان فى سن الاربعين فضلا عن أنه كان دائما يقول ويكرر أنه ليس موظفا فى الشركة بل هو موظف فى محافظة القاهرة . وكان يرى بقوله هذا انه يمتاز عن موظفى الشركة ولم يكن مايقوله فى حقيقة الامر أمرا واقعيا . فاصحاب الامتياز كما ذكرت من قبل كانوا موظفى الشركة لاالحكومة . وبمرور الوقت رضخ ابراهيم افندى ذو السن الاربعين لامرى انا الشاب ذو السن السادسة والعشرين .

وعندما دخلت المعسكر رأيت أولاده . وكان منظرهم عجيبا . كانوا حفاة الاقدام وملابسهم "مهلهلة" ، اقصد ملابس اغلبيتهم . وكان من بينهم من كانوا أطول منى قامة وربما من كانوا أكبر سنا . ونظرت اليهم بحب واحترام ، وكانت نظراتهم الى "نظرات فاحصة" تحاول أن ترى عوامل حضورى واستبدالى بالمدير السابق . كان عدد الكبار من الاولاد عشرين ولدا ، فقد أسرعت بعدّهم عند أول وهلة . عددت من كان أطول منى قامة بالطبع . والباقى وكان عددهم مائة ولد فقد كان فيهم الصغار حتى سن الثانية تقريبا وغيرهم كانوا أكبر من ذلك سنا . كان العشرون الكبار موضوع تفكيرى . هل يبقون لكى أفعل معهم شيئا مفيدا أو أطلب عودتهم الى القاهرة فقد فات الاوان لمحاولة الاسهام فى اعادة تنشئتهم التنشئة الاجتماعية الصحيحة . كنت فى حيرة . وتركت هذا الموضوع الى حين . وكانت فجيعتى كبيرة عندما سألت واحدا

من الاولاد عن اسمه فذكر ان اسمه "محمد عبد الله خمسة" وسألت آخر فذكر ان اسمه "محمد عبد الله واحد" وهكذا وجدت ان هناك عددا من اسماء "محمد عبدالله" اتخذوا أرقاما . كان عددهم خمسة عشر ولدا . منهم الكبير ومنهم الصغير . وخمنت وكان تخمينى صحيحا ان هؤلاء من "الاطفال غير الشرعيين" وكنا نحن المهتمين بالخدمة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الحين ، منذ اللحظة الاولى ، ندعو الى تغيير شهادات ميلاد هؤلاء الاطفال وجعلها مثل شهادات ميلاد الاطفال العاديين يذكر فيها اسم الام كما يذكر فيها اسم الاب ، وان تكون اسماؤهم فى هذه الشهادات من الاسماء المتداولة ، اى اننا كنا ندعو الى أنه لاداعى لان يكون امام المولود "محمد عبد الله" دائما وان يكتب امام اسم الام واسم الاب أن الطفل "لقيط" وبخاصة اذا كانت المولودة أنثى وحتى اذا كان المولود ذكرا فانه لايستحق ان يكون موضوع ازدراء عند دخول المدرسة أو عند الطلب فى الجيش أو عند استخراج رخصة للعمل ، والانثى الطفلة غير الشرعية كانت تعانى من شهادة ميلادها عندما تتزوج عناء غير انسانى ، ومثلها مثل الولد عندما كان يقدر لها ان تدخل المدرسة او عندما كان يقدر لها ان تعمل .
ولم يكن حب الاستطلاع يملأ نفوس أولاد المعسكر وحدهم ، بل كان يملأ أيضا نفوس موظفى المعسكر فضلا عن رجال الشرطة الحراس . لم ابه كثيرا ولاقليلا لذلك . وكان همى الاول والاخير أن أعرف موقعى ومن أين أبدا . بدأت التجول فى المعسكر ، دخلت أول مادخلت "دورة المياه" وكانت قذرة ورائحتها لاتطاق ! ثم ذهبت الى المطبخ وراح الطباخ يمارس حركاته التقليدية ويرينى ماكان يطبخ ورائحة بخار الاكل الذى نضج وحتى الذى لم ينضج بدأت تملأ المكان فاشمها ويسيل لعابى وأنا مضطر ولكن سرعان ماكنت أتمالك زمام نفسى . ورأيت الذباب يحوم ولفت نظر "الاسطى" فاشتكى بأن الحر فى حجرة المطبخ لايطاق وأنه يضطر الى فتح الشبابيك والباب فيدخل الذباب . وسرعان مادونت

فى مذكرتى ان يستبدل بخشب الشبابيك السلك الذى يمنع الذباب ويجدد الهواء فى نفس الوقت . ونفذ هذا المشروع بعد يومين . فالشركة صاحبة المعسكر لديها من النجارين والأدوات المتعلقة بالبناء وغيرها مايزيد على الحاجة . اما تنظيف دورة المياه فقد دخل فى النظام الذى وضعته حيث يقوم الاولاد بعمليات التنظيف والخدمة فى المطبخ والخدمة فى المطعم دوريا . وعندما ذهبت الى حجرات النوم (العنابر) وجدت عجبا . كان الاولاد الصغار ينامون على بلاط العنبر . أما سرايرهم ، وكل ولد كان مخصصا له سرير ، فقد استولى عليها اكبر الاعضاء سنا أو أقواهم أو أكثرهم عزوة . ووضعها سريرا فوق سرير حتى وصل الى سقف العنبر حيث ينام على السرير الأخير ، السرير الأعلى . ووجدت أحدهم يربط "فتلة" من الدوبارة فى السرير الاخير ويتركها تنزل على الارض حيث يشعل الطرف الملقى على الارض ليستعمله فى اشعال "سيجارة" أو اشعال "عقب سيجار" كلما اشتهى ذلك ـ ويبقى الطرف مشتعلا طالما كانت للدوبارة المدلاة بقية . ورأيت أن تغيير هذا الوضع فى التو والساعة ضروريا وبمساعدة الاولاد صار لكل ولد فى عنابر المعسكر سرير . أى ان أغلبية الاولاد ارتفعت قاماتهم عن الارض والاقلية المتحكمة نزلت قاماتهم من فوق . وتساوى الجميع . كان التذمر باديا على أعضاء الاقلية المتحكمة ولم أبال . لانهم كانوا يعلمون فى قرارة نفوسهم أنهم كانوا مخطئين . ووقعت الصاعقة على رؤوس اولاد المعسكر وموظفيه عندما أعلنت أمام الجميع أننى سأتناول طعام الغذاء مع الاولاد . وحاول البعض أن يثنينى عن ذلك فانا أتناول طعاما أدفع ثمنه من مرتبى فى فندق الشركة الذى أسكن فيه واتناول طعامى كل صباح وبعد الظهر وكل مساء فى مواعيد محددة ، ولكنى أصررت على الاكل مع الاولاد ، وأكدت على الطباخ ان أكلى يكون نفس الاكل بكميات تتفق وسنى . ولما جاء العربجى لأركب معه راجعًا الى الفندق أبلغته ان يأتى بعد ساعتين . وعندما حان موعد تناول طعام الغذاء ، ذهبت الى

المطعم . ورأيت الاولاد جالسين على الموائد . وكان على رأس كل مائدة واحد أو أكثر من أعضاء الاقلية المتحكمة لم يدعنى احد الى الجلوس . فجلست بين الاولاد الصغار على احدى الموائد . وكانت عيناى ترى كل من فى القاعة ترى الاكل الذى يغرف فى الصحون كما ترى من يأكلون . ولاول مرة منذ شهور ذاق الاولاد الصغار طعم اللحم وطعم الفاكهة وأنا بينهم . كان يستحوذ على قطع اللحوم والفاكهة أيا كان نوعها الاولاد الكبار . ولم يكن ليجرؤ واحد من الصغار على الاحتجاج . لأنه لم يكن هناك رقيب ولاتنظيم وكانت الفوضى شائعة . وكان موظفو المؤسسة ينافقون الاولاد الكبار ويخشون بأسهم ، ويقاسمونهم الغنائم وألوان العبث . فقد كانت العربات تسير من أمام المعسكر محملة بأعواد القصب من نوع "الخد الجميل" ذوات الطول الفارع والتى تحتوى على قصب السكر الذى تكون حلاوته مثل حلاوة السكر أو أحلى منها ويبدأ الاولاد فى نزع الاعواد من العربات عودا عودا حتى يقنعوا بما اغتصبوا . ثم يمصون من الاعواد مايمصون ويعصرون مايعصرون فى أوان يأخذونها من أوانى المطبخ . وكان ييسر العصير السكين وأيديهم الفتية . وكلما امتلات آنية صبوا محتوياتها من العصير فى زجاجة فارغة من زجاجات المياة الغازية . ثم توضع لقمة من الخبز فى كل زجاجة مملوءة بالعصير وتدفن فى مكان أمين معروف لدى أصحابها من الاولاد وموظفى المؤسسة وعلى رأسهم "رجال الشرطة الحراس" ليوم أو يومين فيصبح العصير بعد مرور هذا الوقت خمرا يعاقره الجميع خلسة غير عابثين بخلق قويم أو سلوك شريف . وقد تكون الضحايا صغار الاولاد بالمؤسسة أو بعض الامهات الزائرات أو بعض النساء المعروفات من أهل كوم امبو . والملاحظ ان مدينة كوم امبو فى ذلك الحين لم يكن لها أهلا . كان مجتمعها مؤلفا من العديد من الناس الذين يسعون للقمة العيش أو الذين كانوا يحاولون الاختفاء من غريم أو من اقتصاص العدالة . كان أهل كوم امبو كلهم غرباء يكونون مجتمعا مصطنعا . وكانت

تحكم الجميع شركة كوم امبو التى بلغت سطوتها فى الكثير من الاحيان نفى أى شخص بالقوة ليعود "بالبوط" "boat" الى حيث جاء فالاراضى أراضيها والبيوت بيوتها والحوانيت حوانيتها والمياه مياهها وتيار الكهرباء تيارها وكل شىء كما ذكرت كان ملكا للشركة حتى إرادة مأمور الشرطة وشيخ المسجد ومدير التعليم وأى موظف حكومى يعمل فى قطاعها أو يجىء لكى يزور الادارات الحكومية التى تشرف عليها بقصد التفتيش عليها . وكما علم موظفو المعسكر خبر مجيىء الى المعسكر لاول مرة فان الشركة تعلم سلفا اى موظف حكومى ذى مقام رفيع أو غير رفيع قبل أن يحضر الى كوم امبو . فاذا كان الموظفون الحكوميون من ذوى المقامات الرفيعة فالفندق كفيل بتكريمهم امتثالا للمثل الشعبى المصرى القائل "اطعم الفم تستحى العين" . فالمشروبات توزع عليهم بكل أنواعها ، ووجبات الطعام الشهى تنتظرهم فى أية لحظة يشاؤون ، والترفيه اذا رغبوا فيه فى متناول شهواتهم . ويعيشون فى هذه الاحلام الواقعية ومعهم موظفو الشركة ونساؤهم وفتياتهم حتى ينصرفوا والكل راض . الشركة راضية وأصحاب المقامات الرفيعة راضون .

ولن انسى ابدا ماحدث عندما قيل لى ذات يوم بعد تناول العشاء فى الفندق ان "مدير اسوان" سيحضر غدا الى كوم امبو . وطلب حسين عرفى منى الحضور وكان معنا أحد الموظفين المرموقين . فذهبنا الى المدرسة الليلية وكانت مغلقة منذ شهور وفتحت وجاء المبيضون والمبلطون والنجارون واصلحوا ماأفسده غلقها . ثم ذهبنا الى المعسكر وكان الاولاد فى حاجة الى ملابس وأحذية ، ففتحت الحوانيت المختصة وتسلمت مايكفى وزيادة من "البدل الجاهزة" على اختلاف مقاساتها ومثلها من الاحذية . وذهبنا الى المعسكر . وكانت ليلة بيضاء على اولاد المؤسسة استحم فيها كل واحد منهم الصغار قبل الكبار . ثم لبس الجميع ملابسهم واحذيتهم التى وضعوها تحت اسرتهم للبسها عند تشريف "المدير" عندما

يحضر فى الصباح . وانتهينا من عملياتنا الاخرى "نادى العمال" و"نادى الموظفين" عندما كادت ان تقترب الساعة من الثالثة صباحا . واذا كنت قد قلت من قبل "فالكتاب قد استوعب عنوانه" فاننى اقول الآن اننى قد قرأت الكتاب ووجدت ان مضمونه قبيح قبيح يعكس النفاق ويظلم الحقيقة ويتغاضى عن كل ماهو جميل وعندما جاء مدير اسوان الى المعسكر وجد الاولاد فى ملابسهم وأحذيتهم الجديدة وكانت وجوههم لامعة ويقفون مصطفين يقودهم اومباشى المعسكر (فقد كان تحت امرة عبيد هذا المدير) . وقدمنى مزراحى الى المدير . وقال كلاما لم أتبين معناه لانه كان كلاما كاذبا فلم انبث ببنت شفة . لم اجب عن أسئلة مزراحى ولاعن اسئلة المدير . واصبحت امامهما اصم ابكم . ومع ذلك فلم أنم ليلتى . كان بودى أن أقول بأعلا صوتى إننى أسمع نفاقا واعيش فى نفاق ويراد بى أن اكون منافقا . ولكن ماذا كان يجدى كل ذلك . وقد دارت الكؤوس على السيد المدير وصحبه وتناول الجميع المشهيات ثم الوجبات التى تتضمن مالذ وماطاب أسفت لنفسى أسفا شديدا . وتأكد لى مايقال بأن الساكت عن الحق هو شيطان أخرس . فهل أصبحت شيطانا أخرس ؟ ومع ذلك فحسين عرفى كان فى قمة السعادة لان كل شىء مر على مايرام ، وبخاصة بأن زيارة مدير اسوان جاءت بعد أن تأهل واصبح متزوجا من احدى قريباته . ولم يتقدم بهذه المناسبة أحد للتهنئة بعد أن أحضرها الى كوم امبو سواى . انفضت من حوله الزرافات من النساء العاملات أو زوجات العاملين فى الشركة . كما انفضت فتياتهن الفارعات الجميلات اللاتى كن لايلبسن وهن حوله الا الخفيف من الثياب وصار حسين عرفى وزوجته لايزاران . وكان يشكو لى هذه القطيعة مر الشكوى لكنه كان عند اولى الامر فى الشركة مازال شخصا نافعا فولاؤه لهم مازال هو هو ، وهو مازال عندهم موضع الثقة . اى ان مصلحتهم فى وجوده معهم ومصلحته أيضا فى أن ينافق من أجلهم . ولعنة الله على مهنة الخدمة الاجتماعية ومبادئها . فالحياة أقوى من الموت . والحياة حركة مثلها مثل النفاق فهو أيضا حركة .

ولابأس أبدا من أن يكون كما يقول المثل العامى الشائع شابا "حركا" بكسر الحاء !!

ولكن قلبى كان يدمى لما كنت أرى من أنماط السلوك البشرى ، وبمرور الوقت ازداد جلدى وآمنت بضرورة التغيير . كان هذا التغيير أملا ولكنه فى ضوء تجلد قلبى لابد وأن يتحقق وبخاصة وقد لاحظت ان اختيار منطقة كوم امبو لتستثمرها الشركة كان تجربة زراعية صناعية لكى تقتدى فى مكان ما . وكنت اسمع اسم هذا المكان أو صداه أحيانا عندما يذكر امامى عن غير ان قطاوى بك قد سافر الى فلسطين ، وقد سبقه الى هناك بيومين المفتش مزراحى .

وبدأت خطة عمل جديدة لى . كنت أذهب الى المعسكر فى الصباح ولاأعود منه الا فى المساء . وكنت أبيت ليلتين وربما اكثر مع الاولاد . كان ينصب لى سريرا فى حجرة مكتبى لأنام عليه بعد أن أطمئن على نوم الاولاد جميعا كل فى عنبره وكل على سريره . ورسمت خطة عمل جديدة أخرى للمعسكر . منذ الصباح المبكر حتى موعد ذهابهم الى الفراش . لم يكن اولاد المعسكر يذهبون الى الحقول . فقد تأكد للشركة أن وجودهم فى المعسكر بلا عمل أريح للشركة من أن يذهبوا الى العمل فى الحقول . حيث يكون تدميرهم أفدح والخسارة اكبر . ومن ثم فقد كانت الخطة الجديدة الخاصة بالمعسكر تتضمن نشاطات تستوعب طاقات الاولاد . منها النشاطات الرياضية ومنها النشاطات الترفيهية ومنها النشاطات الثقافية . ولم يكن يعاوننى أحد سوى ابراهيم افندى قنديل الذى بدأ عمله كمعلم موسيقى عندما تفضلت الشركة وأحضرت الالات الموسيقية المطلوبة . وكان ابراهيم افندى خريج احد ملاجىء "مدينة المحلة" ويتقن عمله فهو يكتب النوتة ويعلم الاولاد الذين اختارهم للفرقة الموسيقية العزف على أساس قراءة النوتة . وبدأنا نستمع الى موسيقى "محمد عبد الوهاب" مثل قطعة "حبى" و"فى المعادى" وغيرهما وبدأ أولاد المعسكر وقبلهم موظفو

المعسكر يحترمون مواعيد البرامج الموضوعة . كنت دائما فى المعسكر وكنت أبيت فيه . وكانت الرقابة مستمرة وبدا لى أن الجميع قد استراح وأراح ، وان الشكاوى قد قل عددها . وتقلص طموحى الذى كان فأصبح همى الاول هو أن أكون للجميع مثلا طيبا يحتذى فاذا صليت لاأدعو احد لكى يصلى ومن أراد أن يصلى معى فانه يلقى الترحيب منى . واذا حضرت الى المعسكر فاننى أحضر فى موعدى ، واذا لم أكن موجودا فى موعد الغداء فلا أتناول وجبة الغداء . ان من حقى ان افعل ذلك اذا كنت موجودا فى المعسكر سواء كانت الوجبة الافطار أو وجبة الغداء أو وجبة العشاء . وكنت اذا دعوت الاولاد الى الاجتماع فانهم يلبون . وكنت ألقى عليهم بعض مايجب أن يفعلوه وكنت أحذرهم مما كان يجب أن يتجنبوه . واذا أردت أن أجعل من الاجتماع فصلا دراسيا عن موضوعات تتناول بعض قيم المجتمع مثل الولاء والتعاون والصبر وغيرها فعلت ذلك . ومن حق من لايرغب فى حضور هذا الاجتماع ان لايحضر . وكان عدد كبير من الاولاد يتركون الاجتماع إذا تناول موضوعات كهذه . وبدلا من اجتماعات المواعظ بدأت أقيم اجتماعات "الحكاوى" أى أننى كنت أستبدل بالموضوعات التى كان يراها بعض الاعضاء موضوعات جادة قصصا . فكان حضور الاولاد كاملا . وكنت إذ أسرد عليهم حكاية من تأليفى أو حكاية اقتبسها من احد الافلام أرى عيونهم العطشانة تشع بالبريق السعيد الذى كان يسعدنى . كنت تراهم وكأن على رؤوسهم الطير ولاتسمع أنفاسهم . وكنت استعمل كل هذه الوسائل لكى يتقربوا الى ولكى أكون فى قلوبهم وعقولهم . فلعل بعض ماأقول أو أفعل أن يرسخ فى أذهانهم وينتج عملا طيبا . كانوا جماعة من الآدميين يعيشون فى القهر ويخافون المجهول ، وكان هذا قدرى الى حد كبير . ولكنى كنت فى ضوء ايمانى بالله جل وعلا فى ضوء خبراتى اكثر نضوجا . كانوا فى ضوء ظروف حياتهم فى مسيس الحاجة الى الحب يتبادلونه مع بعضهم ومع غيرهم ، وكان هذا قدرى فى

ذلك الحين الى حد كبير . كان الحب يملأ على كيانى ولكن رغبتى العارمة كانت فى تبادل هذا الشعور النبيل مع غيرى . ولم أجد أمامى الا أولاد المعسكر وقد بادلنى الاولاد أو معظمهم مشاعرى . فقد أمنت بأنه فى محيط العمل مع الجماعات لابد من وجود "حزب الاقلية" أى لابد من وجود عدد قليل أو كثير الى حد مايلعب دور المعارضة . وقد وجد هذا العدد بين الاولاد فى شخص الاولاد الكبار العشرين الذين كان من بينهم من هم أطول قامة منى وربما من كانوا أكبر سنا .

وبرز خطر هذه الجماعة عندما وقعت الواقعة . وأقصد بذلك ماحدث عندما حلت ليلة مبيتى بالمعسكر وعزمت على أن يستحم الاولاد ، وبعد أن تم ذلك على اكمل وجه تحت إشرافى المباشر ، حضر مندوبون عن المستشفى المحلى لكى يطعموا الاولاد ضد مرض "التيفود" وفعل المندوبون ذلك . طعموا الاولاد كما طعموا الموظفين ورجال الشرطة وذهبوا الى حال سبيلهم . وعندما اقترح احدهم أن تملأ الصهاريج بالمياه حتى تكون فى الصباح جاهزة لاستعمال مياهها فى الاعمال المختلفة فى المعسكر ، وافقت فى الحال . وتم ملء الصهاريج وكانوا ثلاثة . وعندما بدأ الاولاد وبخاصة صغارهم يتثاءبون بعد ان تناولوا وجبة العشاء ألغيت الاجتماع العام . فالاولاد قد استحموا وقد تناولوا عشاءهم وقبل ذلك طعمهم المسئولون ضد مرض التيفود . وذهب الاولاد الى عنابرهم كل فى عنبره وكل على سريره . وسرعان ماعلت أصوات "شخيرهم" . نام الصغاز من الاولاد وبدأ لى أن الكبار منهم أيضا ناموا . ذهبت الى حجرة مكتبى حيث نصبت سريرى لكى أنام أنا أيضا . ومالبثت لحظات أو دقائق أو أكثر من ذلك الا واسمع "غفير المؤسسة" « عم حمدان » يصيح قائلا "يابيه يابيه ... حريجة فى المخزن .. يابيه .. يابيه .." وقمت من سريرى مهرولا وعندما رأيت النار ذهبت الى التليفون لكى أطلب المطافى ظانا أننى فى مدينة القاهرة فقد كان النوم مازال فى عينى لايحاول أن يتركنى . وعندما

أيقنت بانني فى كوم امبو ولست فى القاهرة تركت التليفون لكى أذهب لاساعد فى إطفاء الحريق الذى زاد لمعانا ووهجا . استيقظ بعض رجال الشرطة وبعض الاولاد الصغار ومعنا خفير المؤسسة وقضينا على الحريق فى وقت قصير . كانت المياه فى الصهاريج ولله الحمد والمنة . وكانت سواعد الرجال حاضرة . أما المخزن فقد كان مخزن "الكراكيب" حيث وضعت فيه المخدات السليمة (المحشوة بالقش) وبعض المخدات غير السليمة ، والمراتب السليمة (المحشوة بالقش أيضا) وبعض المراتب غير السليمة وغيرها من بقايا الكراسى و "الزكايب" الفارغة . كراكيب ليس الا ولكن الخطر كان يكمن فى سلوك الكهرباء . فالمعسكر لم يكن فيه مياه جارية فى الوقت الذى كان فيه تيار كهربائى . وذلك لأن موقعه كان فى قلب الحقول حيث توجد اعمدة الكهرباء . وكانت المياه مياه الرى ترفع بالطلمبات . ـ وانتهت الواقعة او الموقعة بانتصار الانسان ، وذهبنا لكى ننام بعد يوم طويل طويل .

ولاأذكر اننى نمت فى تلك الليلة . لقد تأكد لى باحجام الاولاد الكبار عن المساعدة فى إطفاء الحريق أو تقاعسهم انهم هم أو بعضهم قد ارتكبوا هذا السلوك الاجرامى . فماذا أفعل معهم ؟ إن عددهم عشرون ولدا فليذهبوا الى القاهرة بعيدا عن باقى الاولاد . ولم تكن عودتهم الى القاهرة عقابا لهم أبدا فهذا هو أملهم الذى يسعون اليه بل الذى يسعى اليه كل أولاد المعسكر الصغار منهم والكبار . ولكن أن يمكثوا فى المعسكر بعد ماحدث فانها الفكرة غير الصائبة . ولم أنم الا بعد أن قررت أن أطلب عودتهم الى القاهرة . وليذهبوا حيث يذهبون وليكن مايكون . وفى الوقت نفسه انتهيت الى ان ماحدث فى المعسكر هو ماحدث ولن ابلغ عنه رسميا . ولتعلم الشركة ماتعلم فانا مستعد للاجابة عن أى أستفسار إذا لزم الاستفسار . وكان الفجر قد هل بنوره المعنوى والمادى وقمت توضأت وصليت ودعوت ودعوت وكانت من دعواتى التى لازلت أدعوا بها حتى الآن .. أى حتى كتابة هذه السطور "يابركة دعاء الوالدين"

وكان قد مرت أربعة شهور منذ حضورى الى كوم امبو . وإذ كنت أنا أضيق بما أرى وأسمع بل وربما أتوقع فان الشركة كانت تضيق أضعاف ماكنت أضيق به . إن وجود الاولاد فى المعسكر يعنى استثمار غير مجدى . هذا ماتراه الشركة . ومن ثم فان هذا الوجود كما ذكرت كان خسارة ليست بالضرورة خسارة فادحة ولكنها خسارة . ومفهوم الخسارة عند الشركات الاستغلالية مثل شركة كوم امبو مفهوم مقلق لايمكن أن يسر الخاطر خاطر المفتش مزراحى ورءسائه وحتى مرؤوسيه . وكنت اراسل السيدة إلزا وتراسلنى منذ حضورى الى كوم امبو ، وكان فى سطور ماتكتبه الى أنه سيحدث تغيير ما فى "فكرة" معسكرات الاطفال ، فقد ثبت لدى الجميع فشلها وعدم جدواها . وتأكد ذلك فيما يتعلق بمعسكر كوم امبو أن الدكتور عبد الواحد الوكيل والدكتور عبد المنعم رياض والدكتور احمد حسين قد أتوا الى كوم امبو ليروا الاعمال الاجتماعية التى تقدمها شركة كوم امبو أو التى يقدمها حسين عرفى الى الريفيين ، وزاروا ضمن مازاروا معسكر كوم امبو ، ونجح المفتش مزراحى فى اقناع الزائرين بأن وظيفة المعسكر كما كانت مكتوبة على الورق لم تتحقق فى الواقع . وأن خيرا للاولاد أن يعودوا الى القاهرة حيث يعيش من يعيش فى مؤسسات ايداع (تربوية) أو أن يذهب من يذهب ليعيش مع ذويه . ورأى الجميع أن العمل الريفى يحتاج الى أشخاص نشئوا فى الريف ولقنوه وهم لايزالون فى نعومة أظافرهم . إنه عمل شاق يحتاج الى ان يمارسه العاملون رويدا رويدا ولايمكن أن يقوم به أشخاص يعرفون دور السينما والمسارح والاضواء التى يشع نورها مطلا على شوارع فسيحة تجرى فيها عربات الترام . ونفذ طلبى الخاص بعودة الاولاد الكبار فرحين مستبشرين على عكس من بقىٰ من الاولاد الذين كانوا يتلهفون الى العودة من حيث أتوا وليكن المصير مايكون . ولكنى لعبت دورا فى التهدئة أقصد تهدئة نفوسهم ، ولما

لم أكن أعلم ماذا سيكون مصير الاولاد العائدين فكنت ارجح للاولاد الصغار أن هذا المصير سيكون بالضرورة قائما . ومن العجيب ، وهذه ظاهرة اجتماعية ، إنه سرعان ماظهر قادة جدد بعد أن ذهب القدامى . لم ادر كيف ظهروا . لقد كانوا هناك بين الاولاد فى المعسكر لم يدر أحد أين كانوا ولكنهم ظهروا ورضى بهم الأولاد ولم أر بأسا بالموافقة على قيادتهم . كانوا موجودين وغير موجودين فى آن واحد . ومآن اتيحت لهم الفرصة باختفاء من عادوا الى القاهرة حتى صاروا وجودهم واضحا . ودهشت مما حدث . فقد كانت أمامى تجربة انسانية تتشكل وتتبلور . كنت أقول لنفسى ، ومازلت افعل ذلك ، كيف حدث هذا ، إنه ظاهرة تشبه مايحدث صناعيا عندما يموت الملك فيقول "مات الملك عاش الملك" ولكن موضوع الملك هذا موضوع يسير على نظام اصطنعه بعض أصحاب المصلحة سواء كانوا من المستعمرين الاجانب أو المستعمرين أبناء الوطن من الداخل من مراكز القوى . أما ماحدث فى معسكر كوم امبو فقد حدث دون ماسابق ترتيب أو تنظيم . فلم يكن هناك نظام اصطنعه أحد الا أن دينامية الجماعة كظاهرة اجتماعية اقتضت حدوثه . وعقب سفر الاولاد الكبار بقليل علمت ان الدكتور احمد حسين قد عرض على حسين عرفى وظيفة "مرموقة" فى إدارة الفلاح التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية والتى كان قد أنشأها التعاونى المعروف "دكتور ابراهيم رشاد" الذى كان يعلم علم اليقين ان التعاون بأنواعه لابد ان يأتى من تحت أى من رغبة الجماهير بعدغرس الحاجة الى هذه الرغبة فى نفوسهم . ولكن ابراهيم رشاد تغاضى مضطرا (كما يبدو) عن هذا المبدأ وجعل التعاون من فوق اى الحكومة التى تحاول أن تفرضه على الجماهير فرضا عن طريق الاقتناع أحيانا أو عن طريق تحقيق المظهرية التى نباهى بها نحن المصريين أحيانا أخرى . وقبل حسين عرفى المنصب الجديد فهو لايملك مؤهلات علمية مرموقة وان كان يملك بعض الخبرات . وكان حسين عرفى وزوجته فى قمة السعادة فقد

ان الاوان ليعيشا فى القاهرة عيشة اكثر هناءة ولعل المستقبل ان يهيىء الفرص الاعظم كما هيأ القدر الفرصة الحالية . واذا كان حسين عرفى قد قبل المنصب الجديد بحبور فان أولى الامر بشركة كوم امبو قد قبلوا تعيين موظفهم وموضع ثقتهم بحبور أعظم . فالآن لاخدمة اجتماعية للفلاحين فى مزارع الشركة أو فى محيط عمالها ، ومعسكر الاطفال فى سبيله الى الالغاء ومن ثم فالمأمول ان يستبدل بالاولاد بضائع الشركة وأدواتها ، ويصبح المعسكر مخزنا . وهذا أجدى وأنفع للشركة مافى ذلك من شك . وترك حسين عرفى شركة كوم امبو الى ادارة الفلاح ومنها الى "الشركة الشرقية للدخان" وبمرور الزمن وفى غفلته أيضا رأيناه يصبح رئيسا لمجلس ادارة الشركة الشرقية للدخان يرفل كما يفعل كل من على شاكلته عادة فى جنباتها وكرشه يسبقه أمامه حينما يسير وعندما يجلس على كرسيه .

عندما تأكدت عندى الأخبار السابقة تذكرت توا الدور الذى كان يؤديه يهود فلسطين الذين كانوا يلبسون ملابس الضباط الانجليز أو الصف ضباط الانجليز ويقودون العمال المصريين (عمال السلطة) فى أثناء الحرب العالمية الاولى . تذكرت المعاملة القاسية غير الانسانية التى كانوا يعاملون بها هؤلاء العمال . والتى كان من مظاهرها أن يحكم على العامل المصرى اذا ماأخطأ خطأ يسيرا بالجلد مائة جلدة وينفذ الحكم علنا امام الجميع . وتداعت الافكار وتذكرت ان كوم امبو منطقة يهودية وأن كل من يخطىء من الاهالى المصريين يكون الحكم عليه بالنفى بالقوة ليعود "بالبوط" الى حيث جاء . وكانت الاحكام التى تصدر من الاومباشى اليهودى أو الضابط اليهودى على عمال السلطة فى أثناء الحرب العالمية الاولى او الاحكام التى تصدر من موظفى شركة كوم امبو لامعقب عليها ولانقض لها ولاابرام . وماتذكرته وغيره خفف من حيرتى التى كنت أواجهها من حين الى حين وأنا فى كوم امبو . كنت أجد امامى

المتاجرة بمبادىء الخدمة الاجتماعية فى سبيل تحقيق المصالح الذاتية ، وكنت أجد النفاق باسم الدين احيانا وبأسم الاخلاق أحيانا أخرى ، وكنت أجد اهدار الكرامة الانسانية التى يدفع ثمنه مئات الالوف من المطحونين باسم الاصلاح الزراعى واعطاء فرصة العمالة لهم . وكنت أجد ألوان القهر ومحاولة تبريرها فى المسجد وفى المدرسة وفى النادى الرياضى الاجتماعى . واخيرا هأنذا أواجه "بيع الجمل بما حمل" فلا خدمة اجتماعية بعد اليوم ، ويوافق أولوا الامر على ذلك . ويفرح من يفرح ولايرى مئات الالوف والملايين من البشر الا الضباب الفكرى .

وفى خلال شهر مايو عام ١٩٤٠ أى بعد مرور ستة شهور من وجودى فى كوم امبو تأكد خبر العودة الى القاهرة . ونظرت الى الامام . وكنت أعلم أننى سأواجه المجهول ولكنى كنت أعلم أيضا أن امامى "امتحان دبلوم الخدمة الاجتماعية" الذى سيعقد فى مدينة القاهرة فى غضون شهر يونيه عام ١٩٤٠ ، وكنت اتحرق شوقا لمواجهة هذا الامتحان وأن أنجح فيه بتفوق ويكون تفوقى مرموقا . وعشت أيامى الباقية فى كوم أمبو من أجل هذا الهدف . وكان من حقى عند العودة الى القاهرة فى قطار العودة أن أكون فى أحد كراسى الدرجة الثانية ولكن أولى الامر قد أصروا على أن يكون أولاد المعسكر العائدين تحت الحراسة ، وأن تفرد لهم إحدى عربات القطار . فأصررت بدورى على أن أكون معهم . ورافقنى ابراهيم افندى قنديل وكانت زوجته وأبناؤه قد سافروا الى مدينة المحلة محل إقامتهم قبل ذلك بأيام . فجلست أنا وهو مع الاولاد وبتنا مع الاولاد فى القطار . وكنت أشعر اننى أبيت فى دورة مياه قذرة . فأبخرة عرق الاولاد وغيرها كانت تملأ المكان . والاولاد إذ تراهم نائمين ترى البسمات تملأ وجوههم . هم يتوقعون ملاقاة القاهرة بما فيها من مغريات وأحلام ، وابراهيم افندى يتوقع العودة الى وظيفته فهو موظف فى المحافظة التى تشرف على المشروع . أما أنا فقد كنت أتوقع أن أجد مكانى فى الشارع لاحول لى

ولاقوة . ولكن إيمانى بالله لم يتزعزع وثقتى فى دعاء أمى لم تشوبها شائبة . وكنت أقول فى سرى "اذا كان الله معنا فمن علينا" ؟ كنت شابا وكان الامل فى الحياة الشريفة يملأ علىّ كيانى . وكنت أرى الدنيا على الرغم مما لقيت وشاهدت وواجهت فيها الخير اذ كان فيها الشر . والخير أبقى . وفى محطة القاهرة كان ينتظر الاولاد "لوريات" تحملهم الى حيث يذهبون ، وعرفت انهم ذاهبون الى المؤسسة ، وصحبهم ابراهيم افندى قنديل . أما أنا فقد أخذت طريقى الى البيت فى شارع البقلى قسم الخليفة . ولم يكن أحد من أهلى يعلم بموعد مجيىء . فلم أشأ أن أزعج احدا . ودخلت البيت . وكان أطفال الاسرة يمرحون ويرتعون وكانت آمال ابنتى وكانت فى سن الثالثة والنصف من عمرها بينهم فما أن رأتنى مدت الىّ ذراعيها الغضين لكى أحملها . وحملتها بين ذراعى الشابين فأحسست بأننى أحمل الدنيا ومافيها من نفائس ، وسمعتنى اغمغم "اللهم بحبك آمالى بلغنى آمالى" وكانت مفاجأة سارة لى أن أرى الجميع أمى وزوجتى واحمد وسمير وأهل الأسرة على مايرام . إننى الآن بلا عمل وان كان معى من النقود مايكفينى ويكفى أسرتى الصغيرة شهرين أو ثلاثة شهور . ولكنى أعلنت بأننى تركت كوم امبو لأننى أنفذ نقلى الى القاهرة . كذبة بيضاء لم تضر أحدا فى التو والساعة وان صارت لها آثار أرغمتنى بعد ذلك على ترك بيت العائلة بعد فترة قصيرة . وبدأت فى التو والساعة فى الاستذكار لامتحان الدبلوم ، وكنت قد زرت عميدة المدرسة والسيدة إلزا وكانتا تعلمان ماحدث . وقد عرضت علىّ العميدة نقودا وشكرت لها فأنا فى ذلك الحين لم أكن فى حاجة الى نقود . وفى أثناء حديثى مع السيدة العميدة حاولت أن توحى الىّ بأن كل شيء بعد الانتهاء من الامتحان سيكون على مايرام .

واود هنا أن أذكر اننى كنت قد كتبت فى مذكراتى فى خلال شهر يونيو عام ١٩٤٠ مايلى :

"..... واذا كنت قد تركت المؤسسة فإننى لم أترك ميدان

العمل فى محيط الاولاد المحرومين . لقد عينت للعمل مديرا ل "معسكر الاطفال بكوم امبو" من شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ حتى شهر يونيو عام ١٩٤٠ حين واتتنى الظروف لاعود الى المؤسسة مرة أخرى تحت القيادة العلمية لاستاذى المغفور له الاستاذ يعقوب فام فى ضوء وظيفة جديدة للمؤسسة ومنهج للعمل جديد وقواعد للعمل جديدة" ..

والاستاذ يعقوب فام ، كما يجب أن يعلم القارىء ، عاش حياته [illegible] من أجل أن يربى النشء . فقد كانت التربية هدفه الاول [illegible]ر . لم يكن عالة عليها بل قبل أن تبدأ تأهل من أجل تحقيق الـ[illegible] الكبير . فدرس فى مدارس مصرنا الغالية ومعاهدها ، وأكـ[illegible] دراسته العالية فى "جامعة بيل" بالولايات المتحدة الامر[illegible]ية . وتدرب التدريب الكافى فى محيط الصبيان والشبان فى مصر وفى خارج مصر . وعندما وجد انه أهل للقيام بالمهمة الجليلة كرس حياته ليصنع جيلا من المصريين ، أبناؤه الآن رجال يصنعون الرجال . كان رحمه الله يعمل لهم وبهم وهم أمامه فى الجد وفى اللعب الجاد مصريون قبل كل شىء ، على الرغم من انهم يمثلون عقائد الديانات السماوية التى تتعانق على أرض مصر . وفى ضوء المبادىء التى استلهمها مارس مهمته النبيلة . وكلها مبادىء تحترم الانسان وتقدس كرامة الانسان وتعمل من أجل الانسان . كان لايعيش فى فراغ . فقد كان ابن طينة مصرنا الخالدة . عاش فيها ، فى أرض الواقع الحى ، ومن أجلها . كنت تراه وعن يمينه طالب الجامعة ويسير معه جنبا الى جنب أحد العمال الكادحين . لايفرق بين هذا وذاك . فهما وامثالهما معهما أبناء لمصرنا الخالدة .

ومنذ أن كان شابا وحتى مات فى أواخر الخمسينات من هذا القرن . وهو يعمل من أجل مصر دون ما دعاية طويلة عريضة . تجده فى الصباح وحتى المساء يعمل مع الصبيان والشبان فى "مؤسسة الزفاف الملكى" وفى نادى "كوبرى الليمون" وفى

"قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية" وعندما مات مات فى صمت . لم ينل اهتماما من أحد سوى تلاميذه ومريديه الذين مازال يعيش فى شخصياتهم وهم بدورهم ينقلون الاهتمام به وبمبادئه الى غيرهم . وغيرهم سيفعلون ذلك حتما الى أبد الابدين .

كان يقول لنا عندما أشرف على المؤسسة فى شهر يونيو عام ١٩٤٠ : ان هذا البلد (يقصد مصرنا الغالية) لا يحتاج الى أناس يبكون وينوحون على فساد الحياة عندنا ، فالبكاء والنواح لا يعودان على أحد بفائدة . وكان يقول لنا أيضا : إننا جزء من هذه الحياة الفاسدة ، وإنها فاسدة لأننا نحن لا نعمل على أصلاحها بما فى وسعنا من جهد ، وان الحياة تصلح فى مجموعها اذا صلحت جزئياتها . وان الفرد مهما صغر شأنه يجب أن يعمل ما فى وسعه ، وأنه يستطيع أن يفعل الشىء الكثير ، إن النظرة السطحية العامة الى الحياة لا تفيد ولا تجدى ، وإن مايفيد ومايجدى فى الواقع هو النظر الى التفاصيل والعمل على تقويم هذه التفاصيل ، وان هذه امورا لا تستلزم حكومة أو سلطانا أو مالا ، وانما تستلزم جهودا متواضعة يقوم بها الافراد ، ثم ألسنا نحن افرادا ؟ أليس من العار علينا أن نقعد منتظرين مجيىء الاصلاح على أيد غير أيدينا ويعمل أناس غيرنا ؟ ثم ماذا يستطيعه الغير ونعجز عنه نحن ؟ ماذا يستطيع الفرد العادى المثقف أن يفعل ؟ ثم ماذا يمنعنا أن نفعل مثلما يفعل ونبذل من الجهد والمال مثلما يبذل ؟

كان الاستاذ يعقوب يقول لنا ذلك واكثر من ذلك . كان يقوله فى المقابلات الفردية وكان يقوله فى المقابلات الجماعية . وكنا نناقشه فى كل مايقول . وكان يسمح بصدر رحب لكى نناقش كل مايقول . كنا نتفق معه احيانا . وكنا نختلف معه أحيانا أخرى . وفى ضوء خبرته الطويلة العميقة تيسر له أن يحول هذه الأقوال والأحاديث الفردية والجماعية الى أنماط من السلوك لقد اكتشف رحمه الله الاساليب التى يسرت هذا التحول فى شخصيات المئات بل الآلاف

من شباب مصرنا الخالدة . وكانت هذه الاساليب نابعة من قيم مجتمعنا ومبادئه ومثله العليا . فقد آلى على نفسه منذ عودته من بعثته فى أوائل الثلاثينات ، أن يدرس هذه الاساليب وينقب ويتتبعها مادام يعمل فى الميدان . وكان من أجل تحقيق ذلك يعقد المؤتمرات الدورية والشهرية والاسبوعية . ومازال يفعل ذلك على مدى الايام حتى أعجزه المرض فى أواخر حياته . ومات فى صمت ، ولكن قلوب تلاميذه ومريديه ومن جاءوا بعدهم تخفق بذكراه العطرة التى لن تموت . فهى تعيش فى كيان الاولين وتعيش أيضا فى كيان الاخرين وسوف تعيش حتما فى كيان من سيجيئون .

وإننى أدين للاستاذ يعقوب فام بالكثير الكثير . كانت محاضراته فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة لا تجد عائقا فتدخل فى كيانى وتشغل دماغى . وتجعلنى أعيش معها وبها فترة من الزمان فاذا بى تغيرت وأصبحت نظراتى نحو الحياة غيرها قبل أن أنصت الى ماكان يقول . كان ثريا بأفكاره لبقا فى ردوده بليغا فى حديثه وجادا فى كل أحواله . وعندما أشرف على المؤسسة كانت الفترة التى قربت منه وقرب منى فترة لا تزيد على الثلاث سنوات والنصف . لقد فعل بشخصيتى هذا المربى ماجعلنى أحس بأن تنشأتى الاجتماعية قد أعيدت . فلم أصبح انا الذى كان ولكننى أصبحت أنا الذى سأكون . لقد أعاد تكوين شخصيتى كما فعل مع غيرى من الشبان . جعلنى أحب "العلم" وحرضنى على تحديد المفاهيم التى أتحدث بها أو عنها ويسر لى السبيل القويم لمناقشة الآراء وأكد على احترام الرأى الاخر وغرس فى نفسى الحاجة الى حب الولاء والى العمل الجماعى والاعتزاز بالكرامة وتقدير انسانية الانسان . لم يكن الاستاذ يعقوب فام يفعل ذلك واعظا ، بل كان القدوة . وكان ماهرا فى خلق المواقف التى تيسر فى سهولة وفى يسر التحلى بهذه السمات . كان رحمه الله ذا ملاحظة نفاذة . كنت أسير معه فى الشارع الذى بجوار المؤسسة فرأى احد رجال

الشرطة من الذين يحافظون على الامن ، وكان فى يده عود من القصب وهو مستغرق فى امتصاص رحيقه ولفت نظرى الى ذلك . فحفر مارأيت فى ذاكرتى ووعيت الدرس توا . لم يقل شيئا ولم يعظنى بشىء ولم يعظ رجل الشرطة أو غيره من المارة . ولكنه وأنا أحد تلاميذه اكتفى بالاشارة الى رأى وكل لبيب بالاشارة يفهمُ . لم يكن يكره الوعظ أو الوعاظ ولكنه كان لا يرى جدوى أو نفعا فى ذلك . كان يصيح بأعلى صوته "نحن مربون" ولسنا "وعاظا" . إن القدوة الصالحة والمناقشة الحرة فى ظل الديمقراطية واحترام الناس الذين يدربون وثقة من يدربونهم فى أنفسهم : تلك الثقة التى تتوطد دعائمها بالعلم - كل ذلك يحقق مانصبوا اليه .

وأصبحت مؤسسة الزفاف الملكى منذ أن أشرف عليها الاستاذ يعقوب فام فى شهر يونيو عام ١٩٤٠ مؤسسة تربوية وليست دارا للملاحظة كما كانت من قبل ، أصبحت مؤسسة تضم حوالى مائة وعشرين ولدا فقط ، كلهم ممن حكمت عليهم محكمة الاحداث بالقاهرة بالايداع لارتكابهم بعض الجرائم كالتشرد والسرقات والتعدى على الناس ، بقصد إعادة تنشئتهم حتى يصبحوا مواطنين صالحين . وكان أبناء المؤسسة على عكس أبناء نادى كوبرى الليمون وأعضاء قسم الصبيان ، يعيشون فيها حيث يأكلون ويشربون وينامون ويلعبون ويتعلمون فى مدرسة خاصة بهم فى المؤسسة . واصبح باب المؤسسة مفتوحا يخرج منها الصبى فى أى وقت يشاء إن اراد . لقد كان أول مافعله الاستاذ يعقوب منذ اللحظة الاولى أن سرح رجال الشرطة "الحراس" وطلب إعادتهم الى مواقع عمل أخرى . ثم رأيناه يقوم فى أولاد المؤسسة وكانوا مجتمعين ، خطيبا وتضمنت خطبته ضمن أشياء كثيرة السماح لأى ولد يرغب فى البقاء فى المؤسسة أما من لا يرغب فباب المؤسسة أمامه مفتوح ، ومن حق كل من يخرج اليوم أن يعود بعد ثلاثة ايام ليسجل عضوا بالمؤسسة كما كان . اما بعد هذه الفترة فلن تقبله إدارة المؤسسة اذا جاء . وكنت حاضرا فاذا بالاولاد يطيرون

كالعصافير خارجين من باب المؤسسة ولم يبق منهم الا عدد لا يزيد على عشرين ولدا . اكثر من مائة ولد خرجوا وتركونا . واذا كان قلبى وقلوب من كانوا معنا قد خفقت فقد كان الاستاذ واقفا أمامنا يواجه هذا التحدى بصلابة الفولاذ . لم يأبه لخروج الاولاد من المؤسسة على الرغم من أنهم كانوا من المحكوم عليهم بالايداع . وبدا لنا أن لسان حاله وليس لسان مقاله يؤكد أن من سيعود من الاولاد الذين طاروا كالعصافير سيفوق تصورنا . وقد حدث ذلك فعلا فلم تمر الثلاثة الايام الا وكان قد عاد ثمانون ولدا ، عادوا ليعيشوا فى المؤسسة مع زملائهم العشرين حياة الامن والامان . واصبح من تقاليد المؤسسة منذ ذلك الحين أى منذ اللحظة الاولى ان يكون بابها مفتوحا يخرج منه الصبى فى اى وقت يشاء إن اراد ، ويغادرها اذا لم يرقه المكوث فيها دون أن يمنعه أحد أو يقف فى طريقه احد . وكان ترك المؤسسة مؤقتا للعمل أو للفسحة والنزهة خاضع لقواعد موضوعة ولقوانين استنها الاولاد انفسهم ويحافظون عليها ويعاقبون من يتلاعب بها أو يخالفها .

ومن القوانين التى كانت تنظم عمل أولاد المؤسسة فى المصانع التى تقع خارج أسوارها أذكر قانونا وضع بعد استشارة أبناء المؤسسة وبرأيهم وموافقتهم . وهو أن كل ولد يعمل بالاجر ويزيد أجره على قدر معين من القروش فى الاسبوع يدفع للمؤسسة نصف مايتكسب فى نظير أكله ويستمر على هذا الوضع الى أن يعادل هذا النصف قيمة مايصرف فعلا على اكل العضو ثم لايتعدى مايدفعه هذه القيمة . أما باقى أجره ينقسم الى نصفين أيضا . نصفه يودع باسم الولد فى دفتر توفير حتى اذا خرج من المؤسسة يكون له بعض المال والنصف الباقى يحتفظ به لمصروفه الخاص . وكانت ادارة المؤسسة تحرص على أن لاتتدخل فى شئون العاملين من الاولاد . فكل ولد عامل يقبض أجره من المصنع الذى يعمل فيه بنفسه ، وهو الذى يقدم بيديه نصف أجره لخزينة المؤسسة للاكل والربع للتوفير . كانت ادارة المؤسسة تترك هذا لابنائها عالمة أن

فيه مجالا لتلاعب اى ولد يريد أن يتلاعب ولكنها كانت تعلم أيضا أن هذا التلاعب إذا تم سيكتشف من تلقاء نفسه على الاغلب وعلى كل حال كانت إدارة المؤسسة تحرص على أن لا يتجسس أحد على الولد .. أى ولد .. أو تشعره بعدم الثقة فيه دون داعى الى ذلك . فخير للاخلاق فى المؤسسة أن ينجو واحد يتلاعب بها من أن تفقد ثقة جميع الاولاد بها .

وكان العاملون بالمؤسسة جميعا يعملون فى ضوء قواعد دعا اليها الاستاذ يعقوب فام ، وقد ذكرت بعضها أو الكثير منها من قبل ، ولم يأخذ هذه القواعد من بلد أجنبى أو اقتبسها من كتاب تربوى ، ولكنها كانت حصيلة خبراته الواسعة فى معاملة الصبيان والشبان المصريين سواء كانوا أبناء أسر سوية تحرص عليهم وتهتم بهم أو كانوا من أبناء أسر غير سوية من الذين يعيثون فى الارض فسادا ولا يهتم بهم أحد . كان يرى رحمه الله ان هذه القواعد تصلح لتربية الصبيان والشبان فى كل زمان وفى كل مكان . وذلك لان الطبيعة الانسانية تستجيب بطريقة ثابتة لبعض الدوافع ، والصبيان والشبان يتفقون فى الاساس الذى تنبنى عليه طبائعهم فى جميع بقاع العالم . ومهما كان الرأى فيما كان الاستاذ يعقوب فام يدعو اليه ويراه ، فإننى متأكد انه كان مخلصا فيما وصل اليه من نتائج . لم يكن داعيا وكان لا ينتهى الى رأى الا بعد الفحص الدقيق مستخدما فى ذلك دائما المنهج العلمى الذى كان يدعو اليه ويؤمن بضرورة تطبيقه ويعمل بما يقول . ومن عجيب ما اتفق لى مع الاستاذ يعقوب وهو أننى منذ أن رأيته يتحدث فى المحاضرة احترمته ولا أقول أحببته . وتأكد هذا الاحترام عندما قابلته لأول مرة فى شأن العمل بالمؤسسة . خرجت من مكتبه وقد زاد احترامى له ولكن حبى له لم يزد قليلا أو كثيرا . كان كما بدا لى فى ذلك الحين جافا ومتحيزا قال لى مثلا "أنت لا تعرف لعبة كرة السلة ومن ثم كيف تصلح لتكون رائدا ؟ أنت فى حاجة الى أن

تمارس هذه اللعبة وأن تتقنها" وعندما ذكرت له أننى أتقن لعبة "كرة القدم" وأنا كمتخصص يعمل فى محيط الاولاد منذ مايو عام ١٩٣٩ لم يعر لهذه الحقائق أهمية . وعندما أكدت له وكنت قد امتحنت فى "امتحان دبلوم الخدمة الاجتماعية" إننى من الناحية الاكاديمية لدى من الخبرات ماتيسر لى أداء واجبى . اى اننى جمعت بين الخبرات العملية فى القاهرة وفى كوم امبو وبين الخبرات الاكاديمية (النظرية) وانا على وشك الحصول على دبلوم فى الخدمة الاجتماعية - لم يجب عن كل ماقلت شيئا مقنعا . ثم قال فى صراحة "إننى لا أعرفك وانت لا تعرفنى" وعندما قلت له إننى أعرفه ضحك ساخرا وقال إننى أقصد أننى لم أتعامل معك فى عمل وأنت لم تتعامل معى فى عمل . وانتهى الى رئاسة المؤسسة لابد أن تكون لغيرى وأن يكون عملى مجرد رائد لاحدى جماعات المؤسسة . ولم أتردد فى قبول ذلك . فانا فى الشارع لا أزال ولا عمل لى ومن ورائى من ينتظرون الانفاق عليهم . أمى وزوجتى واحمد وأمال وسمير . وأنا أيضا لاهم لى الا أن أعمل من أجل أطفال مصر المحرومين ، اكون ان استطعت لهم القدوة الحسنة وأعيش خبراتهم (أمالهم وألامهم) واتعلم منهم وأعلمهم وقد جربت مسئولية الاشراف فى حياتى حتى ذلك الحين مرتين . المرة الاولى فى الوكالة والمرة الثانية فى معسكر كوم امبو . ان حياتى حياة السمك ان بعد عن الماء هلك ومادمت مع الاولاد فى جماعة صغيرة أو كبيرة فلن يمس حياتى هلاك ، بل على العكس ستتاح لى الفرصة تلو الفرصة لاتقن ما أعمل وأتعمق لكى أفهم أكثر . وبمرور الوقت زاد حبى للاستاذ يعقوب فام ولم ينقص احترامى له أبدا . وعندما مرض مرضه الأخير ترددت فى الذهاب لكى أراه . ولم أذهب وكانت حجتى اننى لم أشأ تغيير الصورة الذهنية التى تملأ على كيانى : صورته الذهنية . أحببت ان تبقى معى مادمت حيا وأن تعيش فى ذاكرتى كلما تذكرته . فقد كانت صورة مفكر عملاق ، صورة وطنى غيور ، صورة رجل احب الانسان وأخلص للانسان

وعاش من أجل الانسان . وكم ندمت على موقفى هذا ، موقف احجامى عن زيارته وهو مريض المرض الاخير . كنت قد عدت من الولايات المتحدة الامريكية فى غضون شهر مايو عام ١٩٥٦ حاملا تحت إبطى درجة الدكتوراة فى علم الاجتماع . الاسر الذى كان سيدخل حتما على قلبه السرور . وفجعت بالخبر عن مرضه وترددت فى هذا الذهاب لزيارته . وكان ندمى من أجل عدم الزيارة وكانت غبطتى فى الاحتفاظ بصورته الذهنية العملاقة فى ذاكرتى غير مشوبة حتى كتابة هذه السطور .

وفى ذلك الحين كنت وزملائى قد تعاهدنا على سراعاة ماوصل اليه استاذنا يعقوب فام من قواعد نتعامل فى ضوئها مع أولاد المؤسسة ، بدقة مااستطعنا الى ذلك سبيلا . وأنا اذكر الآن بكل فخر من هؤلاء الزملاء المغفور له زكريا عبد العزيز والاستاذ عبد العزيز فتح الباب والاستاذ عبد المنعم ثابت والاستاذ عبده خليل والاستاذ محمد حسنين السوسى . وكان يعاوننا بعض أعضاء قسم الصبيان والشبان الجامعيين . وكان من هؤلاء رشدى سعيد واميل ديمترى وميشيل اسكندر ومحمد عباس ومحمد حسن . كان لنا الشرف أن نوضع موضع المربين مع مافينا من نقائص وعيوب . ومع ذلك فقد حاولنا أن نؤدى واجبنا نحو أبناء المؤسسة . وعشنا فترة من الزمان تحت قيادة الاستاذ يعقوب فام نبذل فى خلالها مافى وسعنا فى سبيل النهوض بالمؤسسة وبسمعتها ونحقق أهدافنا السامية فى شخص أبنائها الاعزاء . وبمرور الوقت أحسسنا بالتغيرات فى شخصياتنا . وكانت كلها تغييرات الى الأفضل . أحسسنا بان أولاد المؤسسة يكبرون وينضجون ويرتفعون فوق أمواج المشاكل ، كما أحسسنا بأننا كذلك نكبر وننضج ونرتفع فوق أمواج المشاكل . واذا كنا قد أعطينا عن طواعية للأولاد العدل والحب والاحترام . فقد أخذنا منهم عن طواعية كذلك الحب والاحترام والولاء .

وعشت فى المؤسسة فى هذا المناخ النفسى السوى ، قبل أن

أعين مشرفا للمؤسسة فى غضون عام ١٩٤١ عندما أشرف على المؤسسة الاستاذ محمد شفيق لاعب كرة السلة المرموق فى فريق جمعية الشبان المسيحية ، وبعد أن عينت مشرفا حتى آخر شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ . وكنت كما ذكرت مرارا قد وهبت حياتى كلها فى ذلك الحين من أجل العمل فى المؤسسة حتى أموت . ولكنى فوجئت فى غضون شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ بطلب الاستاذ يعقوب فام أن أترك المؤسسة لكى أعمل " مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة " وكانت مفاجأة غير سارة فعلا . وتذكرت أولاد المؤسسة الذين كبروا معى وكبرت معهم . كما تذكرت الذين طلبوا الخروج من المؤسسة ليعيشوا الواقع الحى فى المجتمع بعد أن استردوا الثقة فى أنفسهم واستطاعوا أن يكسبوا عيشهم بشرف وتذكرت اجتماعات الاستاذ يعقوب فام . إنها لم تكن اجتماعات عادية بل كانت حلقات بحث نعب فى خلال المناقشات التى تجرى فيها الخبرات التربوية وغيرها عبا . كان الاستاذ يعقوب فى هذه الاجتماعات أقصد الحلقات استاذا تعلو هامته فى كل مرة فوق كل الهامات . كان قائدا لايسع الشخص منا الا أن ينصت اليه ، ويقتنع بما يقول من آراء تنبعث عادة من الواقع ومن الخبرة العميقة بالنفوس . ولم يكن ليفرض رأيا على احد . وكان صدره يتسع ويتسع لكل ما يقال .. وقد دأبت فى إحدى فترات حياتى معه على أن اعارضه فى آرائه ولكنه كان يرضينى بحكمته ويقنعنى بصواب رأيه . وكان يفعل معه الجميع ماكنت أفعل وبخاصة من كان حديث العهد به . تذكرت كل ذلك كما تذكرت المنافسات الشريفة التى كانت بين رواد المؤسسة سواء كانت هذه المنافسات فى اللعب أو فى " كشك الموسيقى » حيث تقام حفلات السمر وكم أحن حتى الآن أى حتى كتابة هذه السطور الى الاستماع الى اغانى اولاد المؤسسة : الشيخ حامد ولولو وعبد الكريم ومرزوق واحمد شحاته وغيرهم . وكم احن وحتى الان أى حتى كتابه هذه السطور الى الاستماع الى الاغانى الجماعية التى كنت أؤلفها خصيصا لكى يغنيها أولاد المؤسسة غناء جماعيا ومن

هذه :ـ

يـامـؤسسـتنـا يـامؤسسـتنـا

أنـت بيتنـا ومـدرستنـا

اعضـاءك كلنـا ابطـال

مـافيـنـاش واحـد بطـال

جـدعـان تمـام زى الأشبـال

يـامـؤسسـتنـا يـامؤسنستنـا

★★★

وحـوى وحـوى ايـاحـه

البـت الخفـة الفـلاحـة

وخـدودهـا حمـر وشفتـهـا

افتحـهـا مـن غيـر فتـاحـة .

★★★

قـال شيخـهـم حـدف الاوت

وانـا بتفرج على خلقتـه المقلـوبـة

والكـورة خـدهـا تـوفيـق

ورمـاهـا فـى الجـون

جت طوبة ....

يـاقمـر إيـه ذنبـك

لمـا الـغـارات تجى فـى ليـاليـك

دنـا بـدى ادافـع عنـك

واغيظ بـدالـك اعـاديـك

ياقمر ايه ذنبك ....

وكم أحن وحتى الآن أى حتى كتابة هذه السطور الى الاستماع الى الاغانى من صوت الزميل " اميل دمترى " ذى الصوت الجميل الذى كان يجتذب الآذان ومنها :

الـورد مـيـن يشتـريـه

وللحبيـب يـهـديـه

ويـاليلــة الــعيــد أنستينــا
وجــددت الامــل فينــا
يــاليلــة الــعيــد

ومن العجيب أن أغانى المؤسسة الجماعية كان يغنيها أولاد المؤسسة وهم فى المؤسسة كما كانوا يغنونها على السجية وهم فى خارج المؤسسة . كانت جزءا منهم لم يفرضها عليهم أحد ولكنهم استوعبوها لانها خرجت من بيئتهم التى يعيشون فيها فى أمن وأمان . ومن ثم فهى تنتمى اليهم وهم ينتمون اليها .

وإذا كنت قد تركت المؤسسة فى أول يناير عام ١٩٤٤ من أجل عملى الجديد فاننى تركتها بناء على طلب استاذى يعقوب فام وهو طلب لم أستطع منه فكاكا . تركتها وتركت معها عددا من سنين عمرى كانت من أحلى سنين عمرى .لقد كانت سنين معطاءة أعطتنى الخبرات التى يسرت لى الحياة بعد ذلك . حياتى وأنا فى داخل الوطن وحياتى عندما كنت بعيدا عن الوطن أطلب المزيد من العلم والخبرة وبخاصة بعد أن حصلت على دبلوم الخدمة الاجتماعية فى شهر يونيو عام ١٩٤٠ (الدفعة الاولى) . كنت ضمن ثلاثين خريجا اول من احترفوا مهنة الخدمة الاجتماعية فى الغالبية . وبحصولى على الدبلوم ازداد أملى فى تحقيق حلم أبى فى استكمال دراساتى العليا فى الخارج أسوة بالزعيم الراحل مصطفى كامل . ولعل العمل الجديد الذى أنا على وشك أن أتحمل مسئوليته أن يتيح لى فرص التعليم فى أحد المعاهد الليلية العليا التى كانت مدينة القاهرة تزخر بها فى ذلك الحين . كانت أمنية تداعبنى . وكنت أتحرق شوقا لكى تتحقق وذكرت كما كنت اذكر دائما العبارة المفضلة " يابركة دعاء الوالدين " ودعوت ماشاء لى الوقت أن أدعو حتى يصبح حلم أبى حقيقة كنت أدعو فى السجود وأنا أصلى ، وكنت أدعو فى غير أوقات الصلاة . وكنت أطلب من أمى الدعوات فتجود بها فى كل حين وفى كل مكان . ولم أنس أن أدعو دعوتى المفضلة فى ذلك الحين " اللهم بحبك لآمالى بلغنى

أمالى " ومن الغريب أننى فى تلك الفترة من حياتى كنت أجعل من الدعاء وجاء لى عند الملمات وفى غير الملمات . كنت أدعو الدعوات التى تصلح دنياى التى فيها معاشى وكنت أدعو الدعوات التى تنفعنى فى آخرتى التى فيها معادى . وكان الدعاء فى السجود وأنا أقرب الى الله الوقت المفضل . وكنت أدعو أيضا على كل من كان يقف فى سبيل تحقيق آمالى أو كان يحاول أن ينغص على بلا سبب وجيه أو غير وجيه حياتى وفى أثناء إحدى فترات صحبتى للاستاذ يعقوب فام كان الجفاء بينى وبينه قد بلغ أشده ، وكانت هذه الفترة عندما بدأ اتصالى المهنى بسيادته واننى اذكر ان مناسبة هذا الجفاء جاءت عندما دعيت مساء يوم الجمعة ١٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٠ الى حضور الاحتفال بتسليم الشهادات لخريجى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة : الدفعة الأولى " فابى على الاستاذ يعقوب الذهاب وكان يعلم اننى احد خريجى هذه الدفعة وناقشته فى الاجتماع وكان النقاش حادا وأصر على ابائه وأصررت على ذهابى وتلبية الدعوة . وكانت حجته اننى مرتبط بعملى ولا يجوز أن أبرحه لاستلام شهادة يمكن أن تصل الى بالبريد أو أن أقوم باستلامها من ادارة المدرسة فى يوم اجازتى وكان اصراره على هذه الحجة واضحا عندما ذكر ان احد سكرتيرى جمعية الشباب المسيحية ارسلت اليه شهادة الماجستير بالبريد من الولايات المتحدة ولم يحضر هذا السكرتير الحفل الذى اقيم من اجل تسليم شهادات الكلية التى اكمل دراسته بها فى يوم التخرج وكانت حجتى ان فرصة تلبية الدعوة ربما تكون فرصتى الاخيرة ويوم استلامها بالنسبة لمن يحضرون من اجل ذلك يوم تحفره ذاكرة كل واحد منهم وان عدم موافقته على ذهابى هو الظلم بعينه فالعمل لن يتوقف اذا لم احضر وان عذرى فى الاعتذار عن العمل من اجل استلام الشهادة عذر وجيه ومقبول وواضح . المهم انه أصر وانا ايضا تمسكت برأيى وانفض الاجتماع وكان قد عقد يوم الخميس مساء دون اتفاق . وخرجت من الاجتماع وقد لامنى بعض

من حضروا لتمسكى واصرارى ولم آبه لواحد منهم وتكملة لهذا الموقف فوجئت بالاستاذ يعقوب فى صباح يوم الجمعة وجها لوجه وكنت فى نادى كوبرى الليمون الذى يقوم بالاشراف عليه اؤدى تدريبا عمليا فرضه على فرضا لكى يعطى مدير المؤسسة الجديدة التى أعمل بها فرصة ليثبت وجوده وانا بعيد عنه وفضلا عن ذلك لكى أفيد عمليا بتطبيق ما وصل اليه الاستاذ يعقوب ومساعدوه من خبرات واقعية فى محيط العمل مع الجماعات وجدته فى صباح يوم الجمعة امامى وأبلغنى انه موافق على ذهابى لتلبية الدعوة الى حضور الاحتفال بتسليم الشهادات لخريجى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة : الدفعة الاولى ويبدو ان الرجل راجع نفسه ووجدنى محقا فلم يلبث ان جاء بنفسه ليخبرنى بالموافقة ويبدو ايضا أنه جاء الى النادى ليتأكد من وجودى فقد خشى أن لا أحضر وأن أترك العمل معه الى الابد فلما وجدنى اشفق على نفسه من أن يتأكد اتهامى له بالظلم لم أكن افهم الاستاذ يعقوب فى تلك الفترة . ويبدو لى الآن انه كان رحمه الله يحاول ان يهدم شخصيتى ليبنيها من جديد . وكنت أرى ان ما كان يفعله افتئاتا على حقى فى أن اعيش أنا . ويبدو لى الآن ان هذا التغيير كان يزعجنى . وكان رحمه الله يعلم ذلك حق العلم ، ومن ثم يحاول ان يأخذ فى اعتباره الحالة التى كان عليها وجدانى فى ذلك الحين كان لايرضى عنى لاننى لادعوه كما كان يدعونه الاخرون بلقب " أنكل " ، فكان يسألنى لماذا لاافعل ما يفعله الآخرون وادعوه بلقب استاذ بدلا من لقب " انكل " . وكنت أصارحه بأننى لاأجد مبررا لان أفعل ذلك فاللقب الاخير كان غريبا على . وكان يرى بحق ان من كان يدعوه بلقب " انكل " على السليقة ودون افتعال فأنه يكون قد كسب ولاءه ومحبته فقد كنت احدس ان هذا اللقب كان يسعد الاستاذ يعقوب وكنت مع احترامى لعقله وانبهارى بخبراته التربوية غير راغب فى ان يكون فى ذلك الحين سعيدا .

ومرت الايام والشهور والاعوام وعرفت جوهر الرجل كما عرفت قيمته وقامته الرفيعة ، واستطعت بعد ذلك أن اكفر عن اخطائى نحوه وان استبدل بالدعاء عليه الدعاء له لكى يبقى لمصرنا الخالدة ذخرا . وهو وان كان قد فارقنا فانه مازال حيا باقيا رحمه الله .

تمــت بحــمد اللـــه

رقم الايداع ٤٨٣٦ - ١٩٨٥

الترقيم الدولى : ISBN٩٧٧ - ١١٨ - ١٨٦ - ٦